الخراج والجزية في عهد الرسول (ص)

د. صالح درادكة
الجامعة الاردنية

تهدف هذه الدراسة الى التعرف على الضرائب في عهد الرسالة النبوية ـ فترة تاسيس الدولة ـ من خلال استقصاء المدلول اللفظي والعملي لكل من مصطلحي « الخراج » و « الجزية ».

فالدراسات الكثيرة في مجال الاقتصاد الاسلامي والمالية ، والضرائب بشكل خاص ، لم تعط هذه الفترة ما تستحقه من عناية ، مع ان مثل هذه الدراسة تشكل الاساس الذي قامت عليه التشريعات المالية في الدولة الاسلامية . وتصبح الحاجة اكثر الحاحاً اذا ادركنا أن فريقا من المستشرقين ممن اهتموا بهذا الجانب ، ذهبوا الى ان العرب لم تكن لهم سابق معرفة بانظمة المال والضرائب والادارة ، وكل الذي فعله العرب انهم فرضوا اتاوة (tribute) على سكان البلدان المفتوحة كيفما اتفق ، ثم بعد ذلك اعطوا هذه الاتاوات تسميات الضرائب التي كانت معروفة عند الروم والفرس، أي أن العرب استعاروا التسميات دون المضامين(١) .

تواجه هذه الدراسة مجموعة من الاشكاليات ، منها أن الباحث المحدث يتطلع الى نظام مالي كامل في هذه الفترة المبكرة من عمر الدولة ، وربما أدى هذا الطموح الى عقد مقارنة ولو ذهنية ، بين ذلك النظام القديم والنظم الحديثة ، مع ما في هذه المقارنة من ظلم للحقيقة . والنظم شأنها شأن الكائنات تولد طفلة غضّة وضعيفة ثم تنمو مع حسن الرعاية عبر الزمن حتى تكبر ويشتد عودها . ولم تخرج الدولة الاسلامية عن سنة الحياة هذه في تطورها في البيئة الاسلامية ، فنشأت أنظمتها ومؤسساتها نشأة طبيعية حتى شمخ بنيانها وبلغ أوجه في العصور اللاحقة . ومن هنا

قدم هذا البحث في ندوة مالية الدولة في صدر الاسلام ، مركز الدراسات الاسلامية ـ جامعة اليرموك، ٧ـ١٠ شعبان ١٤٠٧ هـ/ ٥ـ٨ نيسان ١٩٨٧م.

يجب ان لا تغرب عن أعيننا صورة مجتمع الرسالة ، المجتمع البسيط القريب العهد بالبداوة ، البعيد عن أمور الحسبان والمال كما يقول ابن خلدون(٢) .

مصادر هذه الدراسة هي القرآن الكريم والسنة بالدرجة الاولى ، ومن ثم كتب اللغة والسير والتفسير ، ويتسم المصدران الاول والثاني بالصدق والمعاصرة ، لذلك يحتل القرآن والسنَّة أعلى مراتب الاهمية في هذا البحث ، وتجيء المصادر الاخرى لتوضح وتفصل وتبين المقاصد فيما ورد في هذين المصدرين . ومن المعلوم أن المصادر الاخرى ، بما في ذلك المصادر الفقهية ، جاءت متأخرة بعد القرن الاول الهجري حيث كانت التنظيمات الادارية والمالية قد قطعت شوطا في تطورها ، وتلاقحت مع نظم البلدان المفتوحة ، لذلك نجد هذه المصادر تعكس هذا التلاقح المتمثل بتفاعل العناصر العربية الاسلامية مع عناصر التراث المحلي للبلدان المفتوحة . ويظهر هذا التفاعل في آراء الفقهاء والمحدثين والمفسرين وحتى في المصادر التاريخية والادبية وغيرها من كتب هذه الفترة وما بعدها . ولذلك ستقف هذه الدراسة عند المادة التاريخية في هذه المصادر دون أن تغرق نفسها في اجتهاداتها .

ومن مصاعب هذه الدراسة أيضا ان الامم التي عاصرت نشأة الدولة الاسلامية ــ الفرس والروم ــ لم يكن لها استقرار في أنظمتها ، بمعنى أن قوانينها المالية كانت عرضة للتبديل والتغيير ، فكانت الضرائب تبعا لذلك تزداد وتنقص وتتنوع . وهذا الاضطراب لابد من ان يعكس اثره على التنظيمات المالية العربية . ولقد جاء هذا التأثير بعد فترة الرسالة مع عصر الفتوح والتدوين ، وأصبح من الصعب التمييز في أصول الانظمة بين ما هو عربي وما هو أعجمي . ويزيد الامر صعوبة أن فترة الرسالة خلت من أية وثائق عملية تتعلق بالضرائب ، كتلك البرديات(٣) التي اكتشفت في مصر والقت بعض الضوء على نظام الضرائب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك لان فترة الرسالة تقتصر على الجزيرة العربية قبل الفتوحات والتدوين كما أشرنا . وبناء على ما تقدم فاننا لا ننتظر من هذه الدراسة حسم كل الاشكاليات والاجابة عن كل التساؤلات ، بل هي مجرد مجموعة ملاحظات لاثارة بعض النقاط ، واعادة النظر في بعض المصطلحات التي تشكل الاساس في الدراسات المالية .

ان من حقائق التاريخ أن جميع الدول التي قامت وتقوم على هذه الارض ، تعنى بالمال ، فالمال والشريعة والعدل والرجال اسس الملك لا يقوم بدونها ، كما يرى ابن خلدون(٤) . لهذا لا نجد دولة في القديم والحديث لم تفرض الضرائب وتجمع الاموال لتصريف شؤونها ، وانما اختلفت الدول بمقادير الضرائب وتعددها واساليب جمعها ، فالروم مثلا كانوا يأخذون ضريبة الارض نقدا من جميع الولايات ما عدا مصر التي كانت

تؤدي ما عليها عينا تبعا لقيمة الارض وخصوبتها ، ولذلك كانت اراضي مصر تقوم كل خمسة عشر عاما(٥) . وكانت المواد العينية المصرية تبحر لتطعم سكان العاصمة «رومة» واحيانا القسطنطينية والاسكندرية، المدن الرومانية الرئيسة(٦). وعندما كانت تنخفض قيمة العملات كان بعض الاباطرة يلجأون الى فرض الضرائب العينية عوضا عن النقدية، كما فعل الامبراطور «دقلطيان» Diocletian (٢٨٤–٣٠٥م) الذي عمم الضرائب العينية على ولايات الامبراطورية(٧) . وعلى اي حال فقد بقيت الارض المصدر الاول للضرائب ، والفلاح دائما محورها . وعرفت الدولة الرومانية الضرائب الشخصية (ضريبة الرؤوس Capitation - tax) التي تفرض على الافراد ، وكانت هذه الضريبة معروفة في الفترة البيزنطية والاكثر شيوعا في الولايات الغربية في العهد العربي ،بعكس الولايات الشرقية التي شاعت فيها ضريبة « الخراج »(٨) . وكانت هذه الضريبة ترتفع وتنخفض تبعا لاحوال الدولة ، فبعد ان كانت ستة عشر درهما للشخص الواحد في القرن الاول الميلادي ، ارتفعت في القرن الثاني الى عشرين درهما ، وكان يدفعها جميع السكان الذين تتراوح اعمارهم ما بين الرابعة عشرة والستين(٩) . ومن أجل هذا كانت الدولة تجري احصاء للسكان كل اربع عشرة سنة للوقوف علي اي تغيير(١٠) . وكانت جميع فئات الشعب تدفع هذه الضريبة باستثناء الفئات الممتازة ، ففي مصر ، مثلا كان يعفى منها مواطنو الاسكندرية والروم وأبناء الجند الاغريق الذين جلبهم البطالمة، وعدد من القسس في كل معبد (١١) ويدفعها الرعايا غير المسيحيين واوردت المصادر اشارة تفيد أن عمرو بن العاص أخبر الخليفة عمر بن الخطاب انه وجد اربعين الفا من اليهود يدفعون الجزية(١٢) .

ومما يجدر ذكره أن هذه الضريبة (ضريبة الرؤوس) فرضت تحت اسم Kapnikon على ارقاء الارض في السلم ، وحتى على الاحرار في زمن الحرب(١٣) .

وكانت ضريبتا الارض والرأس أهم موارد الدولة الفارسية بالاضافة الى ضرائب اخرى تتزايد بحسب الظروف والاحوال(١٤) ، وغالبا ما كانت هذه الضرائب الفادحة تقع على الاقاليم العربية الغنية وبخاصة العراق(١٥) .

لما اعتلى كسرى الاول عرش فارس ، كان الملوك يقاسمون الفلاحين غلال أرضهم بنسب متفاوتة(١٦) . ولو قارنا بين ضريبة الارض الفارسية وضريبة الخراج التي فرضها العرب على بعض الاراضي المفتوحة ، لوجدنا أن ضريبة الخراج اقل بكثير من الضريبة الفارسية التي كانت تصل عندهم في بعض الاحيان الى النصف .. فقد ذكرت بعض المصادر ان ملوك الفرس قبل كسرى كانوا يقاسمون الزراع محاصيلهم . وقد استدعت وطأة هذه الضريبة القيام ببعض الاصلاحات في عهد قباذ (٤٨٧–٥٣١)

وكسرى انوشروان (٥٣١–٥٧٨)(١٧) . اما ضريبة الراس فقد فرضت في زمن كسرى على الرجال من سن العشرين الى سن الخمسين ، واعفيت منها فئات من اهل اليونان والعظماء وبعض رجال الدين ، والكتاب ، والاشراف ، والوجهاء ، ورجال الجيش ، وموظفي الدواوين ، وحاشية الملك وخدمه. وقد راعت الادارة الفارسيةفي عهد كسرى مقدار دخل الفرد عند تقرير هذه الضريبة وأعفت منها الصغار والشيوخ ، وما كان يعيبها في عهد كسرى انو شروان ، سوى اعفاء ذوي النفوذ من رجال الدولة . ومما تقدم نرى ان تعدد الضرائب كان معروفا عند الفرس والروم قبل الاسلام بما في ذلك ضرائب الارض والرؤوس.. ويبدو أن هذا التعدد والاضطراب في نظام الضرائب في الدولتين الرومية والفارسية أوجد التداخل بدءا في مفهوم كل من الجزية والخراج .

وليس صحيحا ما ذكره بعض المستشرقين من أن كلمة الخراج ليست عربية الاصل ، وانما هي من مصطلحات الروم أو الفرس الادارية ، اقتبسها العرب منهم بعد ذلك ، في حين يرى آخرون انها مقتبسة من لفظة « خورجيا » اليونانية(١٨) ، وكذلك القول بأنها من اصل آرامي **Halak** واصبحت في الفارسية **Harak** او **haraq** واصبح معناها في عهد الفرس الاخمينيين ضريبة الارض ، ثم استعارها العرب من اللغة الادارية الفارسية اثناء حكمهم للولايات الشرقية(١٩) . ومن هذا القبيل قول الخوارزمي ومونتغمري وات(٢٠) . والثابت ان لفظة « خراج » وردت على لسان العرب قبل اختلاطهم بالامم الاخرى بعد الفتوحات الاسلامية ، ويؤيد هذا انها عندهم تحمل معنى عاما لا يرادف مدلولها لدى غيرهم من الامم(٢١) . ولتوضيح هذه القضية نسوق الادلة الاتية :

١ – ورد ذكر « الخرج » و « الخراج » في القرآن الكريم في قوله : « ان يأجوج وماجوج مفسدون في الارض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا »(٢٢) وقوله تعالى : « أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين »(٢٣).

٢ – حديث ابن عباس ، أن رسول الله لم ينه عن المزارعة ولكن قال : «لأن يمنع احدكم أرضه خير من ان يأخذ عليها خراجا معلوما »(٢٤) .

٣ – جاء في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى اهل نجران قوله « فما زادت حلل الخراج أو نقصت عن الاواقي فبالحساب»(٢٥) .

٤ – حديث أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب الى سوق فقال : « هذا سوقكم فلا ينقصن ولا يضربن عليه خراج »(٢٦) .

ورويت عدة أحاديث اخرى عن الصحابة والتابعين ذكرت الخراج ليس هنا مجال تفصيلها(٢٧) .

وجاء لفظ الخراج في المعاجم وكتب اللغة بمعنى الاتاوة ، والجزية ، والمال المضروب على الارض(٢٨) . والخرج والخراج واحد ، وهو شيء يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ، والخراج، غلة العبد والامة(٢٩) . قال الزجاج ، الخراج : الفيء . والخراج الضريبة والجزية . وقيل الجزية التي ضربت على رقاب أهل الذمة «خراج»لانه كالغلة الواجبة عليهم(٣٠). ومن معانيه أيضا ، الكراء والاجر والثواب(٣١). وكما هو واضح من الامثلة السابقة ، فان لفظ الخراج يحمل معنى عاما مشتركا يفيد معنى الجزية والفيء ، ولا يتخصص معناها الا مع وجود القرينة الدالة على خصوصيته(٣٢) . والمعاني اللغوية للخرج والخراج لا تخرج عن ظاهر المعاني لهاتين اللفظتين في القرآن الكريم كما أشار المفسرون(٣٣) وفيها وفي غيرها من المصادر الاولية نجد ان معنى الخراج يفيد ضريبة الرأس والامثلة على ذلك كثيرة..

أما المدلول الاصطلاحي لكلمة « الخراج » فلا يخرج عما سبق ذلك أن الكلمة جاءت على ألسنة الفقهاء بمعنى الفيء ، ومن ذلك قول أبي يوسف : « فاما الفيء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، أي خراج الارض »(٣٤) . ووردت في مكان آخر من كتابه بمعنى جزية الرأس(٣٥) . وحتى يتوضح هذا الاشكال الناتج عن اشتراك اللفظين في المعنى يقول ابن القيم الجوزية : « الخراج هو جزية الارض كما أن الجزية خراج الرقاب(٣٦) . ومثل ذلك فعل الماوردي فقال : « وأما الخراج فهو ما وضع على رقاب الارض من حقوق تؤدي عنها »(٣٧) . ويبدو أن تخصيص ضريبة الخراج بالارض بدأ يشق طريقه منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، حيث وضعت ضريبتان : الخراج والجزية ،ومنذ ذلك التاريخ أخذت كل من الكلمتين تستقل عن الاخرى ، حتى أصبحنا نجد أن الجزية تدل على ضريبة الراس والخراج تدل على ضريبة الارض بعد عهد عمر ، وأخذت تتميز الاراضي الخراجية والاراضي العشرية بعضها عن بعض ، رغم ما صاحب ذلك من اشكالات(٣٨) ..

ان الاستعراض اللغوي لكلمة خراج في العهد الاسلامي المبكر، يفيد معنى مشتركا تقيده القرينة الدالة عليه ، وهو لفظ عربي باصوله ، وصيغه واشتقاقاته ، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام ، هل كان فعل النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر وفدك ووادي القرى (قبل تبوك) من قبيل الخراج . ولتوضيح الاجابة على هذا التساؤل نستعين بأبي عبيد ، الذي يقول : « ان الاموال صارت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أصناف : الفيء والخمس ، والصدقة ، وهي التي نزل بها الكتاب

وجرت بها السنة وعملت بها الأئمة ، واياها تأول عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ حين ذكر الاموال »(٣٩) .

وقد عرّف أبو يوسف الفيء بأنه الخراج ، أي خراج الارض واستشهد على ذلك بقوله تعالى : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى . . »(٤٠) لقد استخدم ابو يوسف الخراج لفظا بدلالته العامة ، فهو يقول في معرض تقديم أسباب تأليفه كتاب « الخراج » : « ان أمير المؤمنين أيّده الله تعالى سألني ان أضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج والعشور ، والصدقة، والجوالي(٤١) ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به»(٤٢) فالخراج من الاسماء المجملة ، يجمع كل واحد منها أنواعا من المال(٤٣) ، وحسبنا دليلا على عمومية الدلالة أن أبا يوسف جعل « الخراج » اسما لكتابه الذي ألفه للخليفة العباسي هارون الرشيد وعالج فيه أنواع المال المختلفة .ومثله فعل يحيى بن آدم(٤٤)، وجعل أبو عبيد «الاموال» اسما لكتابه ، وموضوعه لا يخرج عما في كتابي ابي يوسف ويحيى بن آدم ، ولا في كتب غيرهم ممن الفوا في الاموال والخراج . وعليه يمكننا أن نقبل أن الفيء والخراج تعني ، في فترتنا ، الشيء نفسه في مدلولها العام .

وفي مسألة خيبر ، ذكرت المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاز اموالها كلها بعد ان افتتحها عنوة(٤٥) ، وبعدها سأل اليهود الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسيرهم ويحقن دمهم ، ويخلوا له الاموال ، ففعل ، ولما نزل اهل خيبر على ذلك طلبوا من الرسول ان يعاملهم في الاموال على النصف واشترط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه متى ماشاء اخرجهم . وصالحعلى مثل ذلك أو نحوه أهل فدك ووادي القرى(٤٦) . ووصفت بعض المصادر فعل الرسول هذا مع اهل خيبر ، بأنه من قبيل المساقاة والمزارعة . فقال ابن شبّة : « بقيت أموالهم بايديهم على النصف مساقاة»(٤٧) وذكر ابو عبيد ان معاملة عمر بن الخطاب للسواد في العراق كالمزارعة ، وهي التي يسميها أهل المدينة «المساقاة»(٤٨) ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ساقى يهود خيبر على النصف من سوادها والنصف من بياضها ، وهو الاصل في المساقاة(٤٩) . ولعل اصل هذه الاحاديث المتعلقة بمعاملة يهود خيبر ، هو حديث ابن عمر : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطى خيبر لليهود ، على ان يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما خرج منها »(٥٠) .

وقال الشافعي : « اذا دفع الرجل الى الرجل النخل او العنب يعمل فيه ، على أن للعامل نصف الثمر ، أو ثلثها أو ما تشارطا عليه من جزء منها فهذه (المساقاة) الحلال التي عامل الرسول صلى الله عليه وسلم اهل خيبر واذا دفع الرجل ارضا

بيضاء (غير مزروعة باشجار) على ان يزرعها المدفوعة اليه بالحبوب وما شاكلها ، فهذا من المزراعة »(٥١) .

وقد اعتبر الفقهاء ما جرى في خيبر تشريعا بنـوا احكامهم عليـه في المساقـاة والمزارعة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة فيتقاسم التمر معهم ويخيّرهم في القسمة بقوله : « ان شئتم فلكم وان شئتم فلي »(٥٢). ويذكر ابن اسحاق أن خيبر كانت فيئا للمسلمين(٥٣) ، وقد اسلفنـا أن مـن معاني الفيء ، الخراج ، وأن الخراج في اللغة يعني الاجر والكراء والغلة ، ومن ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قضى أن « الخراج بالضمـان »(٥٤) . وما فعله الرسـول صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن هذا ، فقد دفع الرسول صلى الله عليه وسلم النخل والزرع الى يهود خيبر مقابل نصف ثمرها كراء لها منهم . وعليه فخيبر أرض عنوة صولـح اهلها عليها ومسحت(٥٥) أرضها فهي والحالة هذه من الفيء الـذي يعني فيمـا يعني الخراج والجزية ، ويعزز هذا قول ابن قيم الجوزية : « واهل خيبر وغيرهم من اليهود في الذمة والجزيـة سواء ، لا يعلم نزاع بين الفقهاء في ذلك »(٥٦)، وكذلك قول يحي بن آدم : « انما أرض الخراج ما كان صلحا على خراج يؤدونه الى المسلمين»(٥٧) وما ذكره الشعبي من أن : « اول من فرض الخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرض على أهل هجر ، على كل محتلم ذكرا كان أو انثى»(٥٨) . واذا اخذنا ما قاله الكاساني ، مـن أن : « الخراج نوعان ، خراج وظيفة ، وخراج مقاسمة ، وخراج الوظيفة يفرض على الارض بالنسبة الى مساحتها ، ونوع زراعتها ، وخراج المقاسمة أن يكون الواجـب شيئا من الخارج نحو الخمس والسدس وما أشبه ذلك ، وهذا النوع جائز ، فقـد فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر لما افتتحها »(٥٩) .

وننتهي من المناقشات السابقة الى تقدير ان ما فعله الرسول صلى الله عليـه وسلم بأهل خيبر هو الخراج بمفهومه العام ، اذ ان هذا المصطلح لم يكن شائعا كضريبة على الارض ومن مواصفات معينة ،لان هذا لم يعرف الا في زمن عمر ، الا ان الضريبـة التي اطلق عليها عمر اسم : « الخراج » اخذها الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة قبل نزول آية الجزية ، وقبـل فرض عمر بن الخطاب لها في سواد العراق ، وأن هذا الاضطراب في فهم هذه المسألة مرجعه الى كثرة الاراء الفقهية التي ظهرت حـول أنواع الضرائب ، وانواع الاراضي ما بين خراجية وعشرية وغيرها(٦٠) . وهناك سبب آخر ادى الى هذه البلبلة التي نراها في مصادرنا ، وهو تعدد الضرائب بعد ان كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ضريبة واحدة على أهل الذمة، بالاضافة الى مجموعة الالفاظ العربية الدالة على الضريبة الواحدة .

والمسألة الثانية التي يتناولها هذا البحث هي الجزية . وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(٦١) . وقد اعتبرت هذه الاية ايذانا بأخذ الجزية من أهل الكتاب ، وممن تنطبق عليهم الاوصاف الواردة فيها .

وقد اختلف في زمن نزول هذه الاية ، والذي عليه الجمهور انها قريبة من غزوة تبوك ، أي السنة التاسعة للهجرة ، وقد ربط أغلب الذين تعرضوا لهذه المسألة بين هذه الايـة وبين غزوة تبوك(٦٢) ومما يقوي هذا الاتجاه أن عهود الامان وكتب الصلح التي جرت بين الرسول صلى الله عليه وسلم والاقوام من أهل الذمة ، وتضمنت شرط الجزية ، انما جرت أثناء اقامة الرسول بتبوك أو بعدها . وفي تأكيد هذا الرأي قال السيوطي في الدر المنثور والطبرسي في مجمع البيان وأبو عبيد في الاموال وغيرهم ، انه لما نزلت هذه الآية ، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك(٦٣) .

ويعترض هذا الاتجاه الذي تؤيده الاغلبية اربع مسائل : الاولى تتمثل ببعض الروايات التي تقول بأن آيـة الجزيـة نزلت في قريظـة والنضير من اليهود (٦٤) ، والثانية : ما جاء في احدى نسخ كتب الرسول صلى الله عليه وسلم الى قيصر الروم وفيها طلب الجزية ، والاستشهاد بالاية التي وردت فيها(٦٥) ، والثالثة : ما روي عن الرسول صلى عليه وسلم من احاديث ذكر فيها لفظ الجزيـة ، ويوحي سياقهـا بانها قيلت في وقت سابق على نزول آية الجزية ، كقوله صلى الله عليه وسلم لعمه وبعض قومه : « قولوا معي لا اله الا الله تدين لكم بها العرب ، وتؤدي لكم العجم الجزية»(٦٦) وروي عنه أيضا أنه قال : « لو عاش ابراهيم لاعتقت اخواله ولوضعت الجزية عن كل قبطي »(٦٧) . والمسألة الرابعة تتمثل في ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه صالح أهل تيماء على الجزية مع صلح خيبر وفدك ووادي القرى(٦٨) وذلك قبل غزوة تبوك ونزول آيـة الجزية .

أما المسألة الاولى فتقوم على رواية الكلبي ، وهي رواية ضعيفة ومرسلة ومتفردة ولا تؤيدها السنن العملية . ويؤخذ على المسألة الثانية (كتاب الرسول الى قيصر)انها ليست من مجموعة الكتب التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم الى الملوك والامراء بعيد الحديبية ، وكانت خلوا من ذكر الجزية ، وانما تعود هذه الرسالة ، التي انفرد بها أبو عبيـد ، الى فترة اقامة الرسول صلى الله عليه وسلم بتبوك حيث ذكرت المصادر المراسلات بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقيصر الروم من تبوك(٦٩). وأما ما روي من أحاديث مبكرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكرت الجزيـة ، فقد

جاءت في السياق اللغوي بمدلولها العام ، أي ضريبة ، لان هذه الكلمة من العربيــة ، وليس غريبا أن ترد على اللسان العربي .. وبعد نزول آية الجزية أخذت تتخصص هذه الضريبة بأفراد أهل الذمة ممن لهم كتاب أو ليس لهم كتاب . وأما رواية البلاذري عن جزية تيماء فهي رواية انفرد بها ، ومع أن البلاذري مؤرخ محقق ، الا ان هذه الرواية لم تؤيد من أي مصدر اخر معاصر ، ولا سيما ان اسلوب كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى يهود تيماء « بني غاديا » يشابه أسلوب كتب الامان التي اشترط فيها الجزية وكتبت بعد نزول براءة ، وعلى الرغم من أن المصادر التي اوردت كتاب صلــح يهــود تيماء قليلة ، فان بعضها صرح بأن هذا الصلح قد تم في السنة التاسعة(٧٠) . ولا يخرج المعنى اللغوي للجزية عن خراج الارض وما يؤخذ من الذمي ، والجزية مثل القعــدة والجلسة ، وقيل سميت كذلك لانها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه ، أي يقضوه، ومن هذا القبيل ما ذكره ابن قدامة(٧١) الجزية : هي الوظيفة المأخوذة من الكافر لاقامته بدار الاسلام في كل عام وهو فعلة ، من جزى يجزي اذا قضى قال تعالى : « واتقــوا يوما لاتجزي نفس عن نفس شيئا »(٧٢) . والراجح ان الجزية شرعت بدلا من الحماية والامان الذي تتكفل به الدولة بموجب عقد الذمة ، الذي يتضمن أمان أهل الذمــة في أنفسهم واموالهم وأديانهم ، وهذا ما أيدته أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم واعماله، وأعمال خلفائه من بعده(٧٣) . والجزية من غـير المسلمين انما تقــوم مقام الزكاة مــن المسلم ، ذلك أن كل فرد من أفراد الدولة الاسلامية عليه واجبــات وله حقوق ، ومــن واجباته أن يؤدي قسطا مما يصرف في المصالح العامة ، مقابل واجب التمتع بالحقوق، فان كان هذا الفرد من المسلمين فالواجب عليه معين في امواله وهو الزكاة ، وان كان من غير المسلمين فالواجب عليه معين على رأسه وهو بمنزلة الزكاة من المسلم ، ولــذا لا تجب على الذمي زكاة في أموالــه ولا سوائمــه . واذا أسـلم سقطت عنه الجزيــة ووجبت في ماله الزكاة ، وذلك لانه لا يجمع بين واجبين(٧٤) . وفي هذا المعنى نقل أبــو عبيد عن الحسن قوله « ليس على أهل الذمة صدقــة في أموالهم ، وليــس عليهم الا الجزية »(٧٥) ويمكن تسمية ذلك بحقوق المواطنة . وعليه فانني لا اجد سندا لاولئك الذين ذهبوا في ايراد معاني الذلة والاستكانة والخضوع ، واعتبار الجزية مــن باب العقوبة لغير المسلمين . فالسنة العملية وأقوال الرســول صلى الله عليــه وســلم واصحابه ، وأتباعه ، في حقوق أهل الذمة ، وضرورة الرفق بهم والاحسان اليهم وعدم أخذهم بالعسف بالجباية ، هي أكثر من أن تحصى .

ومما تقدم ، نرى ان الجزية تستمد مشروعيتها من القرآن والسنة واجماع الامة، المتمثل بجواز أخذ الجزية في الجملة(٧٦) بينما نجد أن الخراج مبني على الاجتهاد .

وقد اختلف في أول جزية أخذها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية،

فقال الزهري وآخرون غيره : « أول من أعطى الجزية أهل نجران »(٧٧) .. وفي رواية الشعبي أن أول ما فرض الرسول صلى الله عليه وسلم الخراج على أهل هجر (٧٨) ، وقد دأبت المصادر التي اوردت عقود الجزية أو كتب الصلح والامان ، أن تبدأ بصلح يحنه بن رؤبة وأهل أيلة « العقبة » ، فقد قدم وفدهم على الرسول في تبوك بزعامة يحنه صاحب أيلة ، وعقدوا الصلح واخذوا كتابا تضمن الامان ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة « سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس. وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » . وذيل الكتاب باسمي كاتبيه : باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة . وكان قد سبق هذا الكتاب ، كتاب آخر من الرسول صلى الله عليه وسلم الى يحنه بن رؤبة وسروات أهل أيلة ، فيه انذار ووعيد بوجوب الاسلام أو الجزية ، فكان أن قدم وفدهم الى تبوك وتعهد بتأدية جزية مقدراها ثلاثمائة دينار في السنة أي بمعدل دينار واحد لكل حالم في أيلة(٧٩) .. وتتابعت بعد ذلك عقود الصلح وفيها شرط الجزية مع جرباء وأذرح ومقنا وتيماء ودومة الجندل . وكان مقدار جزية أذرح مائة دينار في كل رجب(٨٠) . أما الصلح مع أهل مقنا فكان مختلفا ، اذ نص على تجريد أهل مقنا من السلاح الا ما عفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه أيضا : « وان عليكم بعد ذلك ربع ما اخرجت نخلكم وما صادت عروككم وما غزلت نساؤكم وانكم برئتم بعد من كل جزية او سخرة »(٨١) . ولم تصلنا تفاصيل الصلح مع بقية مراكز اهل الذمة في شمال الجزيرة ، أي جرباء وتيماء ، ودومة الجندل . وصالح خالد بن الوليد صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف على شط الفرات ، وكتب اليهم كتابا فيه « اني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد ببانقيا وبسما جميعا ، على عشرة الاف دينار سوى الخرزة ، القوي على قوته ، والمقل على اقلاله في كل سنة .. ومما جاء فيه : « فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم »(٨٢) .

ومن عقود الصلح المشهورة ، صلح أهل نجران ، وهم قوم من النصارى تضمن صلحهم أمان المسلمين لهم وحمايتهم بوصفهم اهل ذمة ، شاهدهم وغائبهم ، وكل ممتلكاتهم ، ولا يغير أسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم ربية(٨٣) ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقا ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن كل ربا من ذي قبل ، فذمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، معه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وجاء في كتاب الصلح أن على اهل نجران تقديم الفي حلة من حلل الاواقي(٨٤) في كل رجب الف حلة ، وفي كل صفر الف حلة ، وقيمة كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج ،او نقصت عن الاواقي فبالحساب . وما قضوا من دروع ، أوخيل، أو ركاب او عروض اخذ منهم بالحساب .. وعلى نجران مؤونة الرسل ومنعتهم ما بين عشرين يوما فما دون ذلك ، ولا تحبس رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق شهر ، وعليهم عارية(٨٥) ثلاثين درعا ، وثلاثين فرسا ، وثلاثين بعيرا اذا كان كيدباليمن ومعرة(٨٦) وتعهد عليه السلام أن يرد عماله العارية كاملة أو عوض ما ينقضيمنها .

وكاتب الرسول صلى الله عليه وسلم أهل البحرين وأزد عمان ومجوس هجر ، وقد تعددت عقود الصلح مع هذه الاقوام وغيرها على شرط الجزية وذلك بعد رفضهم قبول دعوة الاسلام التي كانت تعرض على الاقوام بدءا . وقد أثار أخذ الجزية من المجوس وعبدة الاوثان من العجم الجدل بين الفقهاء لتعليل فعل النبي هذا .واشترط في صلح المجوس وعبدة الاوثان : ان لا تؤكل لهم ذبيحة ولا تنكح لهم امرأة . وذكرت بعض المصادر ان مقدار الجزية على المجوس مثل مقدارها على غيرهم من أهل الذمة ، سواء كانوا من أهل الكتاب أم الصابئة ، او أهل الوثنية من العجم ومقدارها فيالاغلب: « دينار على كل حالم » . وقد ثبت أخذ الجزية من هذه الاقوام بالسنة العملية ، وبحديث عبد الرحمن بن عوف عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال في امر المجوس « سنّوا بهم سنّة اهل الكتاب »(٨٧). وقدم على الرسول صلى الله عليهوسلم وهو في المدينة وفد قبيلة تغلب بن وائل العربية ، فصالح النصارى منهم على أن « لا يعمدوا أبنائهم » ولم يفرض عليهم جزية(٨٨) . وفي عهد عمر ابن الخطاب دفعت تغلب الصدقة مضاعفة على ان لا يسمى ما يدفعونه جزية ، وقبل منهم عمر ذلك لاظهارهم الحمية العربية(٨٩) . وقد ادى اجراء الخليفة عمر هذا الى كثير من المناقشات ، فيما اذا كان ما دفعه بنو تغلب جزية أم لا ؟ وفيما اذا كانت الجزية تقبل من العرب غير المسلمين أم لا ؟ثم مدى التطابق بين ما جاء في آية الجزية وبين الاجراءات العملية التي تمت في الفترة الاولى من عمر الدولة الاسلامية ؟ ويبدو ان الجزية أخذت من غير المسلمين على اختلاف دياناتهم وأوطانهم ، فقد جاء في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوي حاكم البحرين : « ان من أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »(٩٠) .

ومن بين الوثائق المهمة في بحثنا ، كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل واليه على اليمن ، وقد امره فيه : أن يأخذ من كل حالم دينارا أو عدله من المعافر ، من الذين بقوا على دينهم وقبلوا تأدية الجزية(٩١) . وجاء في بعض روايات الكتاب السابق ان : «على كل حالم وحالمة دينارا » . وهذه رواية ضعيفة وتخالف

المألوف في جمع الجزية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده . وقد روى الامام احمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ، وغيرهم ، هذا الحديث، فاقتصروا على ذكر الحالم دون الحالمة(٩٢) .

وفي ختام هذا البحث نستخلص جملة من الحقائق التالية :

١ ــ أن الجزية ضريبة خاصة بغير المسلمين ممن هم في دار الاسلام أو من المعاهدين خارج هذه الدار ، ويجوز أن تؤدى هذه الضريبة نقدا، بمعدل دينار للفرد الواحد في السنة ، أو قيمة الدينار من المواد العينية المتيسرة .

٢ ــ يراعى في جباية هذه الضريبة احوال المكلفين بها من حيث الغنى والفقر ، ومن حيث مصلحة الدولة ، ثم من حيث نوع العمل ومادة الانتاج الاكثر يسرا للمكلف ، فلهذا وجدنا اختلافا في نوعية الجزية المتفق عليها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من منطقة الى اخرى ، ففي صلح أيلة واذرح كانت نقدا بالدينار، وفي صلح مقنا كانت من المواد العينية التي ينتجها أهل مقنا ، وفي صلح نجران، كانت الجزية حللا ، وهي ملابس اشتهر النجرانيون بصنعها .

٣ ــ يستفاد من السنة العملية أن بامكان المكلفين استبدال موادا عينية بجزيتهم ان كانت نقدا ، أو نقدا ان كانت موادا عينية ، كما جاء في امر الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ في اليمن « دينار او عدله من المعافر » ، وما جاء في صلح نجران: « حلل او قيمتها من الاواقي »(٩٣) .

٤ ــ اختلف الفقهاء تبعا لتباين عقود الصلح في تقدير الجزية فقال بعضهم أقلها دينار، ولا حد لاكثرها ، ورأى بعضهم غير ذلك ، والاصح ما قاله بعض الفقهاء : « أن ينظر في كل بلد الى حال أهله ، وما يعتبرونه في ذلك ، فان عادة البلاد في ذلك مختلفة »(٩٤) . وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في الاعتبار المكنة والقدرة عند تقدير الجزية ، حتى وجدناه لا يفرض شيئا ماديا على نصارى تغلب بينما رأينا تفاوت مقدار الجزية في العقود الاخرى من بلد الى اخر .

٥ ــ اتسمت عقود الجزية في عمومها ، بالتسامح والحرية والمرونة وتضمنت كفالة دولة الرسول صلى الله عليه وسلم لامن الرعايا من اهل الذمة وحمايتهم وممتلكاتهم وأماكن عبادتهم ، وحتى في بعض الاحوال ترك حكمهم لانفسهم بشرط التزام النصفة والعدل في احكامهم ، كما رأينا في صلح نجران .

٦ ــ وقد راى بعض الفقهاء نتيجة لتفاوت مقدار الجزية المضروبة على أهل الذمة وشروطها ، ان الجزية قسمان : الاول ويقوم على الصلح والتراضي في تحديد شروط الجزية ، وغالبا ما تتصف بالتسامح والمبالغة في ضمان الامن والحماية من طرف المسلمين . والثاني : ما يفرض من طرف المسلمين لعدم اذعان الطرف الاخر ثم يضطرون الى الاذعان قهرا بعد مقاومة ، وفي هذه الحالة تتزايد شروط الصلح عن النوع الاول ، ولكن دون أن تخرج عن حدود المكنة والقدرة .

٧ ــ يستدل من السيرة العملية أيضا ، ان أهل الشرك في الجزية سواء .

٨ ــ نظر الاسلام للعرب نظرة خاصة تقوم في الاساس على اعتبارهم عصب الدولة ، ولذلك لم يقبل من أهل الوثنية منهم الا الاسلام او السيف ، كما خففت شروط الجزية عنهم ان كانوا أهل الكتاب.

٩ ــ يجوز اضافة شروط استثنائية على أهل الذمة ، تبعا للدواعي التي تهم الدولة، كضيافة الجند في حال مرورهم ، أو عمال الدولة عند قيامهم بواجباتهم ، والاصل ان لاتزيد الضيافة عن ثلاثة أيام لقوله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة ثلاثة أيام »(٩٥) ، وأن يكون القِرى من قِرى القوم برضى دون عسف(٩٦)، أو اعارة المقاتلة من المسلمين بعض أدوات القتال ان حدث ما يستدعي القتال، مع ضمان عمال الدولة لاعادة المستعار او عوضه كاملا غير منقوص ، كما جاء في كتاب الصلح مع أهل نجران .

وقد وقع خلط في كتب الصلح التي اسندت للعلاء الحضرمي لاهل البحرين، فجاء فيها شرط مقاسمة التمر ، وتقديم جزية الرأس(٩٧) ، ويبدو أن هذا جمع للعشر من التمر ، المطلوب من المسلمين عن أرضهم ، والجزية المطلوبة من غيرهم من سكان البحرين الذين كان فيهم المسلم والمجوسي والكتابي وغيرهم .

١٠ ــ خلص بعض الائمة الى انه يشترط ان تؤخذ من الذكور دون الاناث ، فقال الشافعي : هي دينار واحد على الرجال الاحرار دون العبيد . وذلك استدلالا بلفظ « أن على كل حالم دينارا »(٩٨) . واقتضى شرط الحلم أنها لا تؤخذ الا من البالغ العاقل القادر ، فلا جزية على شيخ فان ولا زمن ولا أعمى ولا مريض لا يرجى برؤه ، هذا مذهب الامام احمد واصحابه وابي حنيفة ومالك والشافعي في احد اقواله ، لان هؤلاء لا يقتلون ولا يقاتلون ، فلا تجب عليهم الجزية كالنساء والذرية(٩٩) . وذهب ابن قدامة الى الجزم بأن الجزية لا تؤخذ الا ممن اكتملت فيه الشروط السابقة قائلا : « ولا نعلم

بين أهل العلم خلافا في هذا»(١٠٠) . ورأى بعض الفقهاء ان الجزية تؤخذ من الرهبان اذا خالطوا السكان ، وأما اذا انقطعوا في الصوامع والديارات فلا تجب عليهم ، لانها انما تجب على المعتمل والقادر على القتال(١٠١) .

وتدل السيرة النبوية في معاملة أهل الذمة ، ان الجزية مفوضة الى رأي الامام وتؤخذ الجزية في آخر الحول ، فهي ضريبة سنوية ، يشترط عند جبايتها أخذ اصحابها باليسر والرفق ، اذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا بعث الجباة قال : « خففوا فان في المال العزبة والوطية »(١٠٢) . كما روى عنه أنه قال : « لعلكم تقاتلون قوما، فيتقونكم باموالهم دون انفسهم وابنائهم ويصالحونكم على صلح ، فلا تأخذوا منهم فوق ذلك فانه لا يحل لكم »(١٠٣) والاحاديث التي تنهي عن ظلم الذمي وعدم رعاية عهده كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها . وكان جباة المسلمين يجمعون الزكاة من المسلمين والجزية من غيرهم . وتسقط الجزية عن المكلف بها في حالات : الاسلام ، او الموت ، أو عدم القدرة ، أو التكرر (أي اذا تراكمت بالسنين) أو عجز الدولة عن الحماية ،وفي هذا المعنى قال الماوردي(١٠٤) : « ان غرض الجزية » الكف والحماية ، ليكونوا (أي أهل الذمة) بالكف آمنين وبالحماية محروسين . وقد روى نافع عن ابن عمر انه قال: كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم أن قال : « احفظوني في ذمتي »(١٠٥).

المصادر والمراجع :

(١) د. دينيت ، **الجزية والاسلام** ، ترجمه وقدمله الدكتور فوزي فهيم جاد الله ، راجعه الدكتور احسان عباس ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (انظر المقدمة القيمة للمترجم) . سيشار اليه : دينيت .

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، **المقدمة** ، دار الكتاب اللبناني ـ مكتبة المدرسة . بيروت ـ لبنان ١٩٨٢ ، ص ٤٢٠ ، ٤٩٣ ـ ٤٩٥ . سيشاراليه : مقدمة ابن خلدون .

(٣) انظر دينيت ص ١٥-٢٢ .

(٤) المقدمة ص ٥٠٨ .

(٥) عبد العزيز النعيم ، **نظام الضرائب في الاسلام**، ومدى تطبيقه في المملكة العربية السعودية ، دار الاتحاد العربي ـ القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٢. سيشار اليه : عبد العزيز النعيم .

(٦) A. Johnson, **Byzantine Egypt** Princeton, 1949 pp. 239-240
سيشار اليه :.Johnson وانظر محمد ضياء الريس ، **الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية** ، ط ٤ القاهرة ، ١٩٧٧ ص ٤٥ . سيشار اليه : محمد ضياء الريس .

(٧) N.H. Baynes, A.H. St. Moss (Editors)**Byzantium,** An introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1948, P. 100.

سيشار اليه : Baynes وانظر محمد ضياء الريس ، ص ٤٤–٤٥ .

(٨) انظر : A.S.Tritton, **the khalifs and thier non- Muslim Subjects,** Oxford, 1930 P. 197 .

سيشار اليه : Tritton

(٩) J.G. Milne, **A History of Egypt Under Roman Rule,** London, 1898 P. 121-122 .

سيشار اليه : Milne

وانظر : صبحي الصالح ، **النظم الاسلامية**،نشأتها وتطورهـا ، ط١ بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م . ص ٢٥ . سيشار اليه : صبحي الصالح . ومحمد ضياء الريس ص٥٠ . عبد العزيز النعيم، ص ٤٧ .

(١٠) Milne, P. 120-121. Johnson, p. 260 - 264 .

(١١) عبد العزيز النعيم ص ٤٧ .

(١٢) انظر : E. Gibbon, **The Decline and fall ot ihe Roman Empire.**E.M.S. Lib (London) 1911. Vol. 5 p. 344.

سيشار اليه : Gibbon

وانظر صبحي الصالح ، ص ٢٥ . ومحمد ضياء الريس ص ٥١ .

لم اعثر على هذه الرسالة في المصادر العربية المتوفرة وأسندها المحدثون الذين أشاروا اليهـا الى جيبون . وقد ذكر البلاذري في فتوحـه(ص ٢٢٥) أن جزية الاسكندرية كانت ثمانية عشـر الف دينار ، فلما كانت ولاية هشام بن عبدالملك بلغت ستة وثلاثين الف دينار . وجاء في النجوم الزاهرة (جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي ٨١٢–٨٧٤هـ) ، النجـوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، وزارة الثقافـة والارشاد القومي – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة د.ت. ص١–١٨ أن جميع من احصي يومئذ بمصر اعلاها واسفلها من جميع القبط فيما احصوا وكتبوا أكثر من ستة الاف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر الف دينار. وهذا يدعو للشك بالرقم الذي أورده (جيبون) .

(١٣) Baynes. p. 82 .

(١٤) عبد العزيز النعيم ص ٨٠ .

(١٥) أ.كريستنسن ، **ايران في عهد الساسانيين**،ترجمة الخشاب وعزام دار النهضة العربية ، بيروت، د.ت، ص ١١١–١١٢ . سيشار اليه : كريستنسن .

(١٦) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ) **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ، ص٢/١٥٠ . سيشار اليه : الطبري ، تاريخ .

(١٧) Sykes. A History of persia, London, 1930 Vol . Ip. 462.
سيشار اليه : Sykes

وانظر الطبري ، تاريخ ٢/١٥٠ .والجهشياري ، محمد بن عبدوس **الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وزميليه ، طبعة الحلبي ،ط١ ، القاهرة ١٣٥٧/٩٣٨ ، ص٤ . سيشار اليه : الجهشياري . وانظر محمد ضياء الريس ص ٧١ .

(١٨) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية،مادة « خراج ».

(١٩) دينيت ص ٢ ٢. دائرة المعارف الاسلامية «خراج » محمد ضياء الريس ص ١٢٣ .

(٢٠) الخوارزمي ، أبي عبد الله محمد بن أحمد ، **مفاتيح العلوم** ، بيروت ــ لبنان د.ت ، ص ٣٩ . سيشار اليه : الخوارزمي .م. وات ،**محمدفي المدينة** ،تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ــ صيدا بيروت ، لبنان د.ت.ص٣٨٨ . سيشار اليه : وات .

(٢١) الرحبي ، عبد العزيز بن محمد (ت: بعدسنة١١٨٤ هـ) **فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج** ، تح الدكتور احمد عبيد الكبيسي ، مطبعة الارشاد ، بغداد ٩٧٣ ، ص أ من المقدمة . سيشار اليه : الرتاج .

(٢٢) سورة الكهف ، اية : ٩٤ .

(٢٣) سورة المؤمنون ، آية : ٧٢ . وانظر تفسيرما ورد في : الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠) **جامع البيان في تفسير القرآن** ، المشهور بتفسير الطبري م٩ دار المعرفة،بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ جـ١٨ ص ١٣. سيشار اليه الطبري ، تفسير . الزمخشري ، ابي القاسم جاد الله محمود بن عمر، (٤٦٧ـ٥٢٨) الكشاف عن **حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل** ، دار المعرفة ،بيروت لبنان ص ٢/٤٩٩ ، ٣/٣٨ . سيشار اليه:الزمخشري . القرطبي ، ابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري ، **الجامع لاخبار القرآن** ، مطبعةدار الكتب ــ القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤ م جـ ١٢ ص ١٤١ . سيشار اليه : القرطبي ..

(٢٤) سنن أبي داود ، باب المزارعة ٢/٢٣١ . انظر الرتاج ، المقدمة صب وما بعدها .

(٢٥) الرتاج .نم. سترد هذه العبارة في كتب الصلح مع نجران .

(٢٦) سنن ابن ماجة ، باب التجارات ٢/٧٥١ .انظر الرتاج ن.م.

(٢٧) حول هذه الاحاديث انظر مقدمة كتاب الرتاج .

(٢٨) الفيروزابادي ، **القاموس المحيط** « الخراج»(فصل الخاء باب الجيم). ابن منظور ، **لسان العرب** ، مادة « الخراج ».

(٢٩) ن.م.

(٣٠) ن.م.

(٣١) الماوردي ، ابي الحسن بن محمد بن حبيب(ت٤٥٠هـ)، **الاحكام السلطانية** ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٧م ص ١٤١ سيشار اليه : الماوردي . انظر ايضا ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت٢٢٤)، **كتاب الاموال** ، تحقيق محمد خليل هراس ، ط١ ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٧٣ . سيشار اليه : ابو عبيد. الزبيدي **تاج العروس** ، « الخراج» (فصل الخاء باب الجيم).

أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم (١١٣ – ١٨٢)، **كتاب الخراج** ، المطبعة السلفية ، ط ٢ القاهرة ١٣٨٢هـ ص ٢٣ . سيشار اليه : ابو يوسف . قدامة بن جعفر ، **الخراج وصناعة الكتابة**، تح محمد حسين الزبيدي ، بغداد ١٩٨١ص٢٠٧ . سيشار اليه : قدامة بن جعفر الخراج . وانظر محمد ضياء الريس ١٢١–١٢٢ . عبدالكريم زيدان ، **احكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام** ، ط ٢ بغداد ١٣٩٦/١٩٧٦ م ص١٣٧. سيشار اليه : زيدان .

(٣٢) الرتاج ، المقدمة ص ب .

(٣٣) انظر الطبري ، تفسير ، جـ١٨ ص ١٢ ، الزمخشري ٤٩٩/٢ ، ٢٨/٣. القرطبي ١٤١/١٢ .

(٣٤) ابو يوسف ،الخراج ص ٢٣.

(٣٥) الخراج ص ١٢٢ .

(٣٦) شمس الدين ، ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزية ، **أحكام أهل الذمة**، تح صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ،ط٣ ، بيروت- لبنان ١٩٨٣ ، ص ١٠. سيشار اليه : ابن قيم الجوزية ، احكام .

(٣٧) الاحكام السلطانية ، ص ١٤١ .

(٣٨) **F. Lokkegaard, Islamic Taxation, Cambridge, 1950, p. 72-73.**

(٣٩) الاموال ص ٢٣ .

(٤٠) سورة الحشر ، آية : ٧ . ابو يوسف ص٢٣.

(٤١) الجوالي : جمع جالية وتطلق على أهل الذمة ، الرتاج ص ٤١ .

(٤٢) مقدمة كتاب ابي يوسف ص ٣.

(٤٣) ابو عبيد ص ٢٥ .

(٤٤) يحيى بن آدم (ت ٢٠٣) **كتاب الخراج** ،تح الشيخ احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ،ط٢، القاهرة ١٣٨٤ ، سيشار اليه : يحيى بن آدم .

(٤٥) هكذا اعتبرت ولا يضير القول بأن بعضها فتح صلحا .

(٤٦) اعتبرت فدك فيئا خالصا للرسول صلى الله عليه وسلم فصالح أهلها على النصف . حول خيبر وفدك ووادي القرى انظر : ابن هشام، **السيرة النبوية** ، تح مصطفى السقا وزميليه ، ط٢، القاهرة ١٣٧٥هـ /١٩٥٥ ، ٣٣٧/٢ ،٣٥٣. (رواية ابن اسحق) سيشار اليه : ابن هشام . ابن شبة ، ابو زيد عمر (١٧٣–٢٦٢هـ) **تاريخ المدينة** ، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط٢، (طبع على نفقة السيد حبيب محمود احمد)الرياض ص١٧٦/١–١٩٣ . سيشار اليه : ابن شبة. البلاذري ، ابي الحسن / **فتوح البلدان**،عني بمراجعته والتعليق عليه : رضوان محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، م. السعادة بمصر ص ٣٦–٤٧ . سيشار اليه : البلاذري فتوح. الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن،**تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس**، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ ص٤٣/٢، ٥٨ سيشار اليه: الديار بكري . ابو الفداء ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) **البداية والنهاية** ، ط١ مكتبة المعارف -مكتبة النصر ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢١٩/٤ . سيشار اليه: البداية والنهاية . وانظر : محمد حميد الله ، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي**

والخلافة الراشدة ، دار الارشاد ط٣، بيروت ١٣٨٩هـ / ٩٦٩ ام ص ٦٨-٧٢ الوثائق رقم (١٥ - ١٨ أ) سيشار اليه : حميد الله . الاحمدي، على ابن حسينعلي ،**مكاتيب الرسول** ، دار صعب بيروت د.ت.ص١/١٧٣-١٧٤ سيشار اليه :الاحمدي .

(٤٧) تاريخ المدينة ١/١٧٦-١٩٣ .

(٤٨) **الاموال** ص ١٠٩ .

(٤٩) ابن العطار ، محمد بن احمد الاموي (٣٣٠-٣٩٩) **كتاب الوثائق والسجلات** ، تحقيق شالميتا كورنيطى المعهد الاسباني العربي للثقافة ،مدريد ١٩٨٣ ص ٨٦ . سيشار اليه : ابن العطار .

(٥٠) صحيح البخاري ، طبعة دار الجيل ٣/١٢٨جمله في باب المزارعة واخرجه مسلم في المساقاة، والترمذي في الاحكام ، وكذلك اخرجه ابوداود . انظر ابن تيمية ، تقي الدين احمد (٦٦١ - ٧٢٨هـ) **الحسبة في الاسلام** ، تحقيق سيدبن محمد بن أبي سعود ، ط١ ، مكتبة دار الارقم - الكويت (١٤٠٣/١٩٨٣م) . ص ٢٩ حا ١:٠

(٥١) الشافعي ، ابي عبد الله محمد بن ادريس،**كتاب الام** ، وبهامشه مختصرالامام الجليل ابي ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني الشافعي (ت٢٦٤هـ)كتاب الشعب. ص٧/١٠١ (باب المزارعة). سيشار اليه : الام . ابو يوسف ص٨٨-٨٩.

(٥٢) الامام مالك بن أنس ، **الموطأ** ، ومعه كتاباسعاف المبطأ برجال الموطأ ، منشورات دار الافاق الجديدة ط٢ بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٥٩٢(ما جاء في باب المساقاة) . وانظر أيضا قدامة بن جعفر الخراج ص ٢٥٨ . ابن القيم الجوزية،**زاد المعاد** ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، القاهرة ،د. ت. ص٢ /١٤٣ . سيشار اليه :زادالمعاد.الحنبلي ، ابن الفرج بن رجب ، **الاستخراج لاحكام الخراج** ، صححه وعلق عليه : عبد اللهالصديق ، ط١ ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٤٣. سيشار اليه : الاستخراج . ابو يوسف ص٥٠،٨٩.

(٥٣) **السيرة النبوية ٢/٣٣٧ .**

(٥٤) ابو عبيد ص ١٠٤ وجاء في حا : ٢ من نفس الصفحة (الحديث رواه ابو داود والطيالسي عن ابن أبي ذئب) . انظر قدامة بن جعفر الخراج ص ٢٠٧ .

(٥٥) جاء في رواية عن الحسن بن صالح : « أرض الخراج ما وقعت عليه المساحة » وقد مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وقسمها ، انظر ابو عبيد ص ١٠٢ .

(٥٦) ابن القيم الجوزية ،احكام ص٥١

(٥٧) الخراج ص ١٤.

(٥٨) ابو يوسف ص ١٢٩ . وانظر زيدان ص ١٥٩.

(٥٩) الكاساني ، علاء الدين ابي بكر بن مسعود،(ت ٥٨٧) **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** ، المطبعة الجمالية ، ط١ ، مصر (١٣٢٧-١٣٢٨هـ)ص٢/٦٣ . سيشار اليه : الكاساني . زيدان ص١٦١.

(٦٠) **Lokkegaard, p. 72-73.**

(٦١) سورة التوبة ، آية : ٢٩.

(٦٢) انظر على سبيل المثال : اليعقوبي **تاريخ**،طبع النجف ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ص ٢/٦٥ - ٦٦.

الطبري، تفسير ١٩٨/١٤وما بعدها . القرطبي١١٠/٨ . السرخسي ، شمس الائمة ابي بكر محمد المتوفي في حدود ٤٩٠ هـ ، **كتاب المبسوط**،مطبعة السعادة ، مصر ١٣٢٤ هـ ، ص ٧٧/١٠ وما بعدها . سيشار اليه : السرخسي،المبسوط. السهيلي ، ابي القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله (٥٠٨–٥٨١هـ / ١١١٤–١١٨٥) ، **الروض الانف** ، ومعه السيرة النبوية لابن هشام(ت٢١٣) قدم وعلق عليه وضبطه ، طه عبد الرؤوف سعد،مكتبة الكليات الازهرية ، مصر د.ت.ص٢٠١/٤ سيشار اليه : السهيلي . وانظر الزمخشري، ١٨٤/٢ . وانظر :

الخازن ، علاء الدين بن محمد ابراهيم البغدادي ، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، وبهامشه تفسير البغوي المسمى : معالم التنزيل، دارالفكر ، بيروت – لبنان د.ت ٦٤/٤–٦٥ . سيشار اليهما : الخازن ، البغوي.

(٦٣) انظر الاحمدي ، ص١١٤/١ . ابو عبيد ص ٢٩« كانت تبوك اخر غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم » . الصولي ، ابو بكر محمد بن يحي ، **أدب الكتاب** نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجة الاثري ، دارالكتب العلمية ، بيروت – لبنان ص ٢١٤ « وضع الرسول – ص – الجزية بعد تبوك » سيشار اليه : الصولي . زاد المعاد ٧٩/٢ (نزول آية براءة في السنة الثامنة من الهجرة) .تفسير البغوي ٦٤/٣ (نزلت آية الجزية حين أمر الرسول ((ص)) بقتال الروم ، فغزا بعد نزولها تبوك) .

(٦٤) انظر رواية الكلبي في تفسير الخازن ٦٤/٣.والبغوي ٦٤/٣ .

(٦٥) ابو عبيد ص٣٢ رقم (٥٥) .

(٦٦) جاء هذا الحديث بصيغ متعددة لا تخرج عن المعنى المثبت . انظر ابن سعد ٢٠١/١ – ٢٠٢ . الطبري ، تفسير ح ١٢٥/٢٣ . أحمد ابن حنبل ، المسند ، وبهامشه كنز العمال في سنن الاقوال والافعال للشيخ الامام العارف بالله تعالى علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر – بيروت١٣٩٨ – ١٩٧٨ م ، ٢٥٨/١٨–٢٥٩ . الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ٤٣٢/٢ . السيوطي، **الدر المنثور** ٢٩٥/٥ . انظر الطبري ، **تاريخ** ٣٢٥/٢ ، ابن الاثير ، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم ، **الكامل في التاريخ** ، دار صادر – بيروت ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ص٣٢٤/٢. سيشار اليه : ابن الاثير ، الكامل . الترمزي ، السنن ص ٩٠. ١(ابواب التفسير) طبعة ١٩٢٤ .

(٦٧) ابن عبد البر ، ابي عمر يوسف بن عبد الله ، **الاستيعاب في معرفة الاصحاب** ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة د.ت ٥٩/١ . سيشار اليه : ابن عبدالبر. ابن الجوزية . احكام ص٩١.

(٦٨) انظر البلاذري ، فتوح ص ٤٧ . وقدامه بن جعفر ، الخراج ص٢٦١ .

(٦٩) انظر الاحمدي ، ١١٦/١ . وحول كتب الرسول صلى الله عليه وسلم انظر : ابن سعد ،**الطبقات الكبرى** ، دار بيروت – دار صادر ، بيروت١٣٧٦هـ/١٩٥٧ م ص ٢٥٨/١–٢٩١ . سيشار اليه : ابن سعد . الطبري ، تاريخ ٢٨٨/٢، ٦٤٤/٢ .. المسعودي ، ابي الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦) **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٤م . السعادة بمصر ١٣٨٤هـ –١٩٦٤م. ص٢ / ٢٦٦ . سيشار اليه : مروج الذهب . **الاصفهاني**، **ابو الفرج** علي بن الحسين (ت٣٥٦/٩٧٦م) **الاغاني** نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، مؤسسة

جمال للطباعة والنشر ـ بيروت ص٩٢/٣ . سيشار اليه : الاغاني . الشافعي ، علي بن برهان الدين الشافعي ، **انسان العيون في سيرة الامين والمامون** ، المعروفة بالسيرة الحلبية ، وبهامشها: **السيرة النبوية والاثار المحمدية** لمفتي السادة الشافعية بمكة المشرفة ، السيد احمد زيني المشهور بدحلان . المطبعة الازهرية بمصر ط٣، ١٣٥١ هـ ١٩٣٢م ص ٣٦٦/٢ . سيشار اليه : السيرة الحلبية . ابن الاثير الكامل ٨١/٢ . محمد حميد الله ، انظر الفهرس . عون الشريف قاسم ، **نشأة الدولة الاسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م . ص٢٩٩ـ٣٠٨. سيشار اليه : عون الشريف .

(٧٠) انظر الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله، **معجم البلدان** . دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان د.ت. ص ٦٧/٢ « تيماء» . وانظر حميد الله ص ٧٣ رقم (١٩) . عون الشريف ص ٣١٢ . ابن سعد ٢٧٩/١ (لم يذكر تاريخ الصلح) . الواقدي، محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ)، **كتاب المغازي** تحقيق مارسدن جونس ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ـ لبنان د.ت ١٠٣١/٣ (ذكرها مع دومة الجندل وأيلة وهو ما جرى في السنة التاسعة للهجرة) انظر مناقشة صلح أيلة وما بعده في : صالح درادكة، لمحات من تاريخ ايلة «العقبة» في العصر الاسلامي ، **مجلة دراسات تاريخية** ، دمشق ، العدد ١٥ـ١٦، كانون الثاني ـ ايار ١٩٨٤) ص٦٧ـ١١٠) ص ٧٤ـ٧٥ .

(٧١) ابن قدامة ، ابي محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت٦٣٠هـ) ، **المغني على مختصر ابي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن احمد الخرقي** ، ج٨ ، مكتبة الجمهورية العربية ومكتبة الرياض الحديثة الرياض ، د.ت ص ٤٩٥. سيشار اليه : المغني .

(٧٢) سورة البقرة ، آية : ٤٨ . وانظر القاموس المحيط «جزى» ولسان العرب « جزى » والطبري ، تفسير ١٩٦/١٤ . والزمخشري ١٨٤/٢ وابن القيم الجوزية ، احكام ص١ وما بعدها . والصولي ص ١٩٨ . والماوردي ص ١٤٢ .

(٧٣) كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه (في قس الناطف على شط الفرات) :« ان منعناكم فلنا الجزية ، والا فلا حتى نمنعكم » الطبري ، تاريخ ٣٦٨/٣ . وكتب سويد بن مقرن الى أهل دهستان وسائر أهل جرجان في زمن عمر: « ان لكم الذمة وعلينا المنعة » الطبري ، تاريخ ١٥٢/٤ ، وانظر عبد العزيز النعيم ص ٣٧٥. وجاء في كتب الامان التي اعطاها النعمان بن مقرن لاهل ماه بهراذان « لهم المنعة ما ادوا الجزية» وحذيفة بن اليمان لاهل ماه دينار : « لهم المنعة ما ادوا الجزية » انظر الطبري، تاريخ ص١٣٦/٤ـ١٣٧ . وقد اعاد ابو عبيدة بن الجراح الجزية التي اخذها من أهل حمص عندما انسحب جيش المسلمين من حمص الى اليرموك ، والحادثة مشهورة ومعروفة .

(٧٤) انظر عبد الوهاب خلاف ، **السياسة الشرعية أو نظام الدولة الاسلامية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية** ، دار الانصار القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧ ص ١٢٣ . سير توماس ارنولد ، **الدعوة الى الاسلام** ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميليه ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٧٨ . **سيشار اليه:** توماس ارنولد . ابن القيم الجوزية ، احكام ص ٣٧٥ .

(٧٥) الاموال ص ١٣١ـ١٣٢ .

(٧٦) عبد الخالق النواوي ، **النظام المالي في الاسلام** ، منشورات المكتبة العصرية ، ط٢ ، صيدا ـ لبنان ١٩٧٣ ص ١٥٢

(٧٧) ابو عبيد ص ٤٦ . البلاذري ، فتوح ص٧٩. الصولي ص٢١٤. ابن قيم الجوزية ، احكام ص٣٠

(٧٨) ابو يوسف ص ١٢٩ .

(٧٩) انظر ابن سعد ١/٢٨٩–٢٩٠ . ابو عبيد ٢٨٧ –٢٨٨ . ابن زنجوية ، حميد (ت٢٥١) **كتاب الاموال**، تحقيق شاكر ذيب فياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ، الرياض ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م ص ٢/٤٦٣ . ابن الاثير الكامل ٢/٢٨٠ . ابن حبان ، الحافظ محمد بن حبان بن احمد ابي حاتم التميمي البستي ، **كتاب الثقات** ، الطبعة الهندية بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، مدير دائرة المعارف العثمانية، ط ١ ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣م . ص ٢/٩٤ . المسعودي، **التنبيه والاشراف** ، دار التراث – بيروت ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م ص ٢٣٦ ، سيشار اليه : التنبيه والاشراف . السيرة الحلبية ٢/٧١ . البداية والنهاية ٥/١٦–١٧ . حميد الله ص٨٨ رقم (٣١– ٣١ الف) . الاحمدي ١/١٦٤ . صالح درادكة ، لمحات من تاريخ ايلة « العقبة » في العصر الاسلامي ، **مجلة دراسات تاريخية** ، دمشق العدد ١٥–١٦ عام ١٩٨٤ ص٧٥–٧٨ .

(٨٠) ابن سعد ١/٢٧٧ ، ٢٩٠ ، الواقدي ، مغازي ٢/١٠٣١ . الطبري تاريخ ٢/١٥–١٧ . حميد الله، ص ٩١–٩٢ احمد زكي صفوت ، **جمهرة رسائل العرب** ، المكتبة العلمية ، بيروت – لبنان د.ت ١/ ٢٠–٢١ . سيشار اليه : صفوت .

(٨١) انظر المصادر السابقة . حميد الله ص ٩١ رقم (٣٢) .

(٨٢) الطبري ، تاريخ ٣/٣٦٧ – ٣٦٩ . البلاذري، فتوح (رواية اخرى) ص ٢٤٦ . حميد الله ص ٣١٩ رقم (٢٩٣) جرى هذا الصلح بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخرزة : نوع من جزية الرؤوس في ايران زمن الاكاسرة . يؤديها كل من لم يكن في جند الحكومة ، وذكر الطبري أنها كانت اربعة دراهم على كل رأس .

(٨٣) قال أبو عبيد في غريب الحديث : « في حديثه صلى الله عليه وسلم في صلح نجران ، انه ليس عليهم (ربية ولا دم) اراد بها الربا أي انه صالحهم على وضع ربا الجاهلية والدماء التي كانوا يطلبون بها » . انظر حميد الله ص ٤٥٠–٤٥١ . الطبري ، تاريخ ص ٤٤٥ . ابن حبان ٢/١٨٣ .

(٨٤) الاواق : جمع اوقية ، وهي زنة سبعة مثاقيل ، وقيل زنة أربعين درهما ، وهي بالفرنسية Once وبالانجليزية Ounce وباللاتينية Uncia وهذا يشير الى ان قيمة الحلل متفاوتة بحسب جودتها ، نضبطت القيمة بحساب الاواق . أي أن قيمة الجزية تساوي الفي اوقية من الفضة تؤدى على مرحلتين في العام . انظر ابي عبيد ، الاموال ص ٤٥٢ (رقم ٧٣٤) حميد الله. ص ٤٣١ « اوق » .

(٨٥) عارية : من الاعارة .

(٨٦) المعرة : من عاره اذا قاتله ومنه المعرة بمعنى قتال الجيش دون اذن الامير . والمقصود ان يقدم اهل اليمن ما ذكر في الكتاب لتجهيز ثلاثين فارسا على سبيل الاعارة المردودة اذا حصل كيد وفتنة في في اليمن . وفي القرآن : « نصيبكم منهم معرة بغير علم » انظر لسان العرب : « عر » وحميد الله ص ٤٦٧ «عر» انظر صلح نجران بنسخه المتعددة في : حميد الله ص ١٢٦–١٥٨ (الارقام ٩٢– ٩٨) . ابو يوسف ص ٧٢–٧٣ . ابن شبة ، تاريخ المدينة ٢/٥٨٤–٥٨٥ . ابن سعد ١/٢٦٦ – ٢٦٧ و ١/٢٨٧–٢٨٨ . البلاذري ، فتوح ص ٧١ . اليعقوبي ص ٢ /٧١–٧٢ . ابن زنجوية ، ٢/٤٤٩–٤٥٢ . المسعودي ، التنبيه ص ٢٣٩. ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ص ٢/٤٠ . السيرة الحلبية ٣/٧٥ . ياقوت الحموي، معجم البلدان ، مادة « نجران » . القلقشندي ، ابي العباس،

احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) **صبح الاعشى** نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة د.ت ص ٦/٣٨٠-٣٨١ . أحمد زكي صفوت ص١ / ٧٥-٧٨ . الاحمدي ص ١ / ١٧٥-١٨٢ . عون الشريف ١٢٧-١٣٠ .

(٨٧) ابن سعد ٢٦٣/١ . ابو يوسف ص ١٣٠ . ابو عبيد ص ٤٥ . مالك بن انس ، الموطأ ص ٢٢٤ . البلاذري ، فتوح ص٨٦-٨٧ . ابن زنجوية ١١٨/١، (رقم ٩٨) و ١٣٧/١ (رقم ١٢٣ - ١٢٤) و ٢٣٨/١ (رقم ١٢٥) و ١٤٣/٢ (رقم ١٣٠، ١٣١) . الشيرازي ، ابي اسحق ابراهيم بن علي، **المهذب في فقه مذهب الامام الشافعي** ، وبهامشه النظم المستعذب في شرح غريب المهذب للعلامة محمد بن احمد بن بطال الركبي ، طبع الحلبي - مصر د.ت. ص ٢٥٠/٢ . سيشار اليه الشيرازي. السرخسي ، محمد بن احمد ، **شرح السير الكبير** لمحمد بن حسن الشيباني ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، **القاهرة** ١٩٥٨ ، ص ١٤٨/١، ١٨٦/١ . سيشار اليه : السرخسي . ابن قدامة المغني ص ٤٩٨ . الحموي ، معجم البلدان، مواد : البحرين ، عمان ، هجر . ابن عبد البر، الاستيعاب ١١٩٦/٣ . احمد زكي صفوت ٣٦/١ ، ٤٦-٤٨ .

(٨٨) انظر ابن سعد ٣١٦/١ . ابو يوسف ص ٦٧، ١٢٠ . ابو عبيد ص ٣٩-٤٠ (رقم ٧٠-٧١) . يحيى بن ادم ص ٦٢ . قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢٢٤ . ابن زنجوية ، ١\١٣٠ - ١٣٢ (الارقام ١١١-١١٥) .

(٨٩) المصادر السابقة .

(٩٠) انظر المصادر في الحاشية ٨٧ .

(٩١) يحيى بن ادم ص ٦٨. ابو عبيد ص ٥٢. البلاذري ، فتوح ص ٧٨. ابن زنجوية ١٦١/٢ (رقم ١٦١) .

(٩٢) انظر على سبيل المثال ، ابو عبيد ص ٣٨ (رقم ٦٦) .

(٩٣) انظر ابن زنجوية ١٦٨/٢ .

(٩٤) ابن قيم الجوزية ، احكام ص٢٦ .

(٩٥) الشيرازي ، ص٢٥١/٢ . ابو يعلى ، **الاحكام السلطانية** ، صححه وعلق عليه حامد الفقي ، ط٣، اندونيسيا ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤ م ص ١٥٧ -٥٨ ، سيشار اليه : ابو يعلي .

(٩٦) انظر أبو يوسف ص ١٢٨-١٢٩ . يحيى بن ادم ص ٢٦. ابو عبيد ض ٤٣ (رقم ٧٣) . واختلف في امر اكيدر صاحب دومة الجندل فقد ذكرت المصادر انه كان نصرانيا ، في حين جاء في بعض كتب الصلح معه انه : « خلع الانداد والاصنام» مما يوحي انه كان وثنيا ولعل نصرانية دومة الجندل كانت ممزوجة بالوثنية ، حيث كانت قبيلة كلب المشهورة تعبد الصنم (ود) المقام في دومة الجندل انظر عون الشريف ص٢١٤-٢١٥ .

(٩٧) انظر رسالة المنذر بن ساوى ، والتي بعثها للرسول من البحرين يفيد فيها جمع الضرائب المختلفة من عشور الارض والزكاة والجزية . انظر حميد الله ص ١١٤-١١٥. (رقم٥٨).

(٩٨) ابن القيم /احكام ص ٤٧ . الشيرازي ، المهذب ٢٥٠/٢ . وانظر سنن ابي داود مع حاشية عون المعبود / المجلد الثالث ، عني بنشره الحاج حسن ايراني - صاحب دار الكتاب العربي - بيروت لبنان ص١٣٢/٣ .

(٩٩) انظر في ذلك: الماوردي، الاحكام السلطانية،١٤٢-١٤٤ . ابو يعلى ص١٥٣-١٥٥ . انظر ابن القيم ص ٣٩. النواوي ص ١٦١ .. وعبد العزيزالنعيم ٣٤٦ .

(١٠٠) المغني ص ٥٠٧ . وانظر ابن القيم / احكام ص ٤٩٠ .

(١٠١) انظر اختلاف الفقهاء في ابن القيم / احكام ص ٤٩-٥٠ . المبسوط ٧٨/١٠. الكاساني ١١١/٧-١١٢ . ابن الهمام ، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي (ت٨٦١) **فتح القدير** مطبعة مصطفى محمد - مصر د.ت ٣٧٠/٤ - ٣٧١. تفسير الالوسي ٧٩/١٠ . **الام** للشافعي ١٠١/٤ . المهذب ٢٦٧/٢. المغني ٥٠١/٨-٥٠٣ . ابوعبيد ص ٤١ . الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، **نيل الاوطار** ، ط٣ مطبعة البابي الحلبي ،القاهرة ١٣٨٠هـ /١٩٦١م ص ٥٨/٨ -٥٩. زاد المعاد ٨٠/٢ . عبد الكريم زيدان ص ١٤٦-١٤٧.

(١٠٢) ابو عبيد ص ٦٥٦،٦١ ويقصد ان في المال النفيس والبخيس - القاموس .

(١٠٣) قدامة بن جعفر / الخراج ص ٢٠٩ .

(١٠٤) الاحكام السلطانية ص ١٤٣ . البلاذري فتوح ص٩٠ .وانظر عبد العزيز النعيم ص ٣٦٧.

(١٠٥) ابو يوسف ص ٢٥. الماوردي ن.م . وقارن توماس ارنولد ص ٨٠ .

* * *

العُشــور
ضرائب التجارة في صدر الإسلام

د. فالح حسين
الجامعة الاردنية

كثيرا ما يصطدم الباحث في شؤون النظم الاسلامية بقضية التفريق بين النظريـة والتطبيق ، وخاصة اذا كان الامر متعلقا بالحياة الاقتصادية في المجتمع الاسلامي، الامر الذي يجعله مضطرا للنظر في المصادر التاريخية والفقهية عند المسلمين على حد سواء، دون اهمال احدهما على حساب الاخر . لان المصادر الفقهية والتي يبدو لاول وهلـة انها تنصب على النظرية فقط لا تخلو من الواقع التاريخي ، ولصعوبـة فهم النظريـة الفقهية بدون العودة للمصادر التاريخية التي تتحدث عن الواقع الذي طبق في المجتمع في الفترات المتلاحقة ، هذا الواقع الذي اجاز والغى واوجب بناء على الظـروف التي مرت بالمجتمع والدولة سواء بسواء . ولكن ومع الاحتفاظ باهمية المصادر الفقهيـة ، يجب على الباحث ان يضع نصب عينيه قضية التمييز بين النظرية والتطبيق ، بحيث لا تطغى النظرية على التطبيق في مجال البحث التاريخي ، والا يهمل الواقع الفعلي بحجة مخالفته للمثالية النظرية .

وفيما يتعلق بالبحث في عشور التجارة في صدر الاسلام نود ان نشير الى الراي القائل بان الفترة الاولى لنشأة الدولة العربية الاسلامية شهدت تراجع حركة التجـارة في المنطقة العربية ، او التي وصل اليها العرب ، لان حروب الفتح وتنظيمها وتسخير قوى الدولة والمجتمع لانجاحها مثلت الاولوية المسيطرة على الدولة وابنائهـا . فكان تراجع التجارة وخاصة التجارة الخارجية أمرا متوقعا في ظروف العلاقات الحربية بين العرب ومجاوريهم الى ان هدأت حروب الفتح ، وعليه فلم تشهد التجارة العربيـة الاسلامية ازدهارها من جديد الا بعد استقرار الوضع وابتداء من العصر العباسي(١).

ورغم معقولية هذا الراي وجدية الكتاب الذي ورد فيه ، الا ان الاشارات الواردة في المصادر الاولية تقلل من فرص الاخذ به دون تردد ، اذ ان المعلومات عـن ضرائب التجارة الداخلية والخارجية تعود الى فترة مبكرة ، فالبصرة اقيمت لانها واقعة على طريق الهند مثلا ، وسرعان ما اصبح الميناء المسمى بالابلة مركزا تجاريا هاما كما سميت

دراسـات تاريخيـة ، ٢٩ و ٣٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٨

البصرة بـ (أرض الهند)(٢) والابلة (مرفأ السفن من الصين) (٣) . وذكر البلاذري ان معاوية بعث ايام خلافته ببضاعة للتجارة الى صاحب العشور في السلسلة «فمرت بها سفائن فيها أصنام من صفر تماثيل الرجال فسألهم عنها فقالوا : بعث بها معاوية الى أرض السند والهند تباع له »(٤) . وكان على الابلة نفسها صاحب عشور هو امية بن عبد الله بن خالد في ايام ولاية زياد بن ابي سفيان على المصرين البصرة والكوفة (٤٥ ــ ٥٣ هـ) (٥) .

وقبل المضي قدما في توضيح القضايا المتعلقة بالعشور نود ان نبين ان الغاية هنا هي محاولة تكوين صورة عن ضرائب التجارة (العشور) التي لمسنا ان البحث فيها كثيرا ما كان نظريا ، أو متأثرا بالنظرية دون الالتفات الى التطبيق في كثير من نواحيها، او تطرق الحديث اليها عرضا عند بحث النظم الاقتصادية في الدولة الاسلامية(٦). ولذلك فان مناقشة الرأي النظري فيما يجب وما لا يجب وما يجوز وما لا يجوز نتركه للابحاث النظرية ، ومحاولتنا تنصب على تتبع التطبيق العملي مع الاستفادة من الاشارات الفقهية . فما ذكره الماوردي مثلا الذي يستنكر بعضا من أصول العشور نظري محض لا ينم عن تطبيق معين بل عن رفض مبدأ قائم ، اذ يقول « وأما اعشار الاموال المتنقلة في دار الاسلام(٧) من بلد الى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ولا هي من سياسات العدل ولا من قضايا النصفة وقل ما تكون الا في البلاد الجائرة »(٨) .

لم ينظر فقهاء المسلمين أحيانا لهذه الضريبة نظرة ارتياح ، كما رأينا عند الماوردي ، فقد جاءت (أحاديث كثيرة بكراهة أخذ العشر وذم العاشر وصاحب المكس وهو صاحب العشر أيضا)(٩) ولكن ما سبب هذه النظرة السلبية ؟ والاجابة على هذا السؤال تأتي من ابي عبيد ، وتابعه قدامة ، الذي يرد السبب الى ان ضريبة كانت تفرض على التجار قبل الاسلام ولان العشور تؤخذ من التجار بعد الاسلام فكان الربط بينهما سببا لكراهية العشور اذ يعلق ابو عبيد على الاحاديث التي تذكر المكس والعاشر بقوله (وجوه هذه الاحاديث التي ذكرنا فيها العاشر . وكراهة المكس والتغليظ فيه انه كان له اصل في الجاهلية يفعله ملوك العرب والعجم جميعا فكانت سنتهم ان يأخذوا من التجار عشر اموالهم اذا مروا بها عليهم)(١٠) ، ونراه يدافع عن العشور بقوله (وكيف يكون هذا مكروها وقد فعله عمر بن الخطاب والائمة من بعده ثم لا نعلم احدا من علماء الحجاز والعراق والشام ولا غير ذلك كرهه ولا ترك الاخذ به) (١١) .

بالعودة الى ايام رسول الله (ص) نجد ذكرا لاسقاط العشور عن بعض من صالحهم من الجماعات في الجزيرة العربية ، اي ان الرسول (ص) الغى هذه السنة

الجاهلية ، فاعتبر ذلك الغاء لها في الاسلام . ويقول قدامة في بيان ذلك « والدليل على ان أخذ العشر كان قديما في الاسلام ما كتب عن النبي (ص)لمن اسلم من أهل الامصار مثل ثقيف وأهل البحرين ودومة الجندل وغيرهم انهم لا يحشرون ولا يعشرون فان ذلك لو لم يكن سنة جاهلية يعرفونها لم يكونوا يتخوفون من المسلمين مثلها حتى يكون في اماناتهم ابطالها او حذفها »(١٢).. ويزودنا صاحب كتاب المحبر عن العشور والتعشير في أسواق العرب قبل الاسلام كسوق صحار وسوق دبا في عمان التي كان يعشرها الجلندي بن المستكبر (١٣) ، ودومة الجندل التي كانت السيطرة عليها تتأرجح بين الغسانيين والعباديين فيعشرون من يأتيها (١٤)، وكذلك سوق صنعاء التي كانت الابناء تعشر التجار الذين يقصدونه(١٥) . ولكن الغاء رسول الله (ص) للعشور عن بعض الجماعات يشعر بأنه اعتبرها سنة جاهلية كما سماها قدامة اذ لم يؤثر عنه (ص) انه أخذ شيئا من التجار ، وهذا مرد كراهيتها برأي قدامة الصريح الذي ذكرناه آنفا ، كما لم تؤخذ ايام ابي بكر .

لكن حياة المجتمع الجديد واتساع الدولة الاسلامية في ايام عمر بن الخطاب واختلاط العرب بمجاوريهم ونقل حدودهم الى حدود البيزنطيين مباشرة ربما دعاه الى التفكير من جديد ، لا سيما وان تجار المسلمين دفعوا هذه الضريبة لاهل الحرب (الروم) كما تصرح بذلك بعض الروايات التي تتحدث عن بداية فرض العشور في الدولة الاسلامية وكأنها ردة فعل من عمر على بيزنطة ، او شعور بعض الولاة بضرورة فرضها على تجار الروم لان دولة الروم كانت تأخذها من تجار المسلمين ، اذ يرد في هذا الصدد ان ابا موسى الاشعري كتب الى عمر بن الخطاب « ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون ارض الحرب فيأخذون منهم العشر ، قال : فكتب اليه عمر ، خذ انت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل اربعين درهما درهما »(١٦) .

وفي رواية اخرى تأتي المبادرة من غير المسلمين ، اذ كتب اهل منبج لعمر بن الخطاب « دعنا ندخل ارضك تجارا وتعشرنا ، قال : فشاور عمر أصحاب رسول الله (ص) في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب »(١٧) . ومما يضعف هذه الرواية انها تجعل أهل منبج « من أهل الحرب وراء البحر » وهذا غير صحيح لان منبج تقع الى الغرب من مجرى نهر الفرات بينه وبين حلب(١٨) . ولكن عودة متأنية الى النصوص الاسلامية تشعرنا ان فرض الضريبة وبداية تطبيقها يذكر في المدينة نفسها ولم يكن نتيجة رد فعل من عمر فحسب ، فقد ورد عن السائب بن يزيد قوله « كنت عاملا مع عبد الله بن عتبة على سوق المدينة في زمان عمر بن الخطاب فكان يأخذ من النبط العشر »(١٩) . ولدى يحي بن آدم ترد الرواية ان عمر « كان يأخذ من أهل الذمة

انصاف عشور اموالهم فيما تجروا فيه »(٢٠) ومرة اخرى يرد ان عمر كان يأخذ من الزيت والحنطة نصف العشر « لكي يكثر الحمل الى المدينة « بينما يأخذ من القطنية العشر »(٢٢) .

هذه الروايات تنقض قضية رد الفعل لدى عمر ، حتى ان رواية ابي يوسف التي ذكرناها تجعل فرق العشر على المسلمين وأهل الذمة وأهل الحرب بنسب متفاوتة رغم انها ترد في مجال الاخبار عن تعشير أهل الحرب لتجار المسلمين فيفترض ان يكون رد الفعل مقتصرا على معاملة تجار اهل الحرب ، فما الذي ادخل تكليف المسلمين واهل الذمة اذا كان الامر مجرد رد فعل من عمر على ما يفعله أهل الحرب بتجار المسلمين . . وروايات اخرى تجعل فرض العشر من صلب سياسة عمر بن الخطاب ، فعلى رأي ابن شهاب الزهري ان عمر وضعه لان صلحه مع أهل الذمة ان تعشر تجارتهم ، في حين ذكر مالك بن انس عندما سئل عن العشر بأنه « كان يؤخذ منهم في الجاهلية فأقرهم عمر على ذلك »(٢٢) . ويبدو ان رأي الزهري لا يعبر عن الواقع كرأي مالك لان التغليظ الذي روي حول العشر او المكس قديكون لان مرده جاهلي كما ذكر ابو عبيد وتابعه قدامة ، ونقل الرأي نفسه المقريزي فيما بعد ، ولان جميع عهود الصلح سواء في الشام أم العراق ام مصر لم تشر اطلاقا الى وجود ضريبة على تجارة اهل الذمة ، وما ورد في حالة واحدة يعودالىمابعد الفتح وما بعد عقد عهود الصلح وهو ان عمر بن الخطاب كلف عثمان بن حنيف بمسح سواد الكوفة فوضع على ارضها ما وضع «وجعل في أموال اهل الذمة التي يختلفون بها من كل عشرين درهما درهما . . ثم كتب بذلك الى عمر فأجازه »(٢٣) .

ويرى السرخسي (ت ٤٩٠ هـ) ان فرض العشر كان (لاجل الحماية)(٢٤) لان الخارج بمال التجارة بحاجة الى الحماية عندما يخرج التاجر الى المفاوز والمسلم والذمي بذلك سواء لاحتياجهم الى حماية تجارتهم وهذا مسوغ لم نطلع عليه الا لدى السرخسي وهو يستبعد قضية المعاملة بالمثل كما نرى اضافة الى استبعاده مبدأ وجود العشر في الصلح أو انه سنة قديمة .

هذه الروايات تجعلنا نقول ان فرض العشر لم يكن بتأثير التعامل مع اهل الحرب كردة فعل ، ويصعب القول ايضا ان عمر فرضه على أهل الذمة في صلحه معهم لافتقار جميع عهود الصلح الى الاشارة لذلك ، وكذلك الحال بالنسبة لكونه بدل الحماية اذ ان صاحب العشور لم توكل اليه مهمة حماية طرق التجارة كما نعلم حتى تكون العشور كرسم الحماية . ونستطيع القول ان فرض العشور يشير الى التطور الطبيعي الذي مرت به الدولة الاسلامية ونظمها التطبيقية عبر الفترة الاسلامية الاولى ، وربما ربط

فيما بعد بين واجبات أهل الذمة وبين دفع هذه الضريبة وفي هذا السياق يمكن فهم مقولة عمر بن عبد العزيز الذي جعل ما يدفعه التاجر كجزء متعلق بالجزية ، فقد ورد عنه قوله فيما يتعلق بدافعي الجزية انهم « صاحب ارض يعطي جزيته وصانع يخرج جزيته من كسبه وتاجر يتصرف بماله يعطي جزيته من ذلك » (٢٥) .

وقبل الدخول في تفصيلات احكام هذه الضريبة وطرق جبايتها لننظر من أين جاءت الكلمة المرادفة للعشر في المصادر الاسلامية ، وهي « المكس » . يعود أصل كلمة « مكس » في العربية الى الارامية « مكسا » والسريانية « مكسوا » ، ولما كان العرب على معرفة بها في الجاهلية فان دخول الكلمة العربية جاء في وقت مبكر قبل الاسلام ، فقد ظهر الاسلام والكلمة معروفة على انها من كلام العرب(٢٦) ، لذلك فليس غريبا ان نجد نظام المكس منذ بدايات الادارة العربية للامصار خارج الجزيرة العربية. وترد الكلمة نفسها عند الحديث عن متولي جبايتها « صاحب المكس »(٢٧) وقد وجدت مراكز لجباية العشور أو المكس في كل مصر وسورية والعراق(٢٨) كما جبيت في المدينة المنورة نفسها نسبة من أموال التجار القادمين اليها من الامصار الاخرى ، وهنا ترد اشارات الى القادمين من الشام ومصر(٢٩) كما وجدت مراكز جباية العشور (المآصر) في اليمن أيضا(٣٠) .

وجاءت المكس مرادفة لكلمة العشر او عشور التجارة لانها كانت في الاصل تؤخذ في الاسواق العربية من التجار الذين يمرون بها(٣١) . ويقول المقريزي (الماكس هو العاشر وأصل المكس في اللغة الجباية)(٣٢) . ويعرف صاحب مفاتيح العلوم المكس بأنه « ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد »(٣٣) .. وفي لسان العرب نجد ما يجعل المكس الجباية : المكس « دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الاسواق في الجاهلية » وتعريف آخر : المكس « ما يأخذه العشار والماكس العشار ويقال له صاحب مكس »، ويزيد على ما سبق قوله « المكس دراهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه »(٣٤) .. وقد يكون هذا الاخير هو الذي رفض اصلا لانه درهم يؤخذ بغير حق لان ابن منظور يعلق على الحديث « ان لقيتم عاشرا فاقتلوه » أي ان وجدتم من يأخذ العشر على ما كان يأخذه اهل الجاهلية مقيما على دينه فاقتلوه لكفره او لاستحلاله لذلك . . وكل ما ورد في الحديث عن عقوبة العشار محمول على هذا التأويل(٣٥) ثم أصبح مثل هذا الحديث حجة فيما بعد ضد سوء تصرف الجباة ، وقد شكى بعض الشعراء من المكس فقال :

أفي كل أسواق العراق أتاوة   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم(٣٦)

* * *

راينا ان فرض هذه الضريبة جرى في أيام عمر بن الخطاب ، اذ لاشك انـه هو الذي فرض عشور التجارة التي لم تعرف عند المسلمين في مجال التطبيق العملي في ايام رسول الله (ص) ولا في أيام ابي بكر . وجبت الدولة العشور في عاصمتها المدينة عندما كلف عامل سوق المدينة بجباية العشر من التجار القادمين اليها من أهل الذمة، والمتوقع ان نسمع بموظفي العشور (العشارون) في بقية الامصار الاسلامية ابتـداء من عهـد عمر بن الخطاب وخلال الفترة الاموية ، وبالفعل فان اسماء موظفي العشور في كل مـن العراق والشام ومصر وكذلك في اليمن ترد في المصادر الاسلامية(٣٧) وقد سميت مراكز جباية العشور بالمراصد والمآصر وبيوت المكس ، كما سمي صاحبها بصاحب المكـس والعاشر ، والعامل على المكس .

وأول من نسمع به من الشخصيات التي عملت على العشور خارج الجزيرة العربية ايام عمر بن الخطاب هو زياد بن حدير الاسدي الذي كان على عشور الشـام والعراق وقصته مع بني تغلب(٣٨) . وتدل رواية لابي يوسف ان عمر بعث مالك بن انـس على العشور دون ان يبين مكان عمله(٣٩) ، وان كنا نظن ان عمله كان في العراق . وعين لهذا العمل بمصر أحد جند الفتح وهو ربيعة بن شرحبيل بن حسنة الذي كان على المكس كما يذكر ابن لهيعة(٤٠) ، وقد اتخذ من قرية ام دنين شمال الفسطاط مركزا لعمله ، وذكر المقريزي عن القضاعي انه المكان الذي كان يقيم فيه صاحب المكس وصار يعرف باسـم المقس وانما سميت كذلك « لان العاشر كان يقعد بها وهو صاحب المكس »(٤١) . واورد ياقوت أن « المقس كان في القديم يقعـد عندها العامل على المكس فقلب وسـمي المقس وهو بين يدي القاهـرة على النيل وكان قبل الاسلام يسمى ام دنـين »(٤٢) . وقـد استعمل زياد بن ابي سفيان ايام ولايته (٤٥-٥٣هـ) « مسروقا على السلسلة »(٤٣)، وهو مسروق بن الاجدع كان فقيها من التابعين ومات بها سنة ٦٣هـ ، والسلسلة هنا هي اسم المكان الذي مارس فيه مسروق عمله في جباية العشور ، وتقع في منطقة واسط اذ يذكر ابن سعد « كان مسروق على السلسلة سنتين » ثم يبين انه « مات بالسلسلة بواسط »(٤٤) . وقد أخطأ الرحبي صاحب الرتاج في فهم معنى السلسلة هنا ولم يدرك انها المكان الذي عمل فيه مسروق كصاحب العشور وخلط بمعنى السلسلة فاعتبرها انها الحبل الذي يمد عبر النهر او الطريق لاعتراض المرور لمراقبة المارين ودفع العشور على اموالهم واعتبرها كالمآصر(٤٥) التي يعرفها الخوارزمي بأنها « سلسلة او حبل يشد معرضا في النهر يمنع السفن من المضي »(٤٦) . وقد روى ابو عبيد عن شخص رافـق مسروق قوله : « كنت مع مسروق بالسلسلة فما رايت اميرا قط كان اعف منه »(٤٧) . والسلسلة كما يتبين هي المكان ويفترض وقوعها جنوب العـراق أو ما بـين البصرة وواسط ، ومن رواية البلاذري لابد ان السلسلة كانت تقع على الطريق التجاري مـع

الهند لان مفادها انه اثناء عمل مسروق على السلسلة جاءتها سفن من قبل معاوية « ارسل بها معاوية الى ارض السند والهند تباع له »(٤٨) . وقال ابن سعد انها بواسط . ولا سبيل ان تكون السلسلة المقصودة هنا ما يفهم من كلام الطبري انها بلدة قريبة من ميارفاقين في الجزيرة الفراتية لقوله في معرض حديثه عن اضطراب حدث سنة ٢٤٩ « فنفر اليهم في جماعة من أهل ميافارقين والسلسلة »(٤٩) ، اذ يبدو ان هناك تشابها بين اسماء الموقعين . وتذكر اسماء اناس آخرين عملوا على العشور بالسلسلة كحميد ابن عبد الرحمن الحميرى(٥٠) ، وعبد الله بن معقل(٥١) .

وممن استعملهم زياد بن ابي سفيان على العشور في الابلة امية بن عبد الله بن خالد(٥٢) ويذكر اسمه مرة اخرى انه عمل على عشور السوس ثم على الابلة وكور دجلة(٥٣) .

ومما رواه ابو يوسف حول نية ابن الزبير الغاء المكس ابان ثورته (٦٤-٧٣هـ) نعلم ان مركزا لجباية العشور كان في اليمن أيضا اذ قال ابن الزبير « ان هذه المآصر والقناطر سحت لا يحل اخذها وبعث عمالا الى اليمن ونهاهم ان يأخذوا من مأصرة او قنطرة او طريق شيئا ، فقدموا فاستقل المال فقالوا : نهيتنا فقال : خذوا كما كنتم تأخذون »(٥٤) . وهذه الرواية العملية تعني ان جباية العشور كانت مطبقة في هذه الفترة ، وان قيمة الجباية من العشور كانت كبيرة لدرجة انها اثرت تأثيرا بينا في وارد الجباية العامة الامر الذي دعاه الى اعادة فرضها بعد نية الالغاء ، وقد يعني ذلك ان التجارة كانت رائجة مزدهرة لذا كانت جبايتها كبيرة لكن ما قاله بعد ذلك المقدسي في كتابه احسن التقاسيم عن المكوس في بعض نواحي الجزيرة قد يرجح حجم الضريبة نفسها بل وثقلها فقال « فقد رووا انه يصل الى خزانة السلطان ثلث أموال التجار » (٥٥) .

ونسمع بورود اسماء بعض من عينوا على عشور الابلة ، كانس بن سيرين، ولكنه رفض هذا العمل فبين له أنس بن مالك شرعية العشور (٥٦). كما يرد اسم خالد بن ثابت الفهمي الذي استدعاه عمرو بن العاص ليجعله على المكس لكنه استعفاه(٥٧). ويرد هذا ضمن الحديث عن النظرة السلبية للعشور .

وتعتبر فترة خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) غنية في الحديث عن العشور لكن وصفها بالمكوس يبدو أكثر وضوحا . ونسمع عن المكوس عندما ارسل الخليفة الى العامل على المكوس في مصر وهو زريق بن حيان اذ كتب اليه « انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم العين ومما ظهر من التجارات من كل اربعين

درهما درهما وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا، فان نقصت تلك الدنانير فدعها ولا تأخذ منها شيئا واذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجارتهم من كل عشرين دينارا دينارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها فلا تأخذ منها شيئا . واكتب لهم بما تأخذ منهم الى مثلها من الحول »(٥٨) .

ويجعل الشافعي فترة عمل زريق على العشور ايام الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز مما يعني استمرارية التطبيق العملي لها(٥٩) . ويحدد المقريزي مكان عمله انه كان « على مكس ايلة في خلافة عمر بن عبد العزيز »(٦٠) ، في حين يروي ابو عبيد ان زريق بن حيان الدمشقي كان على جواز مصر ايام عمر بن عبد العزيز ولكنه يجعل موضوع كتاب الخليفة تجار اهل الذمة فقط دون ذكر تجار المسلمين(٦١) . كما كتب عمر نفسه الى عدي بن ارطأة كتابا يأمره فيه بأخذ العشور ثم يكتب بما يأخذ البراءة(٦٢) التي يعرفها الخوارزمي بأنها « حجة يبذلها الجهبذ او الخازن المؤدي بما يؤديه اليه »(٦٣) وهنا لابد ان نشير الى الروايات التي تنسب الى عمر بن عبد العزيز مهاجمة هذه الضريبة بشدة ثم الغاءها فقد ذكر صاحب سيرته عنه قوله : « وأما العشور فأرى ان توضع الا عن أهل الحرث فان أهل الحرث يؤخذون بذلك »(٦٤). لكن هذه اشارة واضحة الى عشور المحاصيل فقط ، وذكر ابن سعد عن الواقدي انه « لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل ارض »(٦٥) ، واورد مالك في المدونة ان عمر كتب الى « عامل المدينة ان يضع المكس فانه ليس بالمكس ولكنه البخس »(٦٦). وذكر ابو عبيد ان كتاب عمر الى عدي بن أرطأة تضمن امره له « وضع المكس عن الناس(٦٧) ، كما كتب الى عبد الله بن عوف القاري : « ان اركب الى البيت الذي برفح الذي يقال له بيت المكس فاهدمه ثم احمله الى البحر فانسفه فيه نسفا »(٦٨) . وهذا يعني ان مدينة رفح بين مصر وفلسطين كانت مركزا من مراكز جباية المكوس . ويعد ان اسهم المقريزي في الحديث عن مزاولة جباية العشور واحكامها ومن عمل عليها علق بقوله : « ومع ذلك فقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل » (٦٩).

ويبدو لنا أن مسألة التنفير من المكس انما هي تعبير عن معارضة سوء استخدام المنصب وسوء الجباية بعدم الالتزام باحكام العدالة وهذا نلمحه من نصيحة ابي يوسف للرشيد عند حديثه عن العشور بقوله : « واما العشور فرايت ان توليها قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ان لايتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ولا يظلمون ولا يأخذوا منهم اكثر مما يجب وان يمتثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد امرهم وما يعاملون به من يمر بهم »(٧٠) . ويقول مرة اخرى: « فان عمر بن الخطاب وضع العشور فلا بأس بأخذها اذا لم يعتد فيها على الناس ويؤخذوا بأكثر مما يجب عليهم »(٧١) ، فهو

لا يناقش شرعية هذه الضريبة ولكنه يشدد على قضية الالتزام بالصواب في طريقة الجباية ولعله علم بظلم الجباة وتعسفهم لذا وجه النصيحة لتلافي هذا العسف . وقد يكون جل الاعتراض على العشور مرده سوء تصرف العمال لا اعتراضا على المبدأ ، فكل المصادر التاريخية والفقهية تحدثت عن العشور واحكامها فنجد ابو يوسف مثلا يخصص فصلا بعنوان « فصل في العشور »(٧٢) ووضع قدامة بن جعفر بابا بعنوان « فيما يؤخذ من أموال تجار المسلمين وأهل الذمة والحرب التي يمرون بها على العاشر »(٧٣) .

ولكن ما هي احكام جباية العشور ؟

ابتداء يجب ان نشير الى اجماع المصادر الى انها تجبى من أموال التجارة على المسلمين وأهل الذمة وأهل الحرب(٧٤) ، كما تتفق أغلب الروايات على اشتراط النصاب ويشعرنا ابو يوسف بوحدة النصاب بغض النظر عن المكلفين فيقول في مجال حديثه عن تنظيم جباية العشور « واذا مر عليه بمائتي درهم مضروبة اخذ من ذلك ربع العشر من المسلم ونصف العشر من الذمي والعشر من الحربي ، ثم لا يؤخذ منها شيء الى مثل ذلك من الوقت وكذا اذامر بمتاع قد اشتري للتجارة فان كان المتاع يساوي مائتي درهم أو عشرين مثقالا اخذ منه وان كان لا يساوي وكانت قيمته تنقص عن مائتي درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شيء »(٧٥) . الا ان مالك بن انس ينفي اشتراط النصاب بالنسبة للذمي فقد اجاب عن سؤال هو « اذا خرج بمتاع الى المدينة فباع بأقل من مئتي درهم . ايؤخذ منه العشر قال نعم ، قلت : ايؤخذ منه مما قل أو كثر قال نعم »(٧٦). وهذا يعني أيضا أن رعايا الدولة الاسلامية يدفعون العشر ضمن حدود الدولة الاسلامية لان مالك يقول : « اذا اكرى الذمي ابله من المدينة الى الشام يؤخذ منه العشر .. لانه خرج من بلاده الى بلاد اخرى »(٧٧) . وهو لا يدفع ضمن حدود بلاده الاصلية لكنه اذا خرج الى مصر آخر من امصار الدولة الاسلامية فعليه الدفع . هذا بالنسبة للذمي وبالنسبة للمسلم أيضا فانه اذا « خرج من مصر بتجارة الى المدينة ايقوم ما في يديه فتؤخذ من الزكاة ، فقال لا يقوم عليه ولكن اذا باع ادى الزكاة »(٧٨) ، وهذا يعني انه مكلف بالدفع ضمن حدود الدولة الاسلامية . رواية اخرى يبدو انها تقع ضمن التطبيق العملي وليس ابداء رأي كما ظهر من الروايتين السابقتين اذ نجد في المدونة « حدثني ابن وهب عن ابن لهب ويحي بن أيوب عن عمارة بن غزيه حدثهما عن ربيعة(٧٩) ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة ان تجرتم في بلادكم فليس عليكم في اموالكم زكاة وليس عليكم الا جزيتكم التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضربتم في البلاد وادرتم اموالكم اخذنا منكم وفرضنا

عليكم كما فرضنا جزيتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما أخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ منهم كلما جاءوا وان جاءوا في السنة مئة مرة ولا يكتب لهم براءة بما أخذ منهم »(٨٠).. وهذا يتمشى مع مبدأ فرض الضريبة على أموال التجار لغير المسلمين لان المسلمين تكتب لهم البراءة لربط العشور بالنسبة اليهم بالزكاة التي لا تؤخذ من أموالهم الا مرة واحدة بينما يؤدي أهل الذمة الضرائب على تجارتهم ، فكل تجارة لهم يجب تعشيرها بغض النظر عن المرات التي يجرون بها على العاشر لان كل مرة يفترض ان يحمل التاجر معه مالا جديدا فلا ضرورة لان تكتب له البراءة في هذه الحالة لانها شهادة لدى المسلم انه ادى زكاة ماله لكن مأخذنا على هذه الرواية ان المسلم قد يمر أيضا بمال جديد فلا بد من تعشيره ولكن الربط بين العشر والزكاة هنا أدى الى اغفال مسألة مرور المسلم بمال جديد على العاشر . أما وضع الحربي فلا خلاف عليه من انه يدفع العشر « كلما دخل دار الاسلام حتى لو دخل وخرج عدة مرات في اليوم الواحد »(٨١) وانه يدخل دائما بمال جديد فلا بد من تعشيره .

أما مقدار جباية العشور فهو متدرج حسب المكلفين اذ جعلوه ثلاث طبقات مع ان التسمية العامة هي العشور .

فالمسلمون يدفعون ربع العشر (٢ر٥٪) وهذا ما ربط العشر بالزكاة بالنسبة لهم(٨٢)، وعلى أهل الذمة نصف العشر (٥٪) وأهل الحرب العشر (١٠٪)(٨٣)، وذكر مالك في المدونة انه فيما يتعلق بالتاجر الحربي وما يؤخذ منه على سبيل العشور « ليس في ذلك حد معلوم »(٨٤) ، وان المبدأ هو المعاملة بالمثل لذلك يجوز ان تزيد هذه الضريبة أو تنقص .

أما النصاب وهو الحد الادنى الذي تجبى منه العشور فيتبع حال المكلف ايضا، فنصاب المسلم اربعون دينارا الى العشرين « وليس فيما دون المائتين شيء »(٨٥) ، وقيمة نصاب الذمي عشرون دينارا الى العشرة(٨٦) . وذكر ابو يوسف على لسان زيادة بن حدير قوله « وما مر علي من شيء أخذت من حساب اربعين درهما درهما واحدا من المسلمين ومن أهل الذمة من كل عشرين واحد وممن لاذمة له العشر »(٨٧). هذا مع اعتقادنا ان النصاب قضية فقهية بالنسبة للذمي والحربي على الاقل فالرواية التي تتحدث عن تعشير تجار الذمة في المدينة ايام عمر تذكر العشر تارة ونصف العشر تارة اخرى(٨٨) ، وفيما يتعلق بجواز تفتيش الامتعة او عدم جوازه يبدو الخلاف نظريا ايضا(٨٩) ويستعاض عن التفتيش بالنسبة للمسلم والذمي بحلف اليمين كما فعل عشاروا السلسلة عبد الله بن معقل وحميد بن عبد الرحمن الحميري(٩٠) .

ونجد صدى لما يروى حول جباية عشور المحاصيل في رواية ابي عبيد « قالوا ، يؤخذ العشر من الصامت والمتاع والرقيق وما أشبه من الاموال التي تبقى في أيدي الناس فانه اذا امر بالفواكه واشباهها التي لا تبقى في ايدي الناس فانه لا يؤخذ فيها منه شيء »(٩١) . ونرى ان هذا راي فقهي فأبو يوسف وقياسا على رايه بزكاة المحاصيل يبين بوضوح ان التاجر اذا مر على العاشر بالعنب أو الرطب أو الفواكه الرطبة قد اشتريت للتجارة وبلغت النصاب أخذ منه العشر او نصف العشر او ربع العشر حسب مبدأ التكليف(٩٢) ، وترد احيانا اشارات الى اعفاء الملوك اذا مر بمال سيده، أو المدين ، من العشور (٩٣) .

وفي الاصل ان المال الواحد لا يعشر الا مرة واحدة قياسا على القصة التي تروى انها جرت بين زياد بن حدير والنصراني التغلبي فقد مد زياد « حبلا على الفرات فمر عليه رجل نصراني ثم انطلق فباع سلعته فلما رجع مر عليه فأراد ان يأخذ منه فقال : كلما مررت عليك تأخذ مني ؟ فقال نعم »(٩٤) ، فرفع الامر الى عمر بن الخطاب فأمر ان المال لا يدفع الا مرة واحدة ، والمقصود هنا ان نفس المال لا يدفع الا مرة واحدة(٩٥) . ولكن اذا مر التاجر بتجارات مختلفة فيفترض ان يدفع عن كل مال يمر به على العاشر وليس كقصة صاحب الفرس التغلبي(٩٦) التي يشوبها الغموض فهل كانت الفرس اصلا للتجارة ، مما يوحي ان الغاية من القصة اظهار ان المال الواحد لا يعشر الا مرة واحدة . وبرأي ابي يوسف أن « كل ما اخذ من المسلمين فسبيله سبيل الصدقة وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج »(٩٧) . ويبين يحيى بن ادم انه « ليس على أهل الذمة عشور الا فيما تجروا فيه »(٩٨).

ومما سبق يتبين للباحث ان العشور لم تكن ضريبة على التجارة الخارجية فحسب بل انها تعتبر ضريبة بينية أيضا اي انها ضريبة على التجارة الداخلية يدفعها المكلف ضمن حدود الدولة الاسلامية بل ان ذكرها كضريبة داخلية تكاد تطغى على التجارة الخارجية ، واضافة لما مر علينا من شواهد فان لدينا دليل وثائقي يوضح بما لا لبس فيه انها اخذت كضريبة داخلية في مصر ففي رسالة من والي مصر قروة بن شريك مؤرخة سنة ٩١ هـ موجهة الى احد عماله في الصعيد يطلب فيها منه تشجيع التجار بارسال ما لديهم من القمح من الصعيد الى الفسطاط ويعلمه فيها انه أسقط عنهم المكس مقابل ذلك وكان الامر كما يلي : « فاني قد وضعت عنهم مكسه فليبيعوه في الفسطاط وعجل ذلك فاني قد خفت غلاء الطعام في الفسطاط واني اذا وضعت للتجار مكسهم اصابوا ربحا حسنا »(٩٩) . وفي رسالة اخرى مؤرخة في شهر ربيع الاول سنة ٩١ هـ من الوالي نفسه الي العامل يقول فيها حاثا التجار على احضار الطعام وهو القمح هنالبياع

بالفسطاط « فاني قد أمرت صاحب المكس ان يعلم ما يقدمون به من ذلك فان الطعام نافق في الفسطاط ليس يقدم أحد بطعام الا انفقه »(١٠٠) .

فهل من دليل أكثر قطعا انها ضريبة على التجارة الداخلية اضافة لما مر من روايات ، ولذلك فان اقوال البعض بشأن العشور انها لم تفرض على التجارة الداخلية ينقصها الكثير من الدقة(١٠١) لان رسالة الوالي لا تترك مجالا للشك ان المكس وهو عشور التجارة جبيت من الامصار الاسلامية على التجارة الداخلية بل وضمن الولاية الواحدة بعكس ما قيل فقهيا بان لا عشور عليهم اذا ما تجروا في بلادهم وأكثر من ذلك فان الرسالة تجعلنا نعتقد أن العشر على الذمة قد يصل الى اكثر من ٥٪ لان الوالي يصرح بأن اسقاط المكس يؤدي بالتجار لان يربحوا ربحا حسنا .

ونود ان نبين انه لا مجال لتحديد مقدار الضريبة وثائقيا في فترة صدر الاسلام، في حين ان المصادر المتأخرة تسهب في وصف هذه الجباية التي يبدو انها كانت ثقيلة ومرهقة الامر الذي دعاها الى اظهار شكواها من ثقل المكوس(١٠٢) حتى ان بعضهم عد من محاسن صلاح الدين الغاءه للمكوس عندما دخلت جيوشه مصر وكثيرا من مدن الشام(١٠٣) .

واخيرا تجدر الاشارة الى النقاط التالية في نهاية الحديث عن العشور :

- انها ضريبة معروفة في أسواق العرب قبل الاسلام ظهرت في التطبيق عند المسلمين ايام عمر بن الخطاب وعمل في جبايتها تابعون وفقهاء، وان الرأي السلبي نحوها انما يعبر عن الاحتجاج على عدم تقيد الجباة بالعدل خاصة وان هذه الضريبة اصبحت عبئا ثقيلا مع الزمن .
- انها ضريبة على أموال التجارة عامة يكلف بها المسلم والذمي والحربي .
- ان أكثر مراكز جبايتها (المراصد ، المآصر ، بيوت المكس) لم تكن مناطق حدود مع جيران الدولة الاسلامية بل ان جلها كان مراكز داخلية أو على سواحل البحار .
- الامر الهام هو توضيح انها ضريبة على التجارة الداخلية على الاكثر ، لذا فان شعور المكلف بثقلها كان أوضح لانها تجبى من رعايا الدولة الاسلامية .
- على الرغم وجود هذه الضرائب الا ان ذلك لا يعني ان الدولة الاسلامية لم تشكل وحدة ضريبية .
- ان الدولة الاسلامية قامت بفرض ضرائب جديدة بناء على تطور اوضاعها .

مصادر البحث(١)

ابن الاثير ، علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠) الكامل في التاريخ ، ١٢ ج ، دار صادر ـ دار بيروت ، بيروت (أوفست بريل ١٨٥٣) .

الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد ،(ت ٥٩٧هـ) ، البرق الشامي ، جـ٥، تح فالح صالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ١٩٨٧.

البسوي ، ابو يوسف يعقوب بن سفيان الفارسي (ت٢٧٧هـ) ، المعرفة والتاريخ ، جزءان ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، بيروت ، مؤسسة الرسالة طبعة ثانية ،١٩٨١.

البلاذري ، احمد بن يحيى (ت٢٧٩ هـ) :

ـ فتوح البلدان ، تحقيق م. دي غويه . بريل١٨٦٥ .

ـ انساب الاشراف ، القسم الرابع الجزء الاول ، تح احسان عباس ، النشرات الاسلامية ٤/٢٨ ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٧٨ .

ابن جبير ، محمد بن احمد (ت٦١٤)، رحلة ابن‌جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .

جروهمان ، ادولف ، أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، جـ ٣ ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ١٩٦٢ .

ابن حبيب ، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) ، المحبر ، تح ايلزة ليختن شتيتر . دار الافاق‌الجديدة ـ بيروت (اوفست مطبعة دائرة المعارف النظامية ـحيدر اباد ١٣٦٢) .

ابن حجر العقلاني ، احمد بن علي (ت ٨٥٢)،تهذيب التهذيب ، جـ ١٠ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٢٧ هـ .

الحيدر ابادي ، محمد حميد الله ، الوثائق‌السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة . دار النفائس ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨٣ .

الخوارزمي ، محمد بن احمد بن يوسف (ت٣٨٧هـ) ، مفاتيح العلوم ، دار الطباعة المنيرية ـ القاهرة ١٣٤٢ هـ .

الرحبي ، عبد العزيز بن محمد (ت١١٨٤ هـ)، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج ، جزءان ، تح احمد عبيد الكبيسي وزارة‌الاوقاف العراقية ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧٣ـ ١٩٧٥ .

السرخسي ، ابو بكر محمد بن ابي سهل (ت ٤٩٠) ، المبسوط ، تح محمد راضي الحنفي ، دار المعرفة ـ بيروت ، بدون تاريخ .

ابن سعد ، محمد بن سعد (ت ٢٢٠ هـ) ،الطبقات الكبرى ، دار صادر ، دار بيروت (اوفست طبعة سخاو) ١٩٥٨ .

الشافعي ، محمد بن ادريس (ت٢٠٤هـ)، الام، ٨ج ، تح حمدي زهري النجار ، القاهرة ١٩٦١.
ودار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط ثانية ،١٩٨٣.

الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ج ، تح محمـد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦-١٩٧٠ .

ابن عبد الحكم ، ابو محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت٢١٤) ، سيرة عمر بن عبد العزيز على ماروا‌ه مالك بن انس واصحابه . تح احمد عبيد المكتبة العربية - دمشق ،المطبعة الرحمانية- القاهرة١٩٢٧.

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله(ت٢٥٧) ، فتوح مصر واخبارها ، تح تشارلس توري، نيوهافن ١٩٢٢ .

ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)،الاموال ، تح محمد خليل هراس ، القاهرة ١٩٦٨ .

قدامة بن جعفر الكاتب (ت٣٢٩) ، **الخراج وصناعة الكتابة** ، تح محمد حسين الزبيدي ، وزارةالاعلام العراقية ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨١ .

مالك بن انس (ت١٧٩هـ)،المدونة الكبرى،٦ج،اوفست ، مكتبة المثنى - بغداد ١٩٧٠ ، عن مطبعة بولاق - القاهرة ١٢٩٤ هـ .

الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ)**الاحكام السلطانية والولايات الدينية**، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٦ .

المقدسي ، محمد بن احمد البشارى (الفه ٣٧٥هـ) ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تح م. دي غويه ، ليدن - بريل ١٩٠٦ .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)،الخطط المقريزية ، جزءان ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م (اوفست ، دار صادر - بيروت).

ابن منظور ، ابو الفضل محمد بن مكرم، ت٧٧١ هـ ، لسان العرب ، ١٥ جزءا ، دار صادر - دار بيروت (اوفست الجوائب ١٣٠٠ هـ) .

الحموي ، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ) معجم البلدان ، ٥ اجزاء ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩.

يحيى بن ادم القرشي (ت٢٠٣هـ) ، الخراج ،تح احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ، طبعة ثانية، القاهرة ١٣٨٤هـ .

ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٢هـ) ،الخراج ، تح احسان عباس ، دار الشروق (بيروت- القاهرة ١٩٨٥) .

(١) في الهوامش ذكر لبعض المؤلفات الاخرى .

المراجع باللغات الاجنبية

Aghnides, N.

Mohammedan Theories of Finance, Lahore - Pakistan, 1961, p. 336.

Becker, C.H.

— Papyri Schott - Reinhardt 1, Veroffentlichung aus der Heidelberger , Papyrussammlung II, Heidelberg, 1906 .

— Ne e Arabische Papyri des Aphroditofundes , Der Islam, B. II, 1911.

— Arabische Papyri des Aphrodtiofundes , Zeitschrift fur Assyriologie n. Ver . Gebiete, ZA, Vol. 20, 1907.

Heyd .w.

Geschichte des Levantehandels im Mittelalter,2 Vol Stuttgart. 1879.

Hussein, F.

Das Steuersystem in Agypten ..,Hos -3- peter lang,Frankfurt /M-Bern 1982 .

Encyclopaedia of Islam, New Edition, 1936, Art. Makcs Vol. 3, p. 176-177.

(١) Heyd, Wilhelm, Geschichte des Levantehandels im Mittelalter, Stuttgart, 1879, Vol. 2, p. 30-31.

(٢) الطبري ، تاريخ الرسول والملوك ، جـ ٣، ص ٥٩١، ٥٩٣ ، انظر : ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٢ ، ص ٤٨٦ .

ياقوت ، معجم البلدان ، جا، ص٤٣٢.

(٣) الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ٥٩٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١، ص ٤٨٧ .

(٤) البلاذري ، أنساب الاشراف ، قسم ٤ ، جـ١ ، ص ١٣٠

(٥) البلاذري ، انساب الاشراف ، قسم ٤ ،جـ١، ص ٤٥٩ .

(٦) انظر مثلا : محمود لاشين ، التنظيم المحاسبي للاموال العامة للدولة الاسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٥٨ .

عبد الخالق النواوي ، النظام المالي في الاسلام ـ القاهرة ١٩٧٣ ، ط٢ ، ص ١٠٧ ـ ١١٥.

عون الكفراوي ، سياسة الانفاق العام في الاسلام ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٢٩٨-٣٠١ . ابراهيم فؤاد احمد علي ، الموارد المالية في الاسلام، القاهرة ، دار الشرق ١٩٦٩، ص ٢٣٠ .

توفيق اليوزبكي ، دراسات في النظم العربية الاسلامية ، جامعة الموصل ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٠ .

ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٣، ١٩٦٩ ، ص ١٣٨-١٣٩ .

علي الصوا ، ضريبة العشور في الدولة الاسلامية ، بحث قدم لندوة مالية الدولة في صدر الاسلام ، جامعة اليرموك ، نيسان ١٩٨٧.

(٧) في الاصل (السلام) وهي تصحيف .

(٨) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٨.

(٩) قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة، ص ٢٤١ . وانظر : ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٣-٧٠٥ ، وانظر ما ذكروه في مجال كراهية المكس ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، ص١١٢، ٢٣١، ٢٣٩ ،

(١٠) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٧ .

قدامة ، الخراج ، ص ٢٤١ .

(١١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٩ .

(١٢) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢٤١ ،انظر: صلح ثقيف ٢٦٩ ، وصلح نجران ص ٢٧٢، ولدى البلاذري ، فتوح البلدان ، ١٨٩٥ ، ص ٦٤-٦٥ . ابو يوسف ، الخراج ، ١٩٨٥ ، ص١٩٢-١٩٣ . ابو عبيد ، الاموال ٢٧٣ ، ٢٧٧، ٧٠٧. ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٥٧١ .الرحبي فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج ، جا ، ص ٤٨١ .

(١٣) ابن حبيب ، المحبر ، ص٢٦٥ -٢٦٦ .

(١٤) ابن حبيب ، ص ٢٦٣-٢٦٥ .

(١٥) ابن حبيب ، ص ٢٦٦.

(١٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٩٣ ، انظر يحيبن ادم ، الخراج ، ١٦٦.

(١٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٤ .

(١٨) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص٢٠٥-٢٠٦ .

(١٩) الشافعي ، الام ، ج٤ ، ص ٢١٧ . انظر : ابو عبيد ، الاموال، ص٧١١ ، المقريزي ، الخطط المقريزية ، ص١٢١ .

(٢٠) يحيى بن أدم ، الخراج ، ص٦٤.

(٢١) الشافعي ، الام ، جـ ٤ ، ص ٢١٧ ، انظر: ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٨ .

(٢٢) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٣ . المقريزي،الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢١ .

(٢٣) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٠ ، مع انه يذكر(ان ذلك في صلحهم) ص ٧٠٩ .

(٢٤) السرخسي ، المبسوط ، مجلد ٢ ، جـ ١، ص ١٩٩ .

(٢٥) لابن عبد الحكم ، عبد الله ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص٩٩.

(٢٦) انظر : جروهمان ، أوراق البردى العربية، جـ ٣ ، ص ١٠ .

Becker, PSR 1, p. 53. Ency. of Islam Vol. 3, Maks, p. 176.

(٢٧) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، جـ٦، ص ٢٢١.

Becker, PSR 1, p. 64.

(٢٨) **Ency, of Islam.** Vol. 3, p. 176.

(٢٩) انظر : الشافعي ، الام ، جـ ٤ ، ص ٢١٧. يحيى بن ادم ، الخراج ٦٤ ، ابو عبيد ، الاموال، ص ٧١١-٧١٢ . المقريزي ، الخطط ، جـ٢، ص ١٢١ .

(٣٠) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٣١) انظر : Becker. PSR 1, p. 53.

(٣٢) المقريزي ، الخطط ، جـ ٢، ص١٢١

(٣٣) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٤٠ .

(٣٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة مكس ، جـ٦ ، ص ٢٢١. انظر : المقريزي ، خطط ، جـ٢، ص ١٢١ .

(٣٥) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عشر ، جـ٤ ، ص ٥٧٠ .

(٣٦) المقريزي ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٢١ .. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة مكس ، جـ ٦، ص٢٢١.

(٣٧) ولذلك نستطيع القول ان فهم ما ينسب لرسول الله (ص) مثل (اذا لقيتم عاشرا فاقتلوه) أو (لا يدخل الجنة صاحب مكس) ابو عبيد، ص ٧٠٧ ، لا يكون الا في نطاق كراهية الفقهاء لهذه

الضريبة ربما نتيجة سوء تعرف الجباة في وقت لاحق ، خاصة اذا ما اعتبرنا قول الشاعر (وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم) فمن سوء الجباية .

(٣٨) انظر : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٧٠، ٢٩٢–٢٩٤ . يحيى بن أدم ، الخراج ، ص ٦٤ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٣ . ابوعبيد ، الاموال ، ص ٧١١ . انظر : ٧٠٦ الرحبي، الرتاج ج٢ ، ص ٩٠ ، انظر : ص ١٧٣ .

(٣٩) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٣ ، انظر : السرخسي ، المبسوط ، بيروت مجلد ١ ، جـ٢ ، ص ١٩٦ .

(٤٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٩ ، انظر ٢٣١ .

(٤١) المقريزي ، خطط ، جـ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤٢) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص١٧٥.

(٤٣) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٦ . انظر ابويوسف ، الخراج ، ٢٩٦ .

(٤٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ ٦، ص٨٤ ، انظر : البلاذري ، الانساب ، قسم ٤، جا، ص١٩٩، انظرص ١٣٠ ، ابن حجر العسقلاني، تهذيب ، جـ١٠ ، ص ١١١.

(٤٥) الرحبي، الرتاج ، جـ٢ ، ص١٨٤.

(٤٦) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٤٦ ، انظر: ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٦ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة أصر ، جـ٤ ، ص٤ ٠٢ .

(٤٧) ابو عبيد ، الاموال ، ص٧٠٥ .

(٤٨) البلاذري ، أنساب قسم ٤، جا ، ص١٣٠.

(٤٩) الطبري ، تاريخ ، جـ٩ ، ص ٢٦١ .

(٥٠،٥١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٩–٧٢٠ .

(٥٢) البلاذري ، أنساب ، قسم ٤، جا ، ص١٩٦.

(٥٣) المصدر السابق ص ٤٥٩ .

(٥٤) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٦–٢٩٧ . انظر : المقريزي ، خطط ، جـ٢ ، ص ١٢٢، الحنفي الرتاج ، جـ ٢ ، ص ١٨٥–١٨٦ .

(٥٥) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ١٩٠٦ ، ص١٠٤ ، هنا يجب ان نتذكر النظرة السلبية ضد المكوس على انها ظلم اوضرائب غير شرعية او كما سماها Aghnides « extra-Shariah taxes » في كتابه : **Mohammedan Theories of Finance , Lahore 1961**

(٥٦) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٧، المقريزي، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ ، الحنفي ، الرتاج، جـ٢، ص١٨٦–١٨٧ .

(٥٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر، ص١١٢

(٥٨) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٥–٢٩٦،انظر: المقريزي ، خطط ، جـ ٢ ،ص١٢٢ .

(٥٩) الشافعي ، الام ، جـ٧، ص ٢٤٥.

(٦٠) المقريزي ، خطط ، جـ٢، ص١٢٣.

(٦١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٢ .

(٦٢) ابو عبيد ، الاموال ، ص٧١٨

(٦٣) الخوارزمي ، مفاتيح ،ص٣٧–٣٨.

(٦٤) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز، ٩٩ .

(٦٥) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٥ ،ص٢٥٤.

(٦٦) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١ ، ص٢٧٩–٢٨ ، انظر : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٩٩.

(٦٧) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٤ .

(٦٨) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٢ ، انظر : البسوي ، المعرفة والتاريخ ، جـ١ ، ص ٦٠٧ . الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، جـ١، ص٦٠٧.

(٦٩) المقريزي ، خطط ، جـ ٢ ص١٢٣

(٧٠) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٨–٢٨٩،وانظر ايضا ص ١٥٢ ، ٢٦٩.

(٧١) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢ .

(٧٢) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٨

(٧٣) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢٤١ .

(٧٤) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٩ . قدامة،الخراج ، ص ٢٤١ . السرخسي، المبسوط ، مجلد ١ ، جـ٢ ، ص ١٩٩–٢٠٠ .

(٧٥) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٩ ، فيمايتعلق بالنصاب للحربي انظر ص ٢٩٠ ، اذ ان حد المائتي درهم هو الواجب توفره بالنسبةللجميع ولكن نسبة الدفع من المائتين هي المختلفة.

(٧٦) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١ ، ص ٢٨٠،انظر ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٤ .

(٧٧) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١، ص ٢٨٠.

(٧٨) مالك بن انس ،المدونة ،جـ ١ ،ص٢٨١ ،انظر المقريزي ، خطط ، جـ٢ ،ص ١٢٢ .

(٧٩) قد يكون ربيعة بن شرحبيل بن حسنة اول صاحب مكس في مصر .

(٨٠) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١ ، ص٢٨١.

(٨١) السرخسي ، المبسوط ، مجلد ١ ، جـ ٢،ص ٢٠١ ، انظر : ابو يوسف ، الخراج ، ص٢٩٠ – ٢٩١ ، يحيى بن ادم ، الخراج ، ص ٦٥،ابو عبيد ، الاموال ، ص٧١٨–٧١٩.

(٨٢) انظر : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢.ابو عبيد ، الاموال ،ص ٧٥٨–٧٥٩ . السرخسي ، المبسوط ، مجلد ١ ، جـ٢ ، ص ١٩٩ .

(٨٣) انظر ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٧٠، ٢٨٩، ٢٩٢–٢٩٤ . يحيى بن ادم ، الخـراج ، ص١٦٦.
ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٦، ٧٠٨ ، ٧١١. قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٤١–٢٤٣ ، ٢، المقريزي الخطط ، جـ٢، ص١٢٢

(٨٤) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١، ص ٢٨١ ،انظر يحيى بن ادم ، الخراج، ١٦٨–١٦٩ ،السرخسي المبسوط ، مجلد ١ ، جـ٢ ، ص١٩٦ .

(٨٥) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٣.

(٨٦) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٦ ، انظر يحيى بن ادم ، ص ٦٦، انظر ايضا ص٦٥.

(٨٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢ .

(٨٨) انظر الشافعي ، الام، جـ٤ ، ص ٢١٧، ابوعبيد ، الاموال ، ص ٧١٨.

(٨٩) انظر ابو يوسف ، الخراج ، ٢٩٢، السرخسي ، المبسوط ، مجلد ١، جـ٢ ، ص ٢٠٠.

(٩٠) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٩–٧٢٠.

(٩١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٤، السرخسي،المبسوط ، مجلد ١، جـ٢ ، ص٢٠٤–٢٠٥ .

(٩٢) انظر : أبو يوسف ، الخراج ص ٢٩١ ، أبوعبيد ، الاموال ، ص ٧١٤ .
المبسوط ، مجلد ١، جـ٢، ص ٢٠٢ .

(٩٣) انظر أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩١ ، ٢٩٦، يحيى بن ادم ، الخراج ص٦٥. السرخسي .

(٩٤) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٥

(٩٥) يحيى بن ادم ، الخراج ، ص ٦٤.

(٩٦) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٤.

(٩٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢.

(٩٨) يحيى بن ادم ،الخراج،ص٦٤.

(٩٩) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، جـ٣،ص٨، لوحة رقم ٢ .
Becker, Der Islam, Vol. 2, (Neue arabische Papyri des Aphrodito-fundes) p. 256.
Becker , Zeitschrift fur Assyriologie..Vol . 20, Arabische Papyri des Afroditofundes, p. 83.
Hussein, F. Das Steuersystem in Agypten... Bern 1982. p. 82.

(١٠٠) Becker, Papyri Schott - Reinhardt 1, Heidelberg. 1906 , p. 64; Das Steuersystem in Agypten, p. 82.

(١٠١) انظر الريس ، الخراج والنظم المالية ١٢٩، اليوزبكي ، دراسات ، ص١٦١.

(١٠٢) انظر مثلا المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص١٠٤–١٠٥ ، ١٣٣–١٣٤ ، ٢١٣ . ابن جبير ، الرحلة ص٣٠–٣٩، ٤٥ ، ٥٤–٥٦ ، المقريزي ، خطط ، جا ، ص ١٠٤–١٠٥ .
Heyd, Geschichte... Vol. 2, p. 448 ff.
Ency. of Islam, Vol. 3, p. 177.

(١٠٣) الاصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٥ ، ص٢٩، ١٠٥ ، ١٢١، ١٢٢، ١٣٢ ، ابن جبير ، الرحلة، ص ٤٥، المقريزي ، خطط ، جـ٢، ص١٠٤–١٠٥.

الإدارة المالية
في المملكة السورية السلوقية

د. مفيد رائف العابد
جامعة دمشق

تحولت الدراسات التاريخية الحديثة مؤخرا نحو المظاهر الاجتماعية والاقتصادية للعصور المختلفة ، بعد ما اشبع التاريخ السياسي عرضا وتفسيرا . وقد ساهم في هذا التحول عدة عوامل أولها غنى المكتبات بالدراسات السياسية التي افترقت حسب مدارس العرض والتفسير التاريخي ، مما ادى الى تشوش الفكر التاريخي ، وقلة الثقة بهذه الدراسات نتيجة لذلك . وثانيها قرب الدراسات الاجتماعية الاقتصادية من الواقع المعاش وسهولة اجراء الاسقاطات التاريخية التي تكفل مراقبة التطور التاريخي عبر العصور المتعددة . وثالثها ، مصداقية هذه الدراسات، أي الاجتماعية الاقتصادية، وبعدها عن الهوى والتحيز بالمقارنة مع الدراسات السياسية ، فالمؤرخ الذي يتعامل مع المعلومة الاجتماعية الاقتصادية ، والتي نعتمد في استنباط معظم اجزائها على الاثار، يبتعد بحكم التخصص عن المعلومة السياسية التي قد تخضع في فترة من الفترات لهوى المؤرخ المعاصر او هوى الكاتب الذي يتحدث عنها .

لكن الدراسات الاجتماعية الاقتصادية ، على مصداقيتها وبعدها عن الهوى، لا تخلو من صعوبة تتجاوز في معظم الحالات صعوبة البحث في التاريخ السياسي . فهي متناثرة في المصادر تناثرا يجعل من الصعوبة بمكان الاحاطة بها جميعا . فنادرا ما كان المؤرخ في أي عصر من العصور ، وبخاصة في التاريخين القديم والوسيط ، يتجشم عناء الكتابة حول طريقة معيشة زوجين ، أو اية حادثة اقتصادية اجتماعية ، كانخفاض سعر القمح او ارتفاع سعر الفائدة ، او غير ذلك من الامور . فقد كانت مثل هذه الامور المعاشة يوميا اقل اهمية ،في نظر مؤرخ القديم والوسيط ، من أن يفرد لها صفحات أو فقرات في مؤلفه .

ولهذا يعتبر البحث في هذين الموضوعين عملا يحتاج الى صبر واناة كبيرين، كما يعتبر على جلال قيمته غير متكامل الصورة نظرا للنقص في الوثائق فيما يتعلق بالتاريخ الحضاري لاية فترة زمنية دون استثناء.

ويكاد مثل هذا القول ينطبق بشكل كبير على التاريخ الهلنستي ، وبشكل اخص على تاريخ سورية في تلك الفترة ، وبشكل أكثر تخصيصا على الادارة المالية التي لا تكاد المعلومات المتوافرة عنها تصل الى نسبة العشر قياسا على مثيلاتها في تاريخ مصر في العصر البطلمي . ولهذا السبب درج مؤرخو الفترة على اجراء مقارنات مع المعلومات المتوافرة عن مصر ، بناء على مقولة منطقية وهي ان التشابه في النظم والتسميات السياسية لابد ان يستتبعه تشابه الى حد ما في التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ، وبخاصة ان ملوك مصر وسورية انحدورا من منطقة واحدة هي مقدونية ، وان الدولتين متجاورتين وان مناطقهما خضعت في فترة سابقة ولمدة طويلة لحكم امبراطورية واحدة هي الامبراطورية الفارسية .

وعلى هذا سندرج في هذا البحث ، على ما درج عليه المؤرخون المعنيون ، في حين سنحاول الاكتفاء بالاشارة الى ما لم يرد له ما يماثل المعلومات من مصر البطلمية .

اولا ـ التنظيمات والسياسة المالية :

بالرغم من اعترافنا السابق بتعذر تبين معالم النظم المالية في سورية بالوضوح نفسه الذي تيسره وفرة المصادر البطلمية ، وما يمكن ان يقال من ان اتساع رقعة الامبراطورية السلوقية وكثرة اوجه النشاط العسكري والعمراني التي حفلت بها الفترة ، ادت الى انه لم تتوافر لمعظم ملوك سورية فرص كافية للعناية بالنواحي التنظيمية ، فانه لا يمكننا ان نتصور ان هؤلاء الملوك قد اخلدوا الى السكينة بعد خوض حروبهم ، وانهم لم يقدموا على وضع اسس جديدة للادارة المالية في امبراطوريتهم او على اقل تقدير ، تطوير الاسس القديمة لهذه الادارة في الاقاليم الرئيسة الثلاث (سورية وبابل وآسية الصغرى) والتي كان لكل منها مقومات اقتصادية تختلف وتتشابه .

واذا كان من المؤسف اننا لا نستطيع تبيان خطوات كل ملك سوري في تلك الفترة لان نقص معلوماتنا عن التنظيمات المالية الفارسية ، التي لا نستطيع ان نتبين معالمها بشكل واضح قبل انطيوخس الثالث (١٢٣ ـ ١٨٧ ق.م)«(١)» يزيد الامر غموضا ، فاننا على الاقل نستطيع ان نعرض عموميات النظام ، ونبدأ البحث في الادارة المالية.

١ ـ الادارة المالية :

كانت الادارة المالية في سورية السلوقية تسمى (تو باسيليكون)(٢) to Basilikon وتعني (الملكية) باليونانية ، في حين احتفظت الخزانة الملكية بالاسم الفارسي

(غازو فولاكيون) Gazophylakion ويعني (خزانــة الدولــة) (٢). وقــد اختلفت التنظيمات المالية في مصر عنها في سورية تحديدا في ان فروع المصرف الملكي في مصر كانت منتشرة في كافة مراكز المملكة الادارية صغيرها وكبيرها . في حين اقتصر وجود بيـوت المال في سورية على بعض القلاع الحصينة . وهذا ما تؤكده حادثتان أولاهما انــه في سنة ٢٤٦ ارسل سلوقس الثاني رسالة الى مسؤول بيت المـال في قلعــة (سولوي Soloi في كليكية(٤) يأمره فيها بتسلم مبلغ (١٥٠٠) (تالانت = وزنة) وهو ثمن ارض باعها الملك(٥). وثانيهما ما يذكره المؤرخ بلينيوس من ان حصيلة الجزية التي جمعت من اقليم بكامله اودعت في قلعة مدينة (كافرينا) Kaphrena على نهر الفرات(٦) .

ويبدو ان الفوارق في نظم الحسابات بين سورية السلوقية ومصر البطلمية تكمن اساسا في طرق الجباية المعتمدة في المملكتين . فقد كانت الجباية عند البطالمة تعتمد على نظام المزرعة المراقبة من قبل الدولة(٧) . ولهذا كان الفلاح المصري يدفع ضرائبــه في أحد فروع المصرف الملكي ، في حين كانت المسؤولية الضريبية في سورية والاقاليم التابعة لها جماعية ، وبالتالي كانت القرى والمراكز توردها الى الصناديق الملكية في القلاع آنفة الذكر ، وهذا ما يرجحه قيام الكاهن الاكبر اليهودي في بيت المقدس بجمــع الجزيــة المفروضة على رعيته وايداعها الصندوق الملكي(٨) .

ويميز الكتاب الثاني من مجلد « الاقتصاد » بين ادارتين ماليتين اعتمدتا في آسية الغربية عموما في بدايات العصر الهلنستي ، واحدة تتبع الادارة المركزية مباشرة وثانية تتبع المراكز والساترابيات (أي الولايات او المرزبانات) ، ويوضح الكتاب نفسه الموارد الخاصة بكل ادارة منهما . ويبدو ان الاسكندر وقادته قد اعتمــدوا هذا النظــام ذا الاصول الفارسية ، اذ بموجبه طالب انتيغونس القائد سلوقس بتقديم تقرير ادارتــه المالية في ولاية بابل(٩) .

وفي وقت لاحق يصعب تحديده عدل الملوك هذا النظام وتشددوا في مركزيتهــم المالية لدرجة أصبحت جميع الضرائب التي يجمعها الولاة (الساترابة مفردها ساتراب) . تسلم الى الخزينة المركزية مثلها في ذلك مثل ضرائب الارض والجمارك والاشخاص. وتثبت الوثائق اليهودية والوثائق المالية المكتشفة في بابل ما سبق ذكره ، حيث مهرت جميعها بشعار المرساة الملكية(١٠) ،على عكس الوثائق غير المالية التي كانت تمهر بشعارات الساتراب المحلي .

٢ ــ مدراء الماليــة :

كان الملك في سورية كنظيره البطلمي في مصر يتربع على قمة الادارة المالية، وينوب

عنه في رئاسة هذه الادارة موظف يدعى (هو أيبي تون بروسودون) ho epi ton Prosodon (١١). الذي يرأس بدوره سلسلة من الموظفين الذين يمثلونه في الاقاليم ويحملون في بعض الحالات اللقب نفسه(١٢) ، كما في مدينة سوسة ومقاطعة كيليكية(١٣) .

والى جانب نائب الملك للشؤون المالية هذا ، عملت مجموعة من المساعدين حمل كل واحد من أفرادها لقبا حمله وزير المالية البطلمي وهو (ديويكيتيس Dioikitis) . وقد ورد هذا اللقب في عدد من الوثائق أولها تعود الى فترة سلوقس الاول(٣١٢–٢٨٠) الذي أرسل موظفا بلقب ديويكيتيس الى مقاطعة البونتوس (شمال آسية الصغرى) بعد ضمها الى سورية اثر انتصاره على لوسيماخوس(١٤) . وثانيها ورد في رسالة بعث بها أنطيوخس الثالث الى مدينة (نوسا) Nysa (١٥) ، وثالثها في رسالة موقعة باسم انطيوخس الثاني(١٦) . ولا يعرف على وجه الدقة طبيعة المهام التي أوكلت الى حملة هذه الالقاب وان كان يرجح قيامهم بالاشراف الدائم أو المؤقت على الامور المالية في الاقاليم .

وتشير رسالة من فترة حكم انطيوخس الثاني الى موظف مالي آخر يحمل لقبا هو (الايكونوموس Ekonomos) وتعني (المدبر) . وباستثناء ما تنبئنا به الرسالة من أن هذا الموظف اشرف على مفاوضات بيع الملك احدى اراضيه الى زوجه او مطلقته (لاوديكيا)(١٧) فاننا لا نعرف طبيعة عمل هذا الموظف بالتفصيل اللهم الا اذا اضفنا الى معلوماتنا عنه ما يفيد ، من الرسالة نفسها ، ان الايكونوس تلقى أمرا من موظف يدعى (متروفانس) Metrophanes اضطره الى دفع تكاليف نقش عقد البيع على الحجر . ولما كان نص الرسالة لا يوضح عمل متروفانس هذا ، فان من المرجح ان يكون (ساترابا) او (ديويكيتس) . كما ترجح صيغة النص نفسه ان يقوم الايكونوموس فيما بعد بتوجيه أمر الى (الهوبارخوس) — وهو المسؤول عن أصغر وحدة ادارية في سورية السلوقية — ليقوم بتسليم قطعة الارض المبيعة الى صاحبتها الجديدة(١٨) .

ويبدو ان الهوبارخوس كان الموظف الوحيد الذي خضع للادارتين الادارية والمالية على حد سواء ، على اعتبار أن الهوبارخية هي أصغر الوحدات الادارية في تقسيمات الدولة(١٩) ، وبما انه لا يتفرع عن هذه الوحدة الصغرى وحدات أصغر ، فعليها يعتمد جهاز الدولة في تنفيذ القرارات والتوجيهات المركزية الادارية والمالية وحتى العسكرية .

٣ — قواعد واستثناءات مالية :

تبين نصوص في المصادر اليهودية بعض الجوانب الغامضة في الادارة المالية

السلوقية وبخاصة ما يتعلق منها بنظام (الادايراتيو) Adaeratio الذي شاع في عدد من الممالك الهلنستية ، والذي بمقتضاه كان الملك يستبدل النقود بالضرائب العينية ، وهذا ما تثبته حادثة قبول انطيوخس الثالث استبدال ما يوازي قيمة الذبائح والزيوت المخصصة لبيت المقدس نقدا (٢٠). ويبين النص نفسه استثناء ما بأن الحنطة والملح سلمتا عينا الى المعبد ، الامر الذي يسمح بالافتراض ان الدولة كانت تحتكر مناجم الملح أو انها على الاقل كانت تتسلم بعض الضرائب المفروضة على المناجم عينا(٢١). كما يتضح من ذات النص ان الادارة المالية كانت ، كمثيلتها البطلمية ، تعتمد مكيالا خاصة في تقدير كمية الحبوب الضريبية ينقسم الى وحدات اصفر(٢٢) .

ومن خلال ما يذكره سفر المكابيين الثاني من أن سلوقس الرابع تعهد مرة بتأمين نفقات الشعائر الدينية في بيت المقدس من موارده الشخصية(٢٣) ، يمكن الافتراض أيضا بوجود جهاز مالي خاص بالملك ، وميزانية منفصلة عن ميزانية الدولة ، وهو نظام اشبه ما يكون بنظام (الايديوس لوغوس) Idios Logos في مصر البطلمية(٢٤)، ويمدنا سفر المكابيين الاول بمعلومات اضافية عن هذا النظام وذلك من خلال خطاب ارسله دمتريوس الاول الى المعبد نفسه يهبه فيه خمسة عشر الف وحدة من الفضة سنويا ، ويطلب فيه من الادارة المالية المركزية اقتطاع هذا المبلغ من حساب الملك في الامكنة المناسبة(٢٥) . وهي حادثة تؤكد معلومة اخرى وهي وجود حصة للملك في الفروع المالية المتعددة في الامبراطورية .

وعلاوة على ذلك توضح نصوص اخرى سلطات الملك المالية المطلقة التي تتعدى حدود ميزانيته الخاصة ، وبخاصة في حالة انعامه على من يشاء دخلا معينا، أو التخلي بصورة كاملة عن مصدر من مصادر الدخل الخاصة أو العامة لصالح شخص أو هيئات معينة ، وذلك من خلال ما يذكره سفر المكابيين من أن انطيوخس الرابع منح مرة اخرى خليلاته دخل بعض المدن التابعة لاقليمي (تارس) Tarse و (مالوس) Mallos (٢٦). وان دمتريوس الاول وقف مدينة (بطلماية) ptolemais (عكا وضواحيها)(٢٧) لصالح معبد بيت المقدس .

ومن جهة اخرى وعلى مستوى آخر كان الملك يمن باعفاءات ضريبية محددة على الافراد والجماعات والمدن . وهذا ما توضحه لنا مجموعة من الحوادث اهمها حادثة منح سلوقس الثالث جزيرة رودوس اعفاء من الضرائب ، وحادثة تخصيص بعض الفئات في بيت المقدس بامتيازات ضريبية في عهد انطيوخس الثالث ، واعفاء سكان المدن بكاملهم من ثلث الجزية المفروضة على المدينة . واخيرا رغبة عدد من الملوك

المتأخرين في اصدار اعفاءات محددة بفترة زمنية لصالح عدد من المدن اشهرها (نوسا) واروتري Erythree (٢٨) .

وتعتبر المعلومات المتوافرة عن الضرائب المفروضة على بيت المقدس في الفترة مدار البحث نموذجية بالمقارنة مع غيرها من المعلومات الضريبية من مناطق اخرى . ولهذا نجد انفسنا ـ رغم التكرار أحيانا ـ مدفوعين الى استعراض هذه الضرائب لايضاح جوانب الفكرة .

تذكر المصادر من الفترة نفسها ان انطيوخس الثالث بعد استيلائه على بيت المقدس طالب سكانها بضرائب عدة يمكن اجمالها ضمن ثلاثة تقسيمات رئيسة ، أولها، جزية عامة اجمالية(٢٩) يبدو انها كانت تفرض على المجتمع اليهودي بأسره ، وثانيها ضرائب مباشرة بما فيها ضرائب الاشخاص (٣٠) ورسوم الملح (٣١) وضريبة التاج(٣٢) . وثالثتها ضرائب غير مباشرة(٣٣) ، في حين اعفى مرسوم المطالبة الضريبية كبار الكهنة من سداد الضرائب المباشرة(٣٤) ، وخص معبد المدينة المقدسة ببعض المساعدات(٣٥) .

ويبدو أن مقدار الجزية وحتى بعض الضرائب الاخرى وكيفية ونوعية دفعها كان يتفاوت بين فترة واخرى حتى ولو كانت قصيرة ، اذ تذكر المصادر اليهودية ان المنافسة على منصب الحبر الاعظم بين المرشحين رفع الجزية من (٣٠٠) الى (٣٩٠.٠) تالانت(٣٦) ، كما ادى تمرد المكابيين الى ضم بعض اراضي المنطقة الى الارض الملكية (٣٧). وعندما اعتمد اسكندر بالاس تعيين (يوناثان المكابي) كاهنا أعظم سنة ١٥٢ وافق الاخير على ان يدفع اليهود ضرائبهم على النحو التالي : اولا ، الجزية اضافة الى ضريبة باهظة على الممتلكات(٣٨) ، ثانيا ، ضريبة الملح وضريبة التاج اضافة الى ضريبة مناجم الملح(٣٩) ، ثالثا ، ضريبة العشر على الزراعة اضافة الى ضريبة مرور البضائع التجارية(٤٠) ، رابعا ، ضريبة التحاق الكهنة(٤١) بالسلك الكهنوتي ، في حين علقت المساهمات الملكية في نفقات الشعائر الدينية وصيانة الهيكل(٤٢) .

وفي مجال الاعفاءات ، يعتقد من خلال توافر المعلومات انه لم تحصل طائفة او مدينة أو اقليم على اعفاءات تفوق تلك التي حصل عليها اليهود في الفترة المتأخرة من تاريخ الحكم السلوقي للمنطقة . فقد حصل يوناثان المذكور انفا على عفو من جميع الضرائب اصدره دمتريوس الاول ، ولكنه التزم في مقابل ذلك بدفع جزية سنوية مقدارها (٣٠٠) تالانت = وزنة(٤٣) ، وعندما تأخر يوناثان عن الدفع طالبت الحكومة

خليفته سمعان بجميع الضرائب المستحقة(٤٤) . على ان اليهود ما لبثوا ان حصلوا على اعفاء دام طويلا في عهد دمتريوس الثاني سنة ١٤٢، اذ يذكر سفر المكابيين الاول ان الملك تخلى عن جميع الضرائب التي فرضها اسلافه على بيت المقدس(٤٥) ، وتحررت الطائفة على حد قول المصدر نفسه من نير الوثنيين . وقد ثبت انطيوخس السابع هذه الاعفاءات ولكنه في مقابل ذلك طالب المكابيين بدفع جزية خاصة(٤٦) عن المناطق التي استولوا عليها جنوبي سورية.. وقد تعهد (يوحنا هركانوس) Jean Hyrkanos خليفة الكاهن الاعظم سمعان بعد هزيمته بدفع هذه الجزية التي بلغت ٥٠٠ وزنة(٤٧). ولم يتحرر هركانوس من هذا الالتزام الا بعد الكارثة العسكرية التي لحقت بأنطيوخس السابع على ايدي البارثيين سنة ١٢٩.

ثانيا ـ العائدات النظامية للادارة المالية :

وتجمع كتلة المصادر بين ايدينا على أن عائدات الادارة المالية انقسمت ، مثلها في ذلك مثل اية امبراطورية من امبراطوريات العالم القديم ، الى قسمين: اولها العائدات النظامية وثانيها العائدات الاستثنائية .

والعائدات النظامية هي التي كان يمكن للادارة المالية تقديرها في حالة السلم وتبيان بنودها وكمياتها بشكل اقرب ما يكون الى الدقة . ويجدر بالذكر في هذا المجال أن ننوه ــ بناء على ماسبق ذكره في مجال الحديث عن توافر المعلومات ــ الى وجوب ملاحظة ان الوسائل المعتمدة للحصول على العائدات النظامية قد لا تكون واحدة في كثير من الحالات في كل اقاليم ومدن الامبراطورية(٤٨) ، وعليه فان المعلومات التي سنعرضها والتي سنلاحظ تبعثرها بين عدد من المصادر قد لاتشكل بالضرورة قيمة في غير الاقليم او المدينة التي يخصها الحديث .

آ ـ الفوروس Phoros :

ويأتي الفوروس(٤٩) في مقدمة أهم الرسوم المالية التي تعتمد عليها ميزانية الامبراطورية ، اذ اعتبر المساهمة الاولى التي كانت الوحدات السياسية المرتبطة بالملك تقدمها له ، ويعود فرضه تاريخيا الى عهد دارا الاول(٥٠) واستمر حتى الفترة الرومانية .

وكانت الادارة المالية السلوقية تتبع في جباية الضرائب الاساسية قاعدتين رئيستين(٥١) ، أولاهما ان هذه الضرائب كانت تفرض على الجماعات(٥٢) في المدن والاقاليم والقبائل ، وهذا ما تثبته مصادرنا في قيام السلوقيين بفرض الفوروس على المدن الاغريقية في آسية الصغرى(٥٣)، تماما كما فرضت على السلالات الحاكمة مثل

(اكسر كسس الارموساتي) Xerxes of Armosata(٥٤) في آسية الصغرى أيضا. وكذلك على الشعوب والمدن اليهودية والسامرية في فلسطين (٥٥)، او القرى الكبرى التي طبعت بالطابع الهليني مثل (جازارا) Gazara و (يوبي = يافا ؟ Ioppe في فلسطين، والمدينة الهلينية التي أنشأها انطيوخس داخل بيت المقدس(٥٦) .. والقاعدة الثانية، ان الجزية المفروضة على مدينة أو اقليم أو قبيلة كانت توزع على البلديات او الاقسام الرئيسة في تقسيمات الكتلة الكبرى بحسب الحصة المتفق عليها مسبقا ، والتي لم يكن يطرأ عليها أي تعديل لمدة غير محدودة من السنين سواء كانت رخية ام عجافا . ويبدو ان هذه القاعدة كانت مجحفة بحق كثير من المواطنين في بعض السنين لدرجة دعت الرومان الى المفاخرة بعد ذلك بعشرات السنين بأنهم استبدلوا بضريبة الفوروس الثابتة ضريبة العشر ، على الاقل بالنسبة للانتاج الزراعي(٥٧) .

ويبدو ان الحصص المترتبة على كل منطقة لم تكن تتأثر بالتبدلات الادارية او السياسية الخاصة بهذه المنطقة ، وهذا ما توحي به حادثة الحاق ثلاث دوائر ادارية ببيت المقدس سنة ١٤٥ دون فرض اية ضريبة اضافية على ادارته المالية(٥٨) ، وكذلك حادثة مطالبة انطيوخس السابع الكاهن الاكبر (يوناثان) بضريبة الفوروس عن المدن التي احتلها اليهود بالقرب من بيت المقدس مع مراعاة عدم المس بحصانة بيت المقدس الضريبية(٥٩) التي كانت قد حصلت عليها قبل ذلك .

والجدير بالذكر ان ضريبة الفوروس كانت مبلغا ثابتا ، وان كان من المؤسف ان كل مصادرنا من الفترة السلوقية لا تعطينا الا ارقاما تخص داخل سورية بعد استردادها من البطالمة . وقد مر معنا كيف ان المنافسة على رتبة الحبرية ادت الى رفع المبلغ من ٣٠٠ الى ٣٩٠ وزنه في عهد انطيوخس الرابع ، ولكنها عادت وانخفضت بعد التمرد المكابي الشهير . ويمكن في هذه الحالة على الاقل مقارنة هذه المبالغ بالجزية التي فرضها دمتريوس بن انيتيغونس على مدينة (اوروتري) في آسية الصغرى والتي بلغت ٢٠٠٠٠ وزنة(٦٠) .

ويظهر ان الادارة المالية السلوقية قد سمحت ، اعتمادا على قواعد الجباية الفارسية ، لبعض القبائل والممالك المحلية بأداء الفوروس كله أو جزء منه بشكل عيني . وعلى هذا تسلم انطيوخس الثالث من (اكسركس الارموساتي) ما تأخر من مدفوعات الفوروس الخاصة بمنطقته على النحو التالي : ٣٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠٠ راس من الخيل و ١٠٠٠ دابة اخرى(٦١) . ويحتمل والحالة هذه ان الفرسان في الجيش السلوقي كانوا يحصلون على خيولهم من مقاطعة ميدية باسم الفوروس(٦٢) كما درج عليه سلاح الفرسان زمن الدولة الفارسية .

وتجمع المصادر على انه لم تعف اية وحدة ادارية سلوقية من دفع الفوروس الا بنتيجة امتياز خاص كان يمنح لها من قبل الملك بالذات بعد تكليفها بدفعه . ويوضح هذا الاجماع قرار مجلس الشيوخ الروماني الناظم للاحوال الادارية في آسية الصغرى بعد معاهدة افامية ، اذ يميز القرار بوضوح بين المدن الاغريقية التابعة للملك انطيوخس والمدن المعفاة من دفع الفوروس في الفترة السلوقية السابقة(٦٣) .

وتبين نقوش من مدينة ازمير Smyrna ان المدينة وضواحيها حصلت على اعفاء ضريبي من الملك سلوقس الثاني (٦٤) مكافأة لها على موقفها خلال حرب لاوديكيا . كما تبين مصادر اخرى ان كلا من انطيوخس الثاني والاول جددا الاعفاءات الضريبية التي كان الاسكندر الاكبر قد خصها بمدينة (اروتري)(٦٥) . وتعتبر المصادر اليهودية الاعفاء الضريبي الذي منحهم اياه دمتريوس الثاني بداية استقلالهم الفعلي في مناطق سكناهم(٦٦) .

وبناء على ما اسبق يعتبر الفوروس من وجهة نظر معاصرة مساهمة حربية دائمة من وحدات الامبراطورية . أو على حد قول (شيشرون) « ثمن النصر وتعويض عن الحرب »(٦٧) ، او بمعنى آخر علامة الخضوع الملموسة . ويؤكد هذا التعليل تفسير المصادر حادثة قيام انطيوخس (هيراكس) Hierax بغزو فروجية الكبرى برغبته في فرض جزية الفوروس على سكان المقاطعة(٦٨) ، وكذلك مطالبة انطيوخس الثالث كل مدن آسية الصغرى(٦٩) وامراء آسية العليا(٧٠)، الذين استقلوا عن الدولة في عهود أسلافه ، بدفع جزية الفوروس بمفعول رجعي . وايضا اعلان انطيوخس السابع استعداده للاعتراف بسلطة الملك البارثي على اقاليمه شريطة قيام الاخير بدفع الفوروس(٧١) .

ولم تكن الوحدات الادارية ذات الاستقلال المحلي فقط مطالبة بدفع الفوروس وغيرها من الضرائب الى بيت المال الملكي ، اذ تؤكد عدد من نقوش آسية الصغرى ان الوحدات الصغرى حتى ولو كانت مجاورة للارض الملكية العامة كانت مطالبة بدفع مبالغ اجمالية محددة ، بدون تحديد اسم لها . فمثلا كانت مجموع القرى التي وضعت تحت تصرف احد القادة الدعو (منسماخوس) Mnesimachos تدفع مبلغا سنويا ، وتبين النقوش نفسها ان احدى هذه القرى وتدعى (ايلوس) Iloss كانت تدفع سنويا ما لا يقل عن ثلاث دراخمات ذهبية وثلاثة أوبولات(٧٢) .

وواضح ، ان الفوروس كان دوما ضريبة جماعية يكلف رؤساء الجماعات بتأديتها نيابة عن مرؤسيهم . وهذا ما تؤكده بشكل غير مباشر مجموع الحوادث سابقة الذكر ،

اضافة الى حادثة يوردها سفر المكابيين(٧٣)، حين يذكر ان الكاهن الاكبر اليهودي (ياسون) ارسل مرة احد اعوانه المدعو (منلاوس) الى الملك لدفع ما ترتب عليه من ضرائب(٧٤) .

وبناء على ما سبق استعراضه ، يمكن الافتراض او الترجيح بأن الحكومة المركزية لم تكن تأبه كثيراً بالوسائل التي تلجأ اليها اية وحدة ادارية تابعة بهدف دفع ضرائبها، وهو الامر الذي ترتبت عليه بالتالي نتيجة سياسية عامة ، وهي ان الدولة في عدم تدخلها في الشؤون المالية للمجتمعات المرتبطة بها ولا في كيفية اتفاق العناصر الصغرى في هذه المجتمعات على تأدية هذه الالتزامات ، واقتصار علاقاتها على اعيان هذه المجتمعات الذين كانوا يعزون قسوتهم المالية الى الحكومة المركزية ، قد ادى الى تشويه سمعة الحكومة بشكل غير مباشر . وهو افتراض يؤيده حادث استدعاء قائد القلعة السلوقي في بيت المقدس للكاهن منلاوس والطلب اليه المثول امام انطيوخس الرابع للدفاع عن نفسه بتهمة التقصير في دفع التزامات اليهود المالية(٧٥) .

ونظرا لثبات الارتباط المالي الاول في بداية تكوين المؤسسات المالية للامبراطورية، فقد كانت المجموعات المرتبطة بالسلطة تحافظ على استقلال مالي واضح . وعندما كان الملك يفرض ضريبة جديدة كان ذلك يشكل عبئا اضافيا الى الجزية او الضريبة العامة ولا يندمج فيها . وهذا ما تؤكده حادثة اعفاء انطيوخس (الاول او الثاني)مدينة (اروتري) من « الجبايات المتعددة والضريبة المفروضة بعد حرب الفال »(٧٦) . وكذلك القرار الصادر عن المدينة نفسها والذي يوضح الضريبة باسم « الرسم الفالي » والذي اشرف على جبايته احد القادة الملكيين(٧٧) .

وتفيد المعلومات في كتاب (الاقتصاديات) ان مثل هذا النظام او هذا الثبات في مقدار الجزية الرسمية كان مطبقا في عدد من مدن الاغريق وبلاد فارس . اذ لم يكن حلفاء الاثينيين في العصر الكلاسيكي يساهمون بأكثر من الجزية أو المساهمة الجماعية المحددة لكل مدينة . في حين كان موظفو الجباية الفرس يجمعون لصالحهم الخاص الى جانب الجزية المحددة ضرائب تحت أسماء مختلفة كضرائب العشر والاشخاص والحرفيين(٧٨) ، دون ان يتمكنوا من اضافة اية نسب على الضرائب المحددة .

وقد درج الملوك الهلينيون على عادة اسلافهم الشرقيين وفرضوا على السكان ضرائب فردية مباشرة كانت تضاف عادة الى ضرائب المجموعات والضرائب البلدية(٧٩). وتبين بوضوح وثيقة من العصر السلوقي عثر عليها في مدينة مولاسا **Mulasa** الفرق بين ضرائب الاملاك العامة والضرائب الاخرى التي تجبيها هيئة الضرائب الملكية ، وبين الرسوم والضرائب التي كانت تفرضها الهيئة الحاكمة في المدينة(٨٠) .

ويبدو ان الاعفاءات الضريبية التي كان الملوك يمنون بها على افراد او طوائف معينة كانت تتعلق دائما بالضرائب التي تجبيها هيئة الضرائب . وهو ما توحي به رسالة انطيوخس الثالث الى بيت المقدس التي ضمنها اعفاء رجال الدين بجميع طبقاتهم من ضرائب (الاشخاص) و (الملكية) و (الملح) (٨١) .

وقد اوردت الرسالة المذكورة نفسها ذكرا لضرائب الاشخاص ، مع ملاحظة انه لا يمكن الجزم فيما اذا كانت هذه الضرائب قد فرضت على بيت المقدس استمرارا لضريبة كانت تدفعها المدينة المقدسة تحت السيطرة البطلمية(٨٢) ام غير ذلك ، ومع الاخذ بعين الاعتبار ان الساترابيات الاسيوية عرفت مثل هذه الضرائب(٨٣) كواحدة من الضرائب التي جبيت بعد وفاة الاسكندر(٨٤) .

والى جانب الضرائب السابقة عرفت بعض مدن الامبراطورية ضرائب (الانتصار) أو (الاكليل) وهي التي كانت تقدم اساسا الى الفائزين بالالعاب الرياضية أو الى الملوك على شكل اكاليل وتيجان ، اكبارا واجلالا لانتصاراتهم(٨٥) . وهذا ما تشهد به عدد من وثائق العصر . فعلى سبيل المثال قدمت مدينة ملطية في مناسبة غير معروفة الى سلوقس الثاني اكليلا مقدسا حصلت عليه من هيكل ابولون (الديدومي)(٨٦) Didyme كما حمل وفد من مدينة اروتري اكليلا وهدايا من الذهب (٨٧) الى الملك نفسه . ونقرأ في ديودوروس عن « حملة اكاليل الذهب »(٨٨) في الفترة السلوقية . وتذكر مصادر اخرى ان قيمة الاكليل الذي قدمه احد الملوك المدعو (كيبورا) kibyra الى انطيوخس الثالث سنة ١٨٨ بلغت (١٥) وزنة(٨٩) . ويعدد بولوبيوس الهدايا التي قدمتها مدينة (جرها) العربية الى انطيوخس نفسه خلال حملته الشرقية ، ومن بينها خمسمائة وزنة من الفضة وألف وزنة من البخور ومائتي وزنة من (المر) Myrhe (٩٠) .

ويبدو انه بمرور الزمن لم تعد لهذه الضريبة صفة طوعية ـ ولو نظريا ـ بل أصبحت ضريبة اضافية تقدمها المناطق الخاضعة للامبراطورية بمناسبة وصول الامراء اليهم او في المناسبات الهامة . ويذكر سفر المكابيين الثاني انه في سنة ١٦١ عندما تشرف (الياكيم) الكاهن الاكبر بمقابلة الملك الجديد دمتريوس الاول ، احضر معه اكليلا من الذهب محاطا باغصان من الزيتون حسب العادة المتبعة سابقا في هيكل بيت المقدس(٩١) . كما يذكر السفر نفسه حادثة تنازل دمتريوس الثاني عن حقه في الاكاليل التي قدمها اليه اليهود شاكرا لهم هداياهم السابقة(٩٢) . وكان دمتريوس نفسه قد وعد اليهود سنة ١٥٢ بتحريرهم من ضريبة الاكاليل وضرائب اخرى(٩٣) . وتوضح الحوادث السابقة ان الملوك السلوقيين (المتأخرين على الغالب) قد حولوا هذه الهبة الطوعية الى رسم مباشر بكل معنى الكلمة ، مع ملاحظة ان هذا العمل لم يحل دون تقديم الاكاليل الذهبية في الفترة نفسها .

ولا يعرف الكثير عن ضريبة رددتها المصادر المعاصرة بكثرة وهي ضريبة الملح (aleki) أو (ton alon) اذ لم يرد لها ذكر مباشر الا في منطقتي فلسطين(٩٤) وبابل(٩٥). غير انه لما كانت الوثائق من مصر البطلمية تؤكد على ان ضريبة الملح كانت ضريبة مالية تجبى بهذا الاسم عن كل فرد(٩٦) ، وبناء على رسالة أعفى بمقتضاها دمتريوس الاول اليهود من « ثمن الملح ومدفوعات الاكاليل »(٩٧) . فان من المرجح ان هذه الضريبة كانت تجبى في الدولة السلوقية باحدى طريقتين ، اما ان يلزم دافعو الضرائب بشراء كمية من الملح سنويا ، أو ان تدفع الجماعات او التجمعات ضريبة ما بهذا الاسم ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان المصطلحات الواردة في نقوش وبرديات الامبراطورية السلوقية والمملكة البطلمية وكذلك المصادر الادبية والتي وردت تحت عبارات (٩٨-٩٩)
(temi tou alos, adaeratio, temi elaeio, temi oinou , temi alos)
توحي بان هذه الضريبة كانت متعددة المعاني حسب الاقاليم والفترة الزمنية ، وانها تطورت في كل من مصر وآسية الغربية من ضريبة على الرأس الى ضريبة على الجماعات، الى ضريبة على اماكن استخراج الملح ، الى ضريبة تفرض على الافراد عند شرائهم كمية منه ، الى آخر ما هناك من اقتراحات بهذا الصدد(١٠٠) .

وفي مصادرنا وثيقتان تثبتان خضوع هيئة الاحبار اليهود لدفع الجزية ، وتثبت احدى هاتين الوثيقتين ان هيكل بيت المقدس مثلا كان يدفع سنويا ما يزيد عن خمسة عشر الف شاقلا من الفضة في الفترة التي سبقت حكم دمتريوس الاول ، وقد اعفى هذا الملك خلال ولايته الهيكل من دفع الجزية بدعوى ان هذه القيمة من حق الكهنة الذين يقومون بالشعائر الدينية(١٠١) . وتنسب الوثيقة الاخرى الى لوسياس وهو احد قادة دمتريوس الرابع نيته في تثبيت فرض الضرائب على الهيكل ، وكذلك في بيع منصب الكاهن الاعظم سنويا في حال انتصاره على المكابين(١٠٢) نحو سنة ١٦٥ .

ويبدو في ختام هذه الفقرة استحالة قدرة الباحث على تحديد الشكل أو النظام الذي اتبعه السلوقيون لفرض ضرائبهم على الهياكل او المعابد الوثنية بدقة تعادل دقة النظام المتبع في مصر البطلمية من خلال توافر الوثائق ، وان كانت الوثائق السلوقية توحي على قلتها بارتباط هذه الضرائب باملاك المعابد بالدرجة الاولى ، وذلك من خلال معرفتنا بطبيعة الاعفاءات التي كانت تمنح لهذه المراكز الدينية والتي كانت تتركز حول الحصانة من الرسوم العامة التي كانت تفرض على جميع اقاليم الامبراطورية(١٠٣).

ويجدر بالذكر ان بيع المناصب الكهنوتية لم يكن يخالف اعراف العصر ، فقد عرفت بعض مدن آسية الصغرى(١٠٤) حالات كهذه ، وكذلك مصر البطلمية التي مارس ملوكها هذه العادة دون تمييز بين الالهة المصرية كافة(١٠٥) .

وفي اقصى الشرق من الامبراطورية السلوقية ، يؤكد عدد من الالواح الاكادية المعلومات السابقة عن علاقة الكهنة المالية بالدولة مع تركيزها الشديد على الموارد الهائلة للمعابد البابلية ، ورغم تزويدها ايانا بنماذج متعددة لاتفاقيات بيع المناصب الكهنوتية الا انها لا تشير ولا بتلميح بسيط الى الضرائب التي كانت تفرض على بيوت الالهة وخدمها ، كما لا يمكن ان نجد اثرا للمبالغ المفروضة من قبل هيئة الضرائب على المعابد نفسها من خلال استقرائنا لاتفاقيات بيع العبيد او الاراضي الكهنوتية(١٠٦) .

٢ ـ الضرائب الاستهلاكية :

وهي التي كانت الدولة تجبيها على بعض المواد الاستهلاكية واهمها : الجمارك وانتقال الملكية .

آ ـ **الجمارك** : وقد حفظت لنا بعض بنود معاهدة افامية (سنة ١٨٨ والموقعة بعد موقعة ماغينزية بين انطيوخس الثالث وروما) امتيازا خصه سلوقس الثالث بالتجار الرودوسيين الذين اعتزموا ممارسة التجارة في مملكته ، والذي بمقتضاه تمتع هؤلاء التجار بصفة (اتيليس Ateleis) في الامبراطورية(١٠٦) ، أي (معفيين) وبناء على ما افادتنا به بعض الدراسات المعاصرة من ان كلمة Ateleia تحمل في العرف الضريبي معاني تفصيلية متفاوتة بين مدينة واخرى(١٠٧) ، لا يمكن الجزم فيما اذا كان هذا الانعام الملكي يتعلق بالاعفاء من الرسوم على السلع المستوردة والضرائب الجمركية أم غيرها من الضرائب التي تتعلق بعمليات الاستيراد عن طريق المرافىء البحرية(١٠٨) (وهو امر مرجح طالما عرفنا ان تجارة رودوس مع الامبراطورية السلوقية او معظمها على الاقل كانت تدخل او تخرج عن طريق الموانىء البحرية) ام ان الاعفاء يتعلق بكل هذه الامور أو الانشطة مجتمعة وهو امر موضع شك .

ويمكن أن نستخلص من اعفاء يتعلق برسوم الاخشاب اللازمة لبناء هيكل بيت المقدس والمستوردة من داخل فلسطين أو من لبنان(١٠٩) ، خص به انطيوخس الثالث مدينة بيت المقدس ، امرين ، احدهما ان كل منطقة في الامبراطورية كانت تعتبر منطقة جمركية مستقلة يجبي في رحابها رجال الملك رسوما على البضائع المستوردة والمصدرة ، وثانيهما ، ان رسم الباب الذي كان يفرض على الخشب المقطوع من مناطق اليهود كان يعني باب بيت المقدس خلال الفترات الاخمينية والهلنستية وحتى البارثية(١١٠) . اذ توحي اشارات عدد من مصادرنا بان المقدونيين منذ الاسكندر كانوا يفرضون ضرائب مماثلة على البضائع الداخلة الى مدينة بابل بما يوازي العشر من قيمتها(١١١) ، كما يشير تعبير (ايساجوجس Eisagoges) المقروء في عدد من الصكوك التي عثر عليها في سلوقية دجلة الى الضريبة المفروضة على البضائع المستوردة الى المدينة(١١٢) .

وتتيح لنا المعلومات السابقة فرصة تفسير بعض ما ورد في المصنفات اليهودية عن الامتيازات التي منحها بعض الملوك المتأخرين لليهود ، مع ملاحظة التفاوت والابهام في المعنى الناجم عن ترجمتها في الاساس من اليونانية الى العبرية وبعد ذلك من العبرية الى اليونانية وهو الشكل الذي وردتنا فيه العبارات . وابرز هذه المعلومات وردت في مرسوم دمتريوس الاول والقاضي بتحرير بيت المقدس وتخومها من « العشور وجميع الضرائب في حدود المدينة »(١١٣).. وما ورد في مرسوم دمتريوس الثاني باعفاء اليهود من « جميع العشور والضرائب»(١١٤) . ويرجح في هذا المقام ان عبارة (عشر) لا تعني بالضرورة ما يوازي العشر بالمائة من قيمة البضاعة نقدا ، بل كمية تقديرية لقيمة السلع الاجمالية . أما بالنسبة للحقوق الاضافية فتدخل على الغالب في باب (ضريبة الحاجز) التي كانت تفرض على التجارة او العبور اضافة الى الرسوم العامة ،كالرسم على الجمال والمواكبة في الصحراء وغيرها . وهي التي تشابه الرسوم التي جباها البطالمة من التجار على تنقلاتهم داخل ممتلكاتهم .

وتذكر مصادرنا من المنطقة رسمين مشابهين آخرين وهما (رسم الباب) Limenos الذي عرفته سلوقية دجلة(١١٥)،و (رسم الفرات) Ploion Euphratou الذي كان يجبى على السفر ونقل السلع بواسطة نهر الفرات(١١٦) . ويشير بند من بنود الاعفاء السابق الذي اصدره دمتريوس الاول الى رسم آخر كان يجبى غالبا على السلع التجارية عند تخطيها حواجز الجمارك ، اذ يشير النص الى حقوق المرور ،وفيه يعفي الملك السكان اليهود الذين غادروا مناطق سكناهم في فلسطين اثناء الحروب المكابية من هذه الضرائب وبخاصة التي تتعلق منها بالمواشي والمواصلات .

ب ـ ضرائب انتقال الملكية : وتشكل هذه الضرائب مجموعة اخرى من الضرائب التي خصها بالذكر امتياز العفو الذي منحته الدولة السلوقية الى معبد (بايتوكايكي) Baitokaike (١١٧) عن المعاملات التجارية في الاسواق والتي كانت تعقد مرتين شهريا في قرية المعبد نفسه . وتذكر وثائق عثر عليها في بابل ضريبتين واحدة تدعى (ايبونيون) Eponion يبدو انها كانت ضريبة عامة تجبى على كل معاملات البيع والشراء ،والثانية وتدعى (اندرابوديكون) Andrapodikon وتجبى على تجارة الرقيق كما في مصر البطلمية(١١٨) .

ويذكر الاستاذ روستوفتزف اعتمادا على عدد من وثائق العصر عثر عليها في عدد من مراكز الامبراطورية مثل سلوقية دجلة ودورا يوروبوس وسوسة واوروك ، انه بالرغم من تعميمات الادارة المالية على ضرورة قيام الافراد بتسجيل المعاملات الشخصية وبخاصة البيع والشراء ـ ويبدو ذلك نتيجة احجام الافراد عن تسجيل تلك البيوع ـ

فان الضرائب التي فرضت على معاملات تسجيل البيوع على قلتها شكلت مصدرا لا بأس به من مصادر الايرادات العامة(١١٩) .

٣ ـ الضرائب البلدية :

وتعتبر معلوماتنا عن هذه الضرائب متواضعة جدا قياسا على ضرائب الملكيات والرساميل والدخول كضرائب الوراثة والمواشي وغيرها التي يسرتها وثائق تاريخ مصر في عصر البطالمة(١٢٠) ، وباستثناء ما يذكره كتاب الاقتصاديات المنسوب الى ارسطو(؟) والذي يحصر معلوماتنا عن الضرائب البلديةفي ضريبتين ، نكاد لا نجد اثرا يذكر لضرائب اخرى . وهاتان الضريبتان هما (ضريبة المهنة) و (ضريبة المواشي) اللتان يعتبرهما الكتاب نفسه من أهم مصادر الدخل في الامبراطورية السلوقية(١٢١) . ويمكن تبرير هذه الحالة في ان منظري السياسة المالية السلوقية دأبوا باستمرار على التدخل لوضع حد لاستمرار المدراء الماليين الاقليميين في فرض الضرائب . مع الاخذ بعين الاعتبار ان معظم بلديات الامبراطورية كانت تتمتع بقسط وافر من الاستقلال الذاتي الذي كان يتضمن بالتأكيد استقلالا ماليا .

ويصنف كتاب الاقتصاديات نفسه واردات مدن آسية الغربية التابعة لخلفاء الاسكندر (الذياذوخي) في بندين رئيسين ، اولهما : واردات الاملاك العامة ، وثانيهما: الضرائب غير المباشرة(١٢٢) . وتؤكد الوثائق المكتشفة في سلوقية دجلة كثرة واستمرار ضرائبها غير المباشرة في الفترة السلوقية والتي كانت ابرزها ضرائب (وهاد الملح) (المتاجرة بالعبيد) (تسجيل العقود) و (المرفأ) . ويبدو ان تطبيقهذه الطريقة فيفرض الضرائب غير المباشرة في المدن الاسيوية الداخلية ونجاحها دفع الادارة المالية السلوقية الى اعتمادها في المدن الاغريقية الاسيوية الغربية ، اذ كان سكان هذه المدن لا ينفرون من دفع الضرائب المباشرة والتي اقتصرت الادارة المالية في فرضها على الظروف الاضطرارية لتغطية متطلبات الحكومة حتى ان بعض مصادرنا تذكر ان هذه الادارة استولت في تلك الظروف حتى على ثيران الزراعة(١٢٣) .

وتبين نقوش من مدينة بريني انها تعرضت في الفترة الهلنستية لدفع ضرائبعلى مواشيها وعبيدها داخل المدينة وفي ريفها(١٢٤) على حد سواء دون تفريق . وانالضرائب على الملكية اصبحت مع الزمن ضرائب اعتاد السكان على دفعها. كما تؤكد نقوش مدينة (مولاسا) التي سبقت الاشارة اليها(١٢٥) والتي حدد بعضها الشروط المطلوب توافرها في الارض العامة المعروضة للايجار ، ان من اهم واجبات المزارع ليس دفع الضرائب المترتبة على مزرعته فحسب ، بل دفع جميع الضرائب على الملكية ايضا ، وبخاصة الضرائب غير الاعتيادية التي كان الصندوق او مجلس المدينةيفرضانها في بعضالاوقات.

٤ ـ ضرائب عائدات الارض :

وهنا ايضا لا تساعدنا حالة وثائقنا على التمييز بين الضريبة الملكيــة على الارض وضرائب الدخول الزراعية السنوية ، ومع ذلــك يمكن ان نستخرج مــن واقع هــذه الوثائق بعضا من المعلومات ، اهمها وجود عدد من الضرائب التي كانت الهيئات الضريبية تفرضها على الارض ومنتجاتها ، وبشكل خاص في المدن التابعة للادارة المالية السلوقية في آســية الصغرى . اذ يثبت نقش مولاسا السابق هذا الاستخراج، كما تؤكده رسالة بعث بها انطيوخس الثالث الى مدينة (ترالس) **Tralles** ورد فيها **ذكــر لواحد مــن** العشور(١٢٦) (وهي ضريبة معروفة) ، وكذلك الامتياز الذي خص فيه الملك سلوقس الثاني مدينة ازمير بتحريرها مع ريفها من جميــع الضرائب(١٢٧) . وباســتثناء هــذه المعلومات يتعذر معرفة نوعية هذه الضرائب وكميتها تفصيلا او القواعد التي اتبعت في جبايتهــا .

ورغم ذلك ، يمكن تخيل أهمية هذه الضرائب عند مقارنتها بمعلومات متوافرة عن واردات الامبراطورية من استغلال الارض الملكية على صعيد الكــم . وهناك نصــــان يساعدانا على هذا التخيل . اذ يذكر بولوبيوس ان سلوقــس الثالث قــدم الى اهالي رودوس ، بمناسبة الزلزال الشهير الذي تعرضت له جزيرتهم ، عشــر سفن كاملــة ومائتي الف مكيال من القمح وكميات من الخشب والصمغ والزبيب(١٢٨) . كما قــدم دمتريوس الاول الى الرودوسيين انفسهم ــ رغم فقدانه آسية الصغرى ــ مائتي الف مكيال من القمح ومائة الف مكيال من الشعير(١٢٩) .

ويمكن في هذا الباب أن نضيف الى ضرائب عائدات الارض الضرائب التي يتوقــع تحصيلها من استثمار المناجم والحدائق . ويبين لنا كتاب الاقتصــاد المنســوب الى ارسطو(١٣٠) الضرائب التي كانت تجبى في آسية في الفترة ما قبل السلوقية،ومن المرجح بناء على هذه المعلومات ان مناجم الذهب في منطقة (سيبولي) **Sipyle** و(تمولي) **Tmole** في اسية الصغرى قد استمرتا على حالهما ، وكانتــا ، او كان انتاجهما ضمــن حيازة الصندوق الملكي . كما يحتمل ان حدائق اريحا (في غور الاردن) والتي كانــت تنتــج البلسم قد ضمت في وقت ما الى الاملاك الملكية(١٣١) ، وذلك قياسا على المعلومات التي تثبتها بعض المصادر عن غابات لبنان التي اعتبرت جزءا من الاملاك الملكية وكان لها وضع جمركي خاص(١٣٢) .

ثالثا ــ الواردات الاستثنائية :

ولا شك ان واردات الدولة لم تنحصر في الواردات النظامية او الشرعية بل كان في

جعبة الملك وسائل متعددة للحصول على السيولة المالية عند الحاجة . وتأتي في مقدمة هذه الوسائل :

١ ـ غنائم الحرب :

ومن ابرز الامثلة على ممارسة الملوك السوريين هذه الوسيلة عندماسطا انطيوخس الثالث على ثروة الملك الهندي (سوفاجاسينوس Sophagasenos(١٢٣) . وكذلك عندما ابتاع الجرهائيون العرب من الملك نفسه حريتهم بدفع خمسمائة وزنة من الفضة والف وزنة من البخور ومائتي وزنة من العطور المتنوعة(١٢٤) . كما يذكر المؤرخان ابيانوس وديودوروس حادثة تدخل في باب الواردات الاستثنائية وذلك حينما حصل دمتريوس الاول من الامير الكبادوكي (اوروفرني) Oropherne على مبلغ كبير من المال مقابل مساعدته على العودة الى عرش كبادوكية(١٢٥) . وايضا ما يذكره بولوبيوس من قيام اخايوس (ابن عم الملك انطيوخس الثالث ونائبه في آسية الصغرى) بفرض غرامة تقدر بسبعمائة وزنة على مدينة (سلجي) Selge (١٢٦) دون سبب يذكر .

وفي مقابل ذلك كانت المدن التي تتعرض لازمات مالية تعوض سيولتها المالية ببيع سجنائها . ويذكر سفر المكابيين ان نيكاتور (احد قادة انطيوخس الرابع) وكان يقاسي في سبيل تأمين دفع الجزية لروما ، قام بخفض سعر السجناء اليهود الى تسعين يهوديا للوزنة الواحدة (١٢٧).

ولا شك ان أكبر غنيمة حربية حققها ملوك سورية خلال تاريخهم . كانت غنائم انطيوخس الرابع خلال حملتيه على مصر (١٦٩) (١٦٨) ، اذ تتبارى المصنفات اليهودية في تضخيم كميتها(١٢٨) كما يضيف بولوبيوس بان جنود الملك قاموا بنهب كل المؤسسات العامة بما فيها معظم المعابد المصرية(١٢٩) ، في الوقت الذي تحدد فيه احدى برديات (تبتونس) ان رجال الملك نهبوا عددا من المعابد اشهرها معبد (ارسينويت) Arsinoite (١٤٠).

٢ ـ المصادرات والغرامات :

وهو المصدر الذي يصعب تقديره وكان يتفاوت تبعا لحالة الدولة الاقتصادية والامنية الداخلية وشخصية العاهل المتربع على العرش . وتذكر المصادر مجموعة من حوادث المصادرات والغرامات التي فرضت على المدن والطوائف وحتى بعض الاثرياء ، لعل اشهرها حادثة فرض انطيوخس الثالث غرامة كبرى على مدينة سلوقية دجلة اثر محاولتها الفاشلة للتمرد والانسلاخ عن الامبراطورية(١٤١) وكذلك حادثة

تذكرها المصادر اليهودية ويؤكدها ديودوروس عندما قامت ادارة الصندوق الملكي بمصادرة املاك عدد من اليهود الذين ادينوا بالتآمر على امن الدولة (١٤٢) .

٣ ـ واردات استثنائية اخرى :

وبمقتضى الاعراف الاغريقية كانت الدولة تتصرف في املاك المعابد في الحالات الملحة . ويبدو ان اوائل الملوك السوريين لم يستشعروا الحاجة الى الاقتراض من المعابد او الاعتداء على ممتلكاتها حتى الى ما بعد الحرب التي فرضتها روما على انطيوخس الثالث والتي ادت نتائجها بموجب معاهدة افامية الى تردي الوضع الاقتصادي للدولة بشكل كبير ، مما اضطر الملك الى القيام سنة ١٨٧ بمحاولة للاستيلاء على كنوز معبد (بل Bel) في عيلام اودت بحياته(١٤٣) . كما تذكر المصادر اليهودية قيام ابنه سلوقس الرابع بمصادرة كنوز هيكل بيت المقدس ، وكانت تقدر حسب المصادر نفسها بأربعمائة وزنة من الفضة ومائتي وزنة من الذهب(١٤٤) . وفي عهد خليفته انطيوخس الرابع الزمت الحكومة الهيكل نفسه بدفع غرامة تعسفية وسلبت منه ما قيمته الف وثمانمائة وزنة(١٤٥) . وفي الفترة نفسها نهب الملك نفسه مجموع موجودات معبد هيرابوليس (منبج) (١٤٦) . وتعرض انطيوخس نفسه ـ حسب المصادر القديمة ـ لعدد من ضربات الربة ارتميس العيلامية(١٤٧) بعد محاولته الفاشلة للاستيلاء على ثروات معابدها .

وكما اسلفنا كان ملوك سورية بعد معاهدة افامية لا يدخرون وسيلة في سبيل تأمين دفع الجزية الى الرومان(١٤٨) ، ولذلك لم يسعوا فقط الى نهب كنوز المعابد المحلية فحسب ـ والتي كان اخر ما تذكره مصادرنا منها قيام اسكندر زابيناس بمصادرة ممتلكات معبد زيوس الانطاكي(١٤٩) ، وحتى سرقة تمثال الاله بالذات(١٥٠)، بل تعدتها الى الاستدانة من بعض المدن الغنية ومن رجال المملكة الاثرياء . وهذا مايذكره (ليفيوس) من ان انطيوخس الثالث استدان خلال حربه مع روما من عدد من مدن بلاد اليونان ليتمكن من دفع رواتب جيشه هناك(١٥١) ، كما قام أكثر من مرة بالاستدانة من بعض اصدقائه عند الحاجة(١٥٢) .

ولا يغيب عن البال ان معظم ملوك سورية وبخاصة اوائلهم قد ورثوا عن الملوك الاخمينيين وامراء المقاطعات الاسيوية كنوزا هائلة . ويذكر بولوبيوس في هذا الصدد ان كنوز العاصمة الفارسية اكباتانا والتي استولى عليها الاسكندر وانتيغونس وسلوقس ، قد وفرت لانطيوخس الثالث من الذهب والفضة ما مكنه من سك نقود بقيمة أربعة آلاف وزنة(١٥٣) .

ويعتبر بيع الاراضي الملكية آخر الوسائل التي كان الملك السوري في العصر

الهلنستي يتصرف بها للحصول على واردات اضافية . ويبين نقش معاصر ان انطيوخس الاول باع الى احدى مدن اسية الصغرى وتدعى (بيتاني) Pitane ارضا بمبلغ ثلاثمائة وخمسين وزنة (١٥٤) . كما تؤكد احدى الرسائل الملكية ان انطيوخس الثاني باع مطلقته المدعوة لاوديكيا ارضا بقيمة ثلاثين وزنة(١٥٥) .

رابعا ـ نفقات الدولة :

وكمعظم المظاهر الحضارية الاخرى لا تذكر المصادر الا بصورة عرضية نفقات الدولة ، حتى ان البنود الهامة في هذه النفقات والمخصصة مثلا للقوات المسلحة او البلاط الملكي ما تزال مجهولة لدينا في تفاصيلها ، مثلها في ذلك مثل النفقات التي كان ينفقها الملوك في سبيل انشاء المستوطنات(١٥٦) .

وترجح اشارات بعض المصادر اليهودية ان نفقات عمليات الاستيطان كانت تتم على حساب الواردات العامة(١٥٧) . وتذكر مصادر يهودية اخرى معلومات حول وعد قدمه دمتريوس الاول الى اليهود لاعادة تشييد اسوار بيت المقدس(١٥٨) . واذا ما عرفنا ان عددا من مدن آسية الصغرى كانت تحظى بمساعدات دورية لسد نفقات الهيئات الادارية في هذه المدن(١٥٩) ، وان انطيوخس الثالث قدم مرة الى هيكل بيت المقدس منحة مالية ضخمة لشراء الذبائح(١٦٠) ، فان لنا ان نتصور المبالغ التي كان ينفقها الملوك السوريون لانشاء وصيانة القلاع والقليعات ومساعدة المعابد التي ترامت في تخوم الامبراطورية المتعددة كجانب واحد من جوانب الانفاقات التي لا تعتبر اساسية جدا.

ويمكن القول في هذا المجال ، ونظرا الى ان معظم المعلومات المتوافرة تقتصر على نفقات انفقت لاسباب عرضية ، فاننا بناء على غموض ابواب وبنود الميزانيات الاعتيادية ، سنكون ملزمين بجمع وعرض المعلومات التي تتعلق بالنفقات غير الاعتيادية على اقل تقدير ، والتي تندرج تحت اربعة بنود رئيسة .

١ ـ هبات المدن والمعابد :

رغم العداء الشديد الذي كان اليهود يكنونه لملوك سورية في العصر الهلنستي الا انهم لم يستطيعوا في مصنفاتهم التي تعتبر مصادر اساسية في بحثنا هذا ان يطمسوا مآثر هؤلاء الملوك في مجال انشاء المعابد او ترميمها(١٦١) ، وذلك دون تمييز بين معابد الالهة المحلية(١٦٢) أو الاغريقية(١٦٣) . ام في مجال انشاء المدن او تجديد المدن القديمة.

وفي مجال انشاء المدن الجديدة وتجديد القديمة ، لم يتفوق ملوك في التاريخ على ملوك سورية في هذه الظاهرة لدرجة ان كثير من المؤرخين المعاصرين ينكرون أي دور حضاري لهؤلاء داخل سورية ام خارجها (١٦٤) يضاهي هذا الدور .

وتزدحم المصادر بعدد من الامثلة التي يصعب حصرها في هذا المجال ، منها ادخال انطيوخس الثالث عددا من التحسينات على عاصمته انطاكية بعد عودته من حملته الشرقية المظفرة . ومنها قيام كل من سلوقس الاول والثاني وانطيوخس الرابع بتوسيع حدود المدينة واضافة احياء جديدة اليها . ومنها تشييد الامير انطيوخس الاول وقبل ان يعتلي العرش بابا للسوق في مدينة ملطية(١٦٥) بآسية الصغرى.

وباختصار شديد لم يتقاعس أي ملك قوي من اسرة سلوقس عن القيام بعمل انشائي او ترميمي لعدد من المدن في مملكته ، مع اجماع المؤرخين على تفوق كل من سلوقس الاول وانطيوخس الرابع في هذا المجال . ورغم ان المؤرخين الرومان لم يكونوا معجبين على الدوام بانطيوخس الرابع الا انهم كانوا يقرون بأن هذا الملك يتمتع باخلاق ملكية اصيلة في حقلين اثنين اولهما ، الهبات التي كان يمنحها للمعابد ، وثانيهما تعبده للآلهة(١٦٦) . ويذكر الاستاذ (بفان) Bevan لائحة طويلة من الهبات التي تثبت صدق هؤلاء المؤرخين في ما ذكروه عن كرم وسخاء هذا الملك(١٦٧) .

وفي مجال هبات المعابد ، لدينا اعتمادا على رسالة ملكية ، بيان مفصل عن هدية قدمها سلوقس الاول سنة ٢٨٨/٧ الى معبد (ديدومي) Didyme (١٦٨) في آسية الصغرى . وهي عبارة عن « ثلاثة الاف ومائتين وثمانواربعين دراخمة ، وثلاثين اوبولا من الذهب وتسعة آلاف وثلاثمائة وثمانين دراخمة من الفضة وسبع عشرة وزنة من العطور والف رأس من الماشية واثني عشر ثورا » . ويبدو ان هذه الهدية اصبحت عادة عند ملوك سورية حتى في الفترات المريرة التي مرت بها مملكتهم . اذ تذكر المصادر ان انطيوخس العاشر ، وكان « ملكا تافها » على حد وصف المصادر له ، يقدم هدية الى المعبد نفسه(١٦٩) بعد نحو مائتي سنة . فاذا اضفنا الى ما سبق ما نتوقعه من هبات الاوقاف التي كان يمنحها هؤلاء الملوك الى معابد الالهة في سورية وما بين النهرين(١٧٠)، فان لنا ان نتصور انها كانت نفقات لا يستهان بها تقع على عاتق الدولة في ايامها الرخية او العجاف .

٢ ـ الهدايا العامة :

وتمشيا مع السمات العامة لمعظم الانظمة الملكية في التاريخ كانت الهدايا تشكل جزءا كبيرا من نفقات البلاط السوري في العصر الهلنستي ، وتزخر مصادرنا بالامثلة عن التزام ملوك سورية بهذه المكرمة ، فيذكر نقش من عهد انطيوخس الثاني انحاشيته حثته عند سقوط مدينة ساموس على توزيع اراضي المدينة عليها(١٧١) . كما تذكر رسالة ملكية ان احد المقربين من انطيوخس ويدعى (اريستوديسيدس) حصل على

ثلاث هدايا في فترة زمنية قصيرة كناية عن مساحات زراعية من ارض الملك(١٧٢).
وكعادة الملوك الذين يقدمون في مناسبات الاحتفالات والاعياد هدايا فردية(١٧٣) الى اخلص اتباعهم ، فقد وزع انطيوخس الثامن ، وكان ملكا فقيرا ، اكاليل ذهبية واحصنة وجمالا وعبيدا على مدعويه في احتفالات دفنه تقليدا لجده انطيوخس الرابع الذي كان بدوره قد وزع سنة ١٦٩ قطعة نقدية ذهبية ؟ لكل ساكن في مدينة نقراطيس في مصر، كما كان قد ارسل ما قيمته مائةوزنة من الهدايا الى مدن بلاد اليونان(١٧٤) بمناسبة نجاحه في غزو مصر البطلمية .

وعلى مستوى الهدايا الفخرية الشخصية ، تذكر المصادر عددا من الحوادث التي منها قيام الملك اسكندر بالاس بتقديم اكليل من الذهب مع براءة بحمله(١٧٥) الى صديقه (ديوجنس) Diogenes بصفته كاهنا للفضيلة . ومنها حادثة اصدار سلوقس الرابع توجيها الى مدينة سلوقية بيرية بوجوب اقامة تمثال من الذهب في احدى ساحات المدينة تكريما لاحد خلانه(١٧٦) . وايضا عندما بعث انطيوخس السادس بهدية ضخمة من الذهب الى يوناثان (الكاهن الاكبر في بيت المقدس) باعتباره احد اصدقائه(١٧٧).

٣ ـ الاعانات السياسية :

وباعتبارها واحدة من ثلاث قوى عظمى في المنطقة الى جانب مصر وروما ، كان لابد لسورية من اعتماد اسلوب في السياسة يضاهي ان لم يفق في تأثيره القوة العسكرية مع انه لم ينقص عنها كثيرا في تكاليفه ، الا وهو اسلوب الاعانات السياسية ، ورغم ان معظم ملوك سورية ــ او كلهم ــ في تلك الفترة قد اعتمدوا هذا الاسلوب الا ان الكيفية والنوعية وحتى الكمية قد اختلفت بين فترة واخرى ، وتعاظمت اهمية هذا الاسلوب بدءا من عصر انطيوخس الثالث الذي كان عليه ــ كما تذكر المصادر الرومانية ــ ان يدعم قبل حربه مع روما وبعده ، تحالفه مع البيزنطيين(١٧٨) والايتوليين(١٧٩) ، في الوقت الذي كان عليه توزيع المال على السياسيين في المدن الاغريقية(١٨٠) ، وكذلك البر بوعده لملك مقدونية فيليب الخامس بتقديم معونة قدرتها المصادر بثلاثة الاف وزنة(١٨١).
ويحلو لبعض المؤرخين المعاصرين ان يدخلوا الرشاوى التي تقدم لكبار القادة والولاة ضمن بند المعونات السياسية . وعلى هذا يعتبر مبلغ الخمسمائة وزنة الذي قدمه دمتريوس الاول الى حاكم قبرص مقابل تسليم الجزيرة(١٨٢) معونة سياسية .

ويدخل في هذا الباب تلك الهدايا التي كان ملوك سورية يرسلونها في فترات ضعفهم الى اعضاء بارزين في مجلس الشيوخ الروماني للضغط على قرارات ذلك المجلس ، او التأثير عليها ، ويذكر عدد من المؤرخين الرومان حوادث تشهد بذلك ، منها قيام

انطيوخس الرابع سنة ١٧٣ باهداء احدهم اناء ذهبيا يزن خمسين دراخمة ذهبية(١٨٣)، وارسال دمتريوس الاول الى عضو بارز اخر اكليلا قيمته عشرة الاف ستاتير(١٨٤) ، وتقديم تروفون الى عضو ثالث تمثالا ذهبيا لالهة النصر بالقيمة نفسها(١٨٥) . واخيرا عرض انطيوخس السابع عددا من الهدايا على القائد الروماني سكيبيو امليانوس عندما قابله في اسبانيه(١٨٦).

وقد استغل ملوك سورية في العصر الهلنستي غابات لبنان لتنفيذ بعض اغراضهم السياسية ، وقدموا في بعض الاحيان هداياهم من السفن التي اشتهرت بجودتها في تلك الايام . وعلى هذا قدم سلوقس الثالث عشر سفنا الى جزيرة رودوس(١٨٧) ، كما تسلم الاخيون(١٨٨) عشر سفن هدية من حليفهم سلوقس الرابع . ووضع انطيوخس الرابع معظم اسطوله تحت تصرف رودوس(١٨٩) بعد تعرضها لكارثة طبيعية .

٤ ـ الجزية :

وبدءا من عهد انطيوخس الاول اضطر ملوك سورية الى دفع جزية سنوية الى القبائل الغالية(١٩٠). واستمر الحال على هذا النحو الى عهد انطيوخس الثالث ، الذي اعاد للامبراطورية هيبتها واتساعها وامتنع عن دفع الجزية الى الغال ، الا انه اضطر بنتيجة صراعه الخاسر مع روما الى ان يدفع لها بموجب بنود معاهدة افاميه (سنة ١٨٩) جزية هائلة بلغت في تفاصيلها (٥٠٠) وزنة دفعت فورا وقبل التوقيع على المعاهدة و (٢٥٠٠) وزنة بعد التوقيع و (١٢٠٠٠) وزنة تدفع سنويا(١٩١). ويذكر المؤرخ ليفيوس انه عندما اضطر انطيوخس سنة ١٧٣ لتأخير دفع الالتزامات ، اعتذر بنفسه امام مجلس الشيوخ(١٩٢) . وتذكر مصادر يهودية ورومانية انه حتى سنة ١٦١ كان رصيد الجزية المفروضة يناهز (٢٠٠٠) وزنة(١٩٣) ، وكان يحق لحليف روما الملك البرغامي اتالوس تحصيل (٤٠٠) وزنة منها(١٩٤) .

٥ ـ نفقات الحروب :

على ان اكبر النفقات دون شك ، كانت نفقات الحروب المباشرة ، وقد قدر المؤرخ المعاصر (كافانياك Cavaignac) نفقات حرب انطيوخس الثالث ضد روما في سنة واحدة هي سنة ١٩١ فناهزت ثمانية الاف وزنة(١٩٥) . وكان تحقيق النصر هو المجال الوحيد لتعويض هذه النفقات الباهظة . وكانت الغنائم التي كان الظافر يسطو عليها تدفع بالمهزوم الى درك من الفقر المدقع لا ينقذه منه الا تراكم السنين او تحقيق نصر . وقد حدد مصدر قديم كمية الغنائم التي حصل عليها بطلميوس الثالث في حرب لاوديكيا

بقيمة اثنين واربعين الفا وخمسمائة وزنة(١٩٦) . أي ما يعادل ثلاثة اضعاف ما فرضه الرومان على انطيوخس الثالث . ويبرر الفارق هنا بغنى سورية في عهد انطيوخس الثاني الذي لم يخض حروبا مستمرة كالتي خاضها خليفته الثالث.

ورغم ذلك تتفق المصادر الرومانية وبخاصة ليفيوس في تفصيلها الغنائم التي غنمها سكيبيو الاسيوي (قاهر انطيوخس الثالث) وعرضها في موكب نصره في روما، والتي تضمنت (١٢٣١) نابا لافيال هندية و (٢٣٤) اكليلا من الذهب و (١٤٠ر٠٠٠) قطعة ذهبية و (٢١٤ر٠٠٠) دراخمة رباعية و (٣٢١٠٧٠) آنية من الفضة و (١٠٠٢٣) دراخمة ذهبية صيغت بشكل آنية و (١٣٧٠٢٤) دراخمة من الفضة على شكل سبائك. اضافة الى (٤٩) اكليلا من الذهب و (٣٤٢٠٠) دراخمة رباعية و (١٣٢٣٠٠) حاوية فضية(١٩٧) حصل عليها احد قادة الحملة .

ولما كانت اوضاع الحرب تؤثر جذريا على ميزانية المملكة فترفعها في ايام النصر لدرجة تجعل الملوك يتهافتون على تخليد انفسهم باعمال انشائية مكلفة جدا ، فقد كانت الدولة تبدو في معظم الاحيان في نظر الاغريق والرومان بمظهر الغنى لدرجة دفعت المؤرخ الروماني بلوتارخوس(١٩٨) الى التعبير عن هذه الفكرة في اذهان العناصر الاغريقية الرومانية بقوله « ان موظفي وحكام الولايات السلوقية اكثر غنى من ملوك اسبرطة ». وكان هذا الشعور الذي لازم الاغريقي العادي(١٩٩) بخاصة يدفعه الى ترديد مقولة مفادها « ان ممالك آسية غاصة دائما بالذهب » . ولكن سوء حظ المملكة السورية المترامية الاطراف كانت في افتقارها أحيانا للجنود الاكفاء الذين يحمون هذه الثروات، اذ يذكر احد المصادر الرومانية انه عندما استعرض القائد القرطاجي هانيبال جنود انطيوخس الثالث الذين تسلحوا باسلحة مذهبة قال «اعتقد انذلك يكفي لاثارة الرومان المعروفين بطمعهم الفائق »(٢٠٠) .

قائمة الاختصارات المتمدة

— A.J.A., American Journal of Archceology (N.Y) .

— B.C.H., Bulletin de Correspondance Hellenique (Paris) .

— Bikerman . Ins Sél, E.Bikerman, Institutions des Séleucides (Paris 1938) .

— C.A.H., Cambridge Ancient History (Cambridge) .

— F.H.G, Die Fragmenta der Griechisechen Historiker, ed by F. Jaooby (Leiden 1950) .

— J.A.O.S, Journal of American Oriental Society (N.Y) .

— J.H.S. Journal of Hellenic Studies (London).

— Michel . Recueil , ch. Michel, Recueil, d'iscriptiones Grecques (Paris 1900) .

— O.G.I.S, Orientis Graeci Inscriptiones Selectae (Leipzig 1903 - 5).

— S.E.G, Supplementum Epigraphicum Graecum (Leiden 1923).

— S.I.G., Sylloge Inscriptionum Graecarum , ed by W.Dittenberger (1919 - 24) .

— R.E.G, Revue des Études Grecques (Paris) .

— Welles. R.C, B.welles , Royal Correspondence of the Hellenistic wolrd (Paris 1934).

— Y.C.S, Yale Classical Studies (New Haven) .

الحواشي :

(١) جميع التواريخ الواردة في هذا البحث سابقة للميلاد ما لم ينوه صراحة بغير ذلك .

(2) Polybios, X, 27, 13; Macc., I, 13.15; II, 3,13; Diodoros, XXXIII, 4,4; welles ., R.C, 18, 13; 41, 8; O.G.I.S, 229, 106; Cf. Holleaux, B.C.H., (1924) P. 38.

(3) Cf. Rostovtzeff, Anatolian Studies (1923)P. 307(N.2); Macc,I, 3,38.

(٤) المنطقة الشمالية الغربية من سورية شمالي خليج اسكندرون .

(5) Welles, R.C, 18, 20; Cf. W.Tarn, Class., Rev., (1935) P. 24.

(6) Pliny., N.H., VI, 119; Cf. R.Dussaud, Top. Hist., P. 460.

(٧) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالة ، الطبعة الرابعة (القاهرة ـ ١٩٧٦) ج٤، ص ١٥٩.

(8) Posidon. 87 fr 109; Jos., Ant., XIII, 246; Cf.Bikerman, Ins, Sel, P.109 (N.7) .

(9) Diod., XIX, 55,3.

(10) Mc Dowell, Objects from Seleucia, P. 162.

(11) App., Syr. 45 .

(12) Olmstead, J.A.O.S, LVI. P.247.

(13) S.E.G. VII, 5.

(14) Memmon, II, F.H.G, III 533; Cf. Strabon. 499 .

(15) Welles , R.C, 43,3.

(16) S.E.G, I, 366.

(17) Welles, R.C, 20, 56.

(18) M. Rostovtzeff, Y.C.S, III, P. 41.

(19) Cf. Bikerman, Opcit, p. 203.

(20) Jos., Ant., XII, 140 .

(21) Cf. Bikerman, Opcit, p. 113.

(22) Cf. Bikerman, opcit, P. 130.

(23) Macc., II, 3,2,9,16 .

(٢٤) نصحي ، البطالة ، ج٢ ، ص٢٥٢ وما بعدها .

(25) Macc., I,10,40 .

(26) Macc., II,4,30 .
(27) Macc., I,10,39 .
(28) Cf. Bikerman, opcit. P. 148 ff,
(29) Cf. Bikerman, opcit, P. 107.
(30) Opcit, p. 111.
(31) Opcit, p, 112.
(32) Opcit, P. 111.
(33) Opcit, p. 116.
(34) Opcit, P. 111.
(35) Opcit, P. 123.
(36) Opcit, P. 107.
(37) Opcit, p. 179.
(38) ibid.
(39) Opcit, P. 119.
(40) Opcit, P. 116.
(41) Opcit, P. 41.
(42) Macc., I.10,41.
(43) Macc.. I, 11, 28;34 .
(44) Macc., I,13,15.
(45) Macc., I,13,34.
(46) Macc., I,15,5; 30.
(47) Jos., Ant., XIII, 247.

(٤٨) انظر مفيد رائف العابد ، عصر سلوقس الاول ، رسالة جامعية غير مطبوعة (القاهرة ـ ١٩٧٥). ص٣١٢ وما بعدها ، قارن مع : Rostovtzeff. C.A.H, vol VII,P.167.

(49) Cf. Polyb., XXI, 24; XXII, 7.8; XXI,48; XXII,27, 2;Cf. M.Holleaux, R.E.G. (1898) P. 258; R.E.G. (1937) P. 239; Cf. Jos., Ant, XII, 144.

(50) Cf. A.Andreades , A history of Greek Public finance (1933) Vol I, P. 89.

(51) Bikerman, Op cit , P. 106.

(52) Mecc., II, 4, 23.

(53) App. Syr. 2; Cf.M. Holleaux. Rome , la Grece et les monarchies hellenistiques, P. 46.

(54) Polyb., VIII, 23,4.

(55) Bikerman, opcit, P. 106 (N.2);Cf, Macc., I,10,30.

(56) Joseph. Ant. XIII, 246.

(57) App., Bell civ, V,4.

(58) Macc., I, 10. 30; Cf. Jos., Con., Apion, II, 43.

(59) Jos., Ant., XIII, 246.

(60) Macc.,II,4,8;4, 24;Macc.,I, 11,28 Macc., I,13. 65; Diog Laert., II,140.

(61) Pol., VIII, 23,5.

(62) Pol., V, 44, 1; X, 27, 2; Cf. Strabon, 525 .

(63) Bikerman. Opcit, P. 106 (N.2).

(64) O.G.I.S, 228; Fouilles de Delphes, III, 1 (N. 483); **B. C. H,** (1930) P. 351 .

(65) Welles. R.C, 15,1,22.

(66) Macc.. I, 13,41.

(67) Cic., III, Verr., 6; « quasi Victoriae paremium ac poena belli».

(68) Prophyr. 260 fr. 32, 8 Jac.

(69) Diod., XXVIII, 15, 2.

(70) Pol., VIII,23, 5.

(71) Diod., XXXIV, 15.

(72) Sardis, VII, 1, (N. 1); **A.J.A,**(1912) , 12,1, 10.

(73) Macc., II, 4, 23.

(74) Ibid .

(75) Macc., II, 4, 27; Cf. Jos., Ant.,XII, 158, 159.

(76) Welles, R.C, 15; Bikerman, opcit, p. 108 (N. 7), B. Haussoulier, Études sur P. L'Histoire de Milet et du Didymeion (1902) P. 63.

(77) S. E.G, III, 410; Michel, opcit, 503.

(78) Ps. Arist., Oecon., 1345, b, 29;Cf. A.M. Andredes, opcit, I, P. 103, M. Rostovtzef, Kolonats (1910) P. 253.

(79) M. Holleaux, B.C.H, (1924) P.42.

(80) Iasos, Michel, 463; Pergame, Michel, 519, 20; S. E. G; II, 580; Cf. H.Francotte, Les finances des grecques (1909) P. 91 .

(81) Joseph. Ant., XII, 142; Cf. XIII, 50; Macc., I, 10, 30.

(82) P. Tebtunis, III, 701, 186.

(83) Aristotle, Oecon, 1346, a, 4; Cf. Bikerman, Opcit, 111 (N. 4).

(84) C.F. Belleine, Class. Rev, (1906) P. 81; Cf. Bikerman, Opcit, p. 111, (N. 5) .

(85) Welles, Opcit, Index. S.V; Cf.Bikerman, opcit, P. 111 .

(86) Welles, opcit, 22, 11.

(87) Welles, opcit, 15,2.

(88) Diod., XIX, 48; P.Cairo Zenon, I, 59036 , 25.

(89) Pol., XXI, 34, 7; XXII, 17,4.

(90) Pol. XIII, 9,2 .

(91) Macc., II, 14, 4; Cf. Welles, R.C, 22, 11.

(92) Macc., I,13,37.

(93) Macc., I, 10,29.

(94) Jos., Ant., XII, 142.

(95) M. Rostovtzeff. Y.C.S, III (1932) P. 81; R. H.. Mc Dowell, Objects from seleucia (1935) p. 179.

(96) F.Heichelheim, R.E. XVI, 160;C.Preaux,Les Ostraca grecs de Brooklyn (1935) P. 15.

(97) Macc., I, 10, 29; Cf. Bikedman, Opcit, pp. 112 (N.4) , 113.

(98) Bikerman, ibid (N. 6).

(99) Phylarch. 81 fr . 65 Jac; Athen., 73 d; Bikerman, opcit, P. 113(N.7).

(100) Rostovtzeff, opcit, p. 86; Mc Dowell, Opcit, p. 50;Bikerman, opcit,p. 114 (N. 3).

(101) Macc., I, 10, 42; Jos. Ant ., XIII, 55; Cf. XI, 297.

(102) Macc., II, 11,3.

(103) S.I.G, III, 353, 552; Cf. S.E.G,IV, 560; Welles, R.C.9; Cf. 43.

(104) L. Robert, B.C.H, (1933) P. 468 (N. 1).

(105) A. Bouché Leclerq, Histoire des lagides, III, p. 304.

(106) Bikerman, Opcit, p. 115 (N. 4).

(106) Pol., V,89,8; XXI, 45,17.

(107) H. Francotte, Les finances des cités grecques (1909) P. 267.

(108) M. Rostovtzeff, Y.C.S, III, p. 79 .

(109) Jos., Ant., XII, 141.

(110) Ps. Aristotle. Oecon. 1346, &I,1352, b. 26; Cf. J.Johnson, The exc avtions at Dura - Europos, II,P. 157.

(111) Ps. Aristotle. Oecon. 1352, b, 26;Cf.A. Andreades, B.C.H,(1929)p.2.

(112) Rostovtzeff. Opsit, p. 66 (N.12) : Mc Dowell, Stamped and inscribed objects form Seleucia on the Tigris (1935) p. 176; Cf. Strabon, 798.

(113) Macc. I, 10, 31; Jos., Ant., XIII, 51.

(114) Macc., I, 11, 35; Jos., Ant., XVIII, 90;XVII, 205;Cf. Bikerman, Opcit, P. 113 (N. 8).

(115) Mc Dowell, Opcit, p. 173.

(116) Rostovtzeff, Opcit, p. 87.

(117) Welles, R.C, 70,12.

(118) Rostovozeff, Opcit, p. 77; Cf.65; Mc Dowell, Opcit, p. 176.

(119) Rostovtzeff, opcit, p. 64.

(١٢٠) ابراهيم نصحي ، البطالة ، ج٢، ص ٢٥٢–٢٨٧ .

(121) Ps. Aristotle, Oecon. 1346, a, 1; Diod., II, 41; Cf. P. Aegyptus,(1936) 237.

(122) Ps. Arist., Oecon. 1346, a, 5.

(123 B.C.H, (1922) 307; S.E.G, II, 579.

(124) O.G.I.S., 215.

(125) Bikerman, Opcit, P.110, (N.6).

(126) Welles, R.C, 41,8.

(127) O.G.I, S, 228, 7; Cf. Rostovtzeff Kolonat, p. 244.

(128) Pol., V, 89,9; Cf. Holleaux, **R.E.G**, (1923) P.485.

(129) Diod., XXXI, 36: Cf. Pol., XXI17, 6.

(130) Ps. Arist., Oecon. 1345, b, 33,

(131) E. Schürer, Geschichte der Judischen Volkes, I. P. 380.

(132) Jos., Ant., XII, 141; Cf. Livy., XXXVII, 56, 2; Rostovtzeff, Klio, (1911), P. 387.

(133) Pol., XI, 34, 12.

(134) Pol., XIII, 9,5.

(135) App. Syr. 47; Cf. Diod., XXXI, 32.

(136) Pol., V, 76, 10.

(137) Macc., II, 8, 10; Cf. Macc. I, 3,41, 10,33.

(138) Daniel, XI, 29; Macc., I,19.

(139) Pol., XXXI, 4,10.

(140) P. Tebtunis, III, 781.

(141) Pol., V, 54,9.

(142) Diod., XXXIII, 4; Jos., Ant ., XII, 236; Macc., II, 3, 11 .

(143) Cf. M. Holleaux, **R.E.A**, (1916)P. 77.

(144) Macc., II, 3. 11.

(145) Macc., II, 5,21; Macc, I, 1,21.

(146) Gran., Licin., 28; Cf. Bikerman, Opcit, P. 121.

(147) Pol., XXXI, 11.

(148) Justin., XXXII, 2.1; Sulpicius.Severus. II, 19, 6.

(149) Diod., XXXIV, 27.

(150) Arnobius. Advresus. Nationes, VI, 21; Cf. Bikerman, Opcit, P. 122 (N. 2) .

(151) Livy., XXXV, 49, 10.

(152) Cf. Bikerman, Opcit. P. 49.

(153) Pol. X, 27, 3; Cf. E.Babelon, les Rois de Syrie, p.L XXX.

(154) O.G.I.S, 335, 134.

(155) Welles . R.C, 18.

(156) Plin, V, 86, VI, 31.

(157) Jos., Ant., XII, 152.

(158) Macc., I,10, 45.

(159) M.Holleaux, **B.C.H,** (1924) P. 24.

(160) Jos., Ant., XII, 140; Cf. Macc.II, 3,2; 9, 16.

(161) Jos., Ant., XII, 142; Macc., I, 10, 44; Lucian., de dea Syr. 17;19.

(١٦٢) مفيد رائف العابد ، انشاء المدن في اطار السياسة السلوقية لهلينة سورية ، رسالة جامعية غير مطبوعة (القاهرة -١٩٧٢) ص١٥ ومابعدها.

(163) Libanius, Antioch. 121; 125; Cf. K.O.Mueller, Antiquitates Antiochenae (1839) P. 69.

(164) Cf. L. Robert,Études anatoliennes, P. 452.
وايضا ، مفيد رائف العابد ، المرجع السابق ،ص٢٥وما بعدها .

(165) O.G.I.S, 213; Cf. S.E.G, III, 577, 30.

(166) Livy, XLI, 20; Cf. Macc., I,3,30; Pausanias, V, 12,4.

(167) E.Bevan, The house of Seleucus (1902) II, P. 148.

(168) Welles, R.C, 5.

(169) B. Haussoullier, Études sur L'Histoire de Milet (1902) P. 215.

(170) Welles, R.C, 70; Cf. Bikerman,opcit, p. 124 (N.3).

(171) S.E.G, I, 366.

(172) Welles, R.C, 12, I, 20.

(173) Posidon., 87 Fr. 21; Athen., 540; F.H.G, IV, 425.

(174) Pol., XXVIII, 20, 11; 22,11.

(175) Athen., 211 a.

(176) Holleaux, **B.C.H,** (1933) P.7.

(177) Macc., I,11,58.

(178) App., Syr., 6.

(179) Livy, XXXVI, 26, 5.

(180) Livy, XXXVI, 11,8.

(181) Livy, XXXIX, 28,6.

(182) Pol., XXXIII, 5,4.

(183) Livy, XLII, 6, 18.

(184) App., Syr., 47; Pol., XXXII, 6,1.

(185) Diod, XXXIII, 28 a.

(186) Livy, Epit., 57.

(187) Pol., V, 89,8.

(188) Pol., XXII, 12, 13.

(189) Michel, Recueil (1900) 335, 25;S.E.G, III, 644.

(190) Livy., XXXVIII, 10, 3; Welles,P. 81; Cf. Justin, XXVII, 2, 12.

(191) Pol . XXI, 16,5.

(192) Livy, XLII, 6, 18.

(193) Macc., II, 8, 10.

(194) Pol., XXI , 16.

(195) E. Cavaignac, Population et capital dans le monde Mediterraneén antique (1923) P. 113.

(196) Porphyr., 260 fr. 32, P. 1223, 25 Jac.

(197) Livy, XXXVII, 59, 3, 58,5.

(198) Plut., Agis, 7.

(199) Livy, XXXV, 48, 7.

(200) Macrob., II, 2.

مدينة حمص في العهد الروماني

عبد الحميد عز الدين
دمشق ، وزارة التربية

مقدمة :

تاريخ الامبراطورية الرومانية جزء من التاريخ العالمي العام ، وهو بالوقت نفسه تاريخ مقاطعات واقاليم ايضا ، تاريخ الشعوب والمدن التي انضوت تحت لواء ما اسماه الرومان انفسهم بالسلام الروماني «Pax Romana» . ولما كانت المصادر الادبية قليلة ونادرة في هذا المجال من الابحاث والدراسات القديمة ، فان على البحث والدراسة ان يجهدا نفسيهما بجدية أكثر في جمع وتقييم الشواهد التي يمكن الحصول عليها من خلال ملاحظات وهوامش عرضية ، ومن مخلفات ابيغرافية (نقشية) ونقدية (من النقود) واثرية . ان اجراء مثل هذه الدراسات يقدم فرصة طيبة لاختبار الاساليب المختلفة في النقد التاريخي ، خاصة اذا كان موضوع البحث يدور حول انسان الزمن القديم .

وتاريخ المدن هو جزء من تاريخ الاقاليم التي تنتمي اليها . فاذا اردنا ان نبحث في تاريخ اي مدينة من مدن سورية الكبرى فلابد من ذكر الخطوط العريضة للتاريخ السوري العام في اطاره العربي القومي . لقد كانت سورية منذ العصور القديمة محط انظار الفاتحين بسبب موقعها الجغرافي الهام ، فخضعت في الجانب الاكبر من تاريخها الطويل لسيطرة الدول القريبة والبعيدة على السواء ، ومعظم الشعوب التي لعبت دورا فاعلا على مسرح الاحداث العالمي ، كالاكاديين والبابليين والاشوريين والحوريين والحثيين والمصريين والكريتيين والقبارصة والفرس واليونان والرومان والمغول والتتر والاتراك والاوربيين ..، قد وجدت سبيلها الى هذه البقعة من الارض . وكان قد سبق كل هؤلاء الى ارض سورية الجماعات والشعوب العربية القديمة (او السامية) القادمة من شبه الجزيرة العربية ، مثل العموريين والكنعانيين والاراميين والانباط والتدمريين والغساسنة .. والتي كانت خاتمتها الموجة العربية الاسلامية التي اعطت هذه البلاد

دراسات تاريخية ، ٢٩ و ٣٠ ، آذار - حزيران ١٩٨٨

طابعها النهائي . وكان من نتائج هذا الحضور المتعدد الجنسيات على المسرح السوري تمازج حضاري متعدد الاشكال ساهم الكل فيه ، ولكنه بقي في جوهره عربي الاصل وعربي الجذور ، وكانت لهذا الاصل ، في النهاية ، الغلبة والبقاء والاستمرار .

واذا كانت سورية من حيث موقعها بمثابة القلب بالنسبة للعالم العربي فان مدينة حمص هي واسطة العقد بالنسبة للمدن السورية الاخرى ، وقد لعبت بسبب هذا الموقع دورا مهما في الحياة السياسية والاقتصادية للمنطقة . وجذور مدينة حمص – كما أشارت بعض الحفريات الاثرية – تمتد الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، وكان العرب الكنعانيون بناتها الاوائل ، وقد عاصرت إبلا وأوغاريت وكل المدن السورية القديمة .. وما يهمنا في هذه الدراسة هو القاء الضوء على تاريخ مدينة حمص في فترة الحكم الروماني لسورية والسلالات العربية التي حكمت في تلك المدينة ، اذ تتوافر المصادر الادبية والاثرية عنها أكثر من الفترات التاريخية السابقة التي مرت بها . فالمدينة لم تفقد طابعها العربي اثناء حكم السلوقيين ، أتباع الاسكندر المكدوني في سورية ، وقد بدأ دورها من معبد الشمس حيث كان لكهنته اهمية فكرية وسياسية على المنطقة كلها واستطاعت سلالة منهم سميت بأسرة الشمس أن تستقل بحكم المدينة عن سلطة السلوقيين لمدة أكثر من نصف قرن قبل استيلاء روما على سورية. وكانت هذه الاسرة عربية الاصل اتخذ بعض رؤسائها لقب الملك العظيم : « rex magnus » كما يشير الى ذلك النقش الحجري : CIL III 14387a=Dessau , ILS 8958 ، وصكت النقود باسمه . وقد أقر القائد الروماني بومبي «Pompeius» رئيس هذه الاسرة «سمسيغرام: Samsigeramus » في حكمه وعقد صداقة معه واتخذ هذا الاسم العربي لقبا له الى جانب الالقاب التي أطلقها على نفسه في احتفالات النصر في روما . وقد جلب له هذا اللقب سخرية المواطنين الرومان وعلى رأسهم القنصل والكاتب والخطيب الروماني « شيشرون : Cicero (١٠٦ – ٤٣ ق.م) » .

لقد كانت سورية على مدى كل العصور التاريخية – كما يقول ف. كومو F. Cumont في الفصل الخامس من كتابه : الديانات الشرقية في الوثنية الرومانية – موطن التدين والعبادات المتوهجة . وكانت الشمس في المعتقد السوري أقوى الآلهة : فهي تتحكم بمسار الازمنة والاشياء وتقود دورة النجوم ، وهي ، كما يقول «شيشرون» « قائد وملك كل الانوار السماوية الاخرى والعقل المدبر للعالم كله ».

ومن خلال معبد الشمس استطاعت حمص ان تتربع على عرش روما سيدة العالم في ذلك العصر ، وتتحكم في مصير الامبراطورية الرومانية لمدة خمسين عام تقريبا ، كما استطاعت ان تفرض لفترة قصيرة قيادة اله الشمس الحمصي « إيلا جبال » الذي لا يقهر كأعلى واعظم آلهة في مدينة روما : « deus invictus Sol Elagabalus »

موقعها الجغرافي ومركزها التجاري :

تقع Hemesa أو Emesa التي تسمى اليوم بـ « حَمص »(١) أو « حِمَص (٢)» في سهل واسع وخصب مباشرة على نهر العاصي الذي يزود المدينة بمياه الشرب ويسقي حقولها وبساتينها . وبفضل موقعها المركزي المتوسط بين تدمر ونهر الفرات ــ الحد الشرقي للامبراطورية الرومانية ــ شرقا ، والساحل السوري غربا، وبين افاميا وحماة شمالا ودمشق جنوبا ، وقربها من جبل لبنان «mons Libanus» ومن مدينة بعلبك (Heliopolis) في الجنوب الغربي ، استطاعت حمص في عهد الامبراطورية الرومانية أن تتطور بسرعة وتزدهر مما يفسر الى حد ما حقيقة جعلها العاصمة السياسية لمقاطعة لبنان الفينيقية في العصور القديمة المتأخرة في عهد القيصر تيودوسيوس Theodosius (٣٧٩ ــ ٣٩٥)(٢) . وقد كتب المؤرخ السوري ليبانيوس «Libanius»* في احدى رسائله وصفا رائعا للمدينة وللمكانة العلمية والدينية التي وصلت اليها في هذه الفترة ، يقول ليبانيوس :

(إنها عين فينيقيا ومقر الالهة ومهد العلوم والدراسات ، وهي منبع الفضائل والمسرات ، وان المرء ليعجز عن تعداد هذه الفضائل . .)*.

ὁ ὀφθαλμὸς τῆς Φοινίκης καὶ τῶν θεῶν οἰκητήριον καὶ τὸ τῶν λόγων ἐργαστήριον καὶ ἡ πηγὴ τῶν ἀγαθῶν καὶ εὐθυμιῶν, καὶ οὐκ ἂν ἐξαριθμήσαι τις τὸ πλῆθος τῶν ἀγαθῶν ..

(*) مؤرخ سوري ، ولد في مدينة انطاكية ٣١٤-٣٩٣ ، وتعتبر خطبه ورسائله مصدرا رئيسا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في انطاكية والجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي .

* Libanii Opera, ed. R. Foerster , vol. XI (1922), epist. 846

كانت مدينة حمص في ذلك العهد تتصل مع أهم المدن السورية بواسطة شبكة من الطرق الممتازة التي كانت لها اهداف عسكرية بالاضافة الى اهداف تجارية وسياسية . واذا أخذنا بعين الاعتبار ان سورية كانت اخر مقاطعة بالنسبة للامبراطورية الرومانية من جهة الشرق فان باستطاعة المرء ان يفترض وجود شبكة جيدة من الطرق مدها الرومان لتسهيل تحركات جنودهم ، وبشكل خاص على الحدود الشرقية للامبراطورية حيث تقوم امبراطورية الفرثيين [Parthia ٢٤٨ ق.م – ٢٢٦م] المعادية على الضفة الشرقية لنهر الفرات . ولكن من الغريب عدم وجود أي طريق يصل بين حمص وتدمر على اللوحة البويتنغريانية «Tabula Peutingeriana» (٤). ويمكن تفسير ذلك بالطبيعة الصحراوية للمنطقة بين هاتين المدينتين السوريتين التي لم تسمح بمد الطرق عبرها . الا ان وجود بعض العلامات الحجرية التي تستخدم في قياس الطرق والتي تعود الى ذلك العهد تشير الى امتداد طريق بين حمص وتدمر (٥) يعتقد بأنها مدت اثناء فترة حكم القيصر [سبتيموس سفيروس ١٩٣ – ٢١١](٦) ويبلغ طول هذه الطريق ثمانين ميلا رومانيا(٧) . واذا سرنا على هذه الطريق منطلقين من مدينة حمص، فان أول محطة تواجهنا هي قلعة « بيت بروكلس »(٨). ويدل على امتداد هذه الطريق بعد هذه المحطة وجود بعض الاعمدة المهدومة واحجار المسافات ، وبقايا بعض نقاط الحراسة وابراج المراقبة التي كانت ترابط فيها الخيالة الساراسانية « epuites Saraceni » (٩) حيث تنتهي عند المحطة الثانية بيرياراك «Beriarac» (١٠) التي تقع على مسافة قريبة قبل تدمر . وتدل معاصر الزيت التي وجدت عند المحطة الاولى المذكورة شرقي حمص بأن الصحراء في ذلك الوقت لم تكن تمتد قريبا جدا من حمص كما هي الحال اليوم (١١). ولقد قامت تدمر بحماية هذا الطريق التجاري الممتد ما بين بلاد ما بين النهرين وساحل البحر المتوسط من هجمات القبائل البدوية التي كانت قديما ولا تزال سيدة الصحراء . لقد كان هؤلاء عثرة في طريق القوافل التجارية القادمة من الشرق الاقصى والهند والخليج العربي حيث كانوا يشنون عليها الهجمات ويسرقون أمتعتها أو يفرضون عليها ضرائب جمركية عالية . وقد اضطرت هذه القوافل بسبب ذلك الى تغيير خط سيرها فأصبحت تأتي عن طريق شمال سورية ، الامر الذي أفادت منه المدن الشمالية واغتنت كثيرا(١٢) . لقد استمر الوضع على هذا الشكل طوال الوقت الذي كانت فيه تدمر قليلة الاهمية ، ولكنها عندما أصبحت مركزا تجاريا مرموقا عادت القوافل التجارية تستعمل الطريق القديم الذي هو اقصر بكثير من الطريق التي كانت تسير عليه في شمال سورية ، وقد تمكنت تدمر من اخضاع القبائل البدوية لسيطرتها ومراقبة تحركاتهم . واستطاعت حمص ان تفيد ايضا من هذا الخط التجاري الذي كان يأتي بالبضائع عبر نهر الفرات عن طريق تدمر الى البحر المتوسط. لقد اضطر بعد المسافة بين المدينتين ، بالاضافة الى المد الصحراوي الواسع، القوافل

التجارية الى جعل حمص محطة للاستراحة لوقت غير قصير . وليس هناك من المصادر الادبية والنقوش الحجرية ما يشير الى ان حمص كانت تفرض على هذه القوافل التعرفة الجمركية(١٣) كما كانت تفعل تدمر نظرا لان مدينة حمص والمنطقة المحيطة بها فقيرة بالشواهد الاثرية والنقوش . ان الاجابة على هذا التساؤل تتطلب معرفة فيما اذا كان لمدينة حمص دستور ينظم حياتها ، ومعرفة فيما اذا كان المؤرخ الجغرافي سترابو «Strabon»(٥٨ ق.م ـ ٢٥م) يقصد بعبارة « الشعب الحمصي »(١٤) المفهوم الاداري للدولة . الا انه من الثابت على أي حال ان مدينة حمص اتخذت لفترة طويلة طابع مدينة تجارية ومحطة للقوافل ، وان حياة المدينة بالمعنى المفهوم للكلمة قد ظهرت متأخرة بعض الشيء . ومما يؤيد هذه الحقيقة أحد الصكوك المعدنية العائدة لعهد الانقلابي سولبيكيوس (Usurpator Uranius Aurelius Anton. Sulpicius) عام ٢٥٣/٢٥٤ والتي تمثل جملا مقصوص الشعر (على خلاف الصكوك التدمرية التي كان يظهر عليها غالبا الجمل الحربي)(١٥) . وهذا يرمز الى التجارة المثمرة التي أعطت حمص أهميتها وروعتها(١٦) .

بالاضافة الى مركزها التجاري فقد كانت حمص احدى المدن السورية الصناعية الشهيرة في ذلك العهد والتي كانت السبب في جعل سورية بلدا صناعيا مصدرا . فالتجار السوريون (Syri negatiotores) والمصانع السورية كانت تنتشر في كل مكان من الامبراطورية الرومانية . وهذا الشاعر الروماني « جوڤينال Juvenal » يتذمر في هجائيته المسماة « بابل » بأن نهر العاصي السوري أصبح يصب منذ زمن بعيد في التيبر ، والحياة اصبحت في روما لا تطاق من كثرة هؤلاء الاغراب الذين توافدوا على العاصمة واستقروا فيها(١٧) :

« أي نوع من الناس اصبح الان بشكل خاص محببا الى أغنيائنا ، هذا النوع الذي احتقره انا فعلا أكثر من كل شيء اريد ان أسميه لكم حالا ، وسوف لن يمنعني عن ذلك اي نوع من الخوف ، انني لا استطيع ان احتمل ، ايها المواطنون الرومان ، ان تصبح روما الان مدينة يونانية ، حتى ولو كانت ثمالة اليونانيين قليلة ،

١ ـ نهر سورية العاصي ، أصبح يصب منذ زمن طويل في نهر التيبر .

٢ ـ لقد جلب معه العادات التقاليد ، اللغة وآلات الطرب الوترية السورية.

٣ ـ كما جلب معه الموسيقيين والطبول ، وبالاضافة الى ذلك فقد أتى

٤ ـ بالبنات اللواتي يبعن انفسهن بصورة حرة في السيرك ،

أسرعوا الى هناك الآن بلا تباطؤ اذا كانت لديكم الشهوة الجامحة نحو زانية غريبة ذات غطاء الراس الملون المبرقع »(١٨) .

لقد لعبت طبيعة المواطن السوري والمواصفات التي كانت تتمتع بها سورية في الزمن القديم دورا كبيرا في هذا النشاط التجاري ، حيث كانت سورية تشكل ممرا للقوافل التجارية القادمة من الشرق الاقصى(١٩) .

حدودها وطرقها من الجهة الشرقية :

أما فيما يتعلق بمسار الحدود بين منطقتي تدمر وحمص فان هناك ثلاث مصادر متوافرة تحدد الخط الفاصل بين المدينتين : الاول ادبي والثاني والثالث نقوش حجرية تستعمل كمؤشر للدلالة على امتداد الحدود :

المصدر الاول :

يقول المؤرخ الروماني « بلينيوس الاكبر : G. Plinius Secundus » (٢٣-٧٩م) في كتابه « التاريخ الطبيعي naturalis historia » ، الكتاب الخامس ، الفقرة ٨٩ : « تقع حمص غرب تدمر وتمتد الصحراء بينهما » :

Ultra Palmyram quoque ex solitudini bus his aliquid obtinet Hemesa .

المصدر الثاني :

حجر من أحجار الحدود كتب عليه ما يلي : (IGL Syr. V, 2552)

الامبراطور قيصر
ابن الاله القيصر هدريان
وحفيد الاله القيصر تراجان قاهر
البارثيين ، وحفيد حفيد الاله القيصرنيرفا ،
تيتوس ايليوس هدريانوس
انطونينوس أغسطس الصالح ،
الحبر الاعظم ، تقلد سلطة التريبون
١٦ مرة ، أصبح امبراطورا مرتين ،
وقنصلا ٤ مرات ، ابو الوطن ،
أعاد حدود تدمر

التي كان قد حددها كريتكوس سيلانوس،
البروبريتور ،
مبعوث القيصر
حسب رغبة والده الاله القيصر هدريان
الى ما كانت عليه ، وقد أعيدت
من قبل مبعوث القيصر البروبريتور ،
بونتيوس ليليانوس في شهر ديسمبر
كانون اول ، في فترة حكم القنصلين
بريسنتوس وروفينوس(٢٠)

المصدر الثالث :

حجر حدود كتب عليه : (IGL/Syr. V, 2552)
« Fin [es] inter Hadriano [s] Palmyrenos et Emesenos »
« الحدود بين التدمريين الهدريانيين والحمصيين »(٢١)

ويمكننا ان نستنتج مما ذكر أن :

١ ــ حدود منطقة حمص كانت تمر بالقرب من تدمر منذ زمن كريتكوس سيلانوس (١١/١٢ ــ ١٦/١٧ م)(٢٢) .

٢ القيصر هدريان كان قد وعد التدمريين بإجراء تصحيح على الحدود لدى زيارته لتدمر في عام ١٢٩(٢٣) .

٣ ــ هذا التصحيح للحدود قد جرى من قبل القيصر انطونينوس بيوس : Antoninus Pius (١٣٨ ــ ١٦١ م) ما بين الاول والعاشر من شهر كانون اول عام ١٥٣(٢٤)، بحيث أنها أصبحت تمتد مابين مكان وجود حجر الحدود (IGL Syr, V, 2550) عند خربة البلعاس على مسافة ٧كم شمال غرب تدمر وبين حجر الحدود الذي وجد عند قصر الحير الغربي على بعد /٦٠/كم في الجنوب (IGL Syr.V,2552) الغربي من تدمر ، وقد كان هذا الحجر مطمورا في القصر الاموي . وهذا يعني أنه قد تم إبعاده من مكانه الاصلي الذي وضع فيه ، الا أن احتمال نقله من مكان بعيد غير وارد(٢٥) . وبما أن الحجرين المذكورين قد وجدا على نفس خط العرض ، فان من المحتمل أن يكونا نقاطا (وربما نقاط نهاية) لخط حدود مستقيم مدّ عبر الصحراء بحيث أن هذا الخط كان يبعد عن حمص مسافة /٨٠/ كم تقريبا .

حدودها وطرقها من الجهة الغربية :

كانت حمص كما ذكرنا محطة للقوافل التجارية القادمة من تدمر ، وكانت القوافل

تقوم بعد ذلك بنقل البضائع منها الى مدن الساحل السوري حيث يتم شحنها بعد ذلك عن طريق البحر الى ايطالية . وكانت تمتد بين حمص وهذه المدن الساحلية أيضا شبكة من الطرق الحربية والتجارية . ويبرهن اكتشاف حجرين لقياس المسافات على وجود طريق كانت تصل حمص بمدينة طرابلس الشام اللبنانية مارة ب « أورتوزيا: Orthosia » وهي نفس الطريق الذي يصل اليوم مدينة حمص بطرابلس(٢٦) . اننا لا نعرف

وهي نفس الطريق الذي يصل اليوم الشام مدينة حمص بطرابلس (٢٦) . اننا لا نعرف شيئا عن المحطات التي كانت تقع على هذه الطريق ، كما أننا لا نعرف الزمن الذي تم مدها فيه . فمن الممكن أن تكون امتدادا لخط تدمر ـ حمص وبالتالي يمكن أن يكون قد تم توسيعها في عهد حكومة القيصر سبتيموس سفيروس بحيث أصبحت تستعمل لتحركات الجنود الرومان . فمن بين الاصلاحات الفنية والادارية(٢٧) التي قام بها القيصر سفيروس في سورية التي قسمها الى قسمين : سورية المجوفة (Syria Coele) وسورية الفينيقية(٢٨) (Syria Phoenice) كان أيضا مد الطرق العسكرية وانشاء الجسور وذلك لتسهيل تحركات الجنود وتأمين المؤونة اللازمة لهم . لقد وجه القيصر عناية خاصة الى مدينة حمص واعتنى بمد شبكة خطوط تصلها بمختلف المدن مما ساعد على تطورها وازدهارها . وقد كان ذلك بهدف نقل السلطة المركزية من مدينة انطاكية، ثم لاظهار حبه ومودته لزوجته جوليا دومنا « Julia Domna » التي ملكت عليه قلبه وعقله حيث كانت هذه الشبكة من الطرق تربط جميع أطراف مقاطعة «سورية الفينيقية»(٢٩) التي أصبحت حمص فيما بعد عاصمة لها . لقد قام القيصر ـ الى جانب عنايته بمسقط رأسه ـ (*) برعاية مدينة حمص وتجميلها أيضا اكراما وحبا لزوجته(٣٠) .

كانت المنطقة التابعة لحمص من جهة الغرب محدودة جدا وذلك بسبب الوضع الجغرافي لسلسلة جبال لبنان التي تمتد أطرافها حتى قبل منطقة حمص بقليل ، وبسبب الحدود السياسية للامارات الصغيرة المجاورة ، بحيث كانت هذه الحدود تمتد على نفس امتداد الحدود الجغرافية

فعلى الطرف الثاني لجبال لبنان كانت تقوم دولة « إيتوريا : Ituraea التابعة لبطليموس مينايوس (Ptolemaius Mennaios) الذي كان يتخذ من مدينة شلكيس (Chalkis) (زحلة اليوم) مقره الرئيسي ، وكانت بعلبك مركزا دينيا بالنسبة لهم(٣١) .

(*) مدينة Leptis Magna اسمها القرطاجيون. وموقعها الاثري في ليبية بالقرب من مدينة لبدة الحالية، الواقعة بين طرابلس الغرب وجبل نفوسة .

تعتبر المنطقة الممتدة غرب مدينة حمص من المناطق الخصبة والجميلة جداً في سورية ، ويعود الفضل في ذلك الى مجرى نهر العاصي الذي يمر غربي المدينة(٢٢). وكما ان النهر شريان الحياة بالنسبة للمدينة فانه لم يكن بأقل أهمية في العصر القديم ، فعلى ضفافه كما يبدو كان يقيم الحمصيون طقوسهم الدينية ويحتفلون « بعيد الميماس ». وليس لدينا دليل مباشر على هذا الرأي ، انما يمكن استنتاج ذلك من أن مجرى النهر في غرب المدينة لا يزال يسمى حتى اليوم بـ «الميماس» . يقول المؤرخ الفرنسي رينيه دوسو : كان الحمصيون في الزمن القديم يمارسون طقوسهم الدينية يوميا على ضفاف النهر وهذه الطقوس كانت تمارس دائما بالقرب من الماء ، ومن هنا فقد اطلق عليها اسم « مايوماس »(٢٣) .

شبكة طرق مختلفة :

الى جانب مصور الطرق والمدن والجبال والانهار الآنف الذكر « Tabula Peutingeriana » يرسم جدول الطرق المسمى « Itinerarium Antonini » عدة طرق تدي الى حمص وأخرى تنطلق منها الى عدة اتجاهات :

الطريق الاول :

طريق : Scytopolis - Seriane سيرياني سكيتوبوليس ويبتدىء من سيرياني في شمال تدمر وينتهي عند سكيتوبوليس في فلسطين بطول /٣١٨/ ميلا رومانيا ، مارا بالمحطات التالية مع الاشارة الى المسافة بين كل محطة والمحطة التي تليها :

المسافة		ميل		اسم المحطة
٣٢ ميل	XXXII	m.p.	Salaminiade	: السلمية
١٨	XVIII		Emesa	: حمص
١٨	XVIII		Laudicia	: اللاذقية
٣٢	XXXII		Libo	: ليبو
٣٢	XXXII		Heliupoli	: هليوبوليس
٣٨	XXXVIII		Abila	: ابيلا
١٨	XVIII		Damasco	: دمشق
٣٢	XXXII		Aere	: إيرا
٣٠	XXX		Neve	: نيفا
٣٦	XXXVI		Capitoliade	: كابتولياد
١٦	XVI		Gadara	: غادارا
١٦	XVI		Scytopoli	: سكيتوبوليس(٢٤)

الطريق الثاني :

طريق دمشق ـ حمص : a Damasco - Hemesam بطول /١٥٢/ ميلاً،
مارا بالمحطات التالية :

٣٨ميل	XXXVIII	Abila	: ابيلا
٣٢	XXXII	Heliupoli	: هليوبوليس
٣٢	NNNII	Conna	: كونـّـا
٣٢	XXXII	Laudicia	: اللاذقية
١٨	XVIII	Emesa	: (٢٥) حمص

الطريق الثالث

طريق انطاكية ـ حمص على العاصي ، بطول ١٣٤ ميـل روماني ، مارا بمدينـة أفاميـا والمحطات التالية :

١٣٤	CXXXIIII m.p.	a (b) Antiochia Hemesa	أنطاكية ـ حمص
٢٦	XXVI	Niaccaba	: (نياكابا)
٢٤	XXIIII	Caperturi	: كبرتوري
٢٠	XX	Apomea	: افاميا
١٦	VXI	Larissa	: لارسـّا
١٦	XVI	Epiphania	: حماة
١٦	XVI	Arethusa	: الرستن
١٦	XVI	Emesa	: (٢٦) حمص

مسالة البحيرة والسد القائم عليها :

وفي الجنوب الغربي كان يحد مدينة حمص مدينة «لاوديكيا» (٢٧) الواقعة على سفح جبل لبنان «Laodicea ad Libanum» والقريبة من بحيرة حمص (٢٨) « Emisenus Lacus» التي تعرف باسم بحيرة قطينـة ويخترقها نهر العاصي . وتعد هـذه البحيرة والسـد الذي يحجز ماءها اشكالا للباحثين اليوم . فالمؤرخ العربي ابو الفـداء (٢٩) يذكر بأن البحيرة منشأة اصطناعية ، وينسب بنـاء السد الى الاسـكندر المكدوني، اما جغرافية التلمود فتنسب البحـيرة الى القيصـر ديوكليسيان Diocletian ، (٢٨٤ـ٣٠٥م) ، الذي أمر بتوحيد مجاري عدة انهر مع بعضها نجم عنها هذه البحيرة . ويجب أن يكون قد حصل هذا عندما قام القيصر المذكور بمحاربـة الساراسانيين ما بـين ٢٩٠ و ٢٩٢ للميلاد(٤٠) وذلك لطردهم من سوريـة التي هاجموهـا في ذلـك الوقت . وقـد اثبت « فولور J.Weulersse ، من خلال دراسته لمجرى النهر اننا امـام مستنقـع طبيعي

وليس أمام بحيرة اصطناعية(٤١) . وقد أيده في هذا الرأي أيضا المؤرخ الفرنسي «سيريغ (H.Seyrig)» الذي قال بأن الوظيفة الاساسية للسد هو رفع مستوى البحيرة المستنقعية(٤٢) . أما جغرافيو العصر القديم ، مثل سترابون وبلينيوس الاكبر فلا يذكرون شيئا عن ذلك(٤٣) ، وانه ليصعب ايجاد مؤشر يدل على زمن بناء السد، وهل تم بناؤه قبل العصر الروماني أم بعده . فاستنادا الى البيانات التي يقدمها الجغرافي الشهير « سترابون » عن منابع نهر العاصي يمثل « ر. دوسو ، R.Dussaud» الرأي القائل بأن سد البحيرة يرجع الى زمن طويل جدا . في جغرافيته يذكر « سترابون » ثلاث مجموعات من المنابع لنهر العاصي :

المجموعة الاولى تنبع عند سفح جبل لبنان ، أما الثانية فتنبع بالقرب من مدينة برادايسوس : Paradeisos ،الزراقا اليوم، جنوبي مدينة حمص وشرقي نهر العاصي، أما النبع الثالث فيتواجد بالقرب من الجدار المصري الذي يحيط بأرض الافاميين(٤٤). وبناء على ذلك يريد « دوسو » أن يرى في هذا الجدار المصري سد بحيرة حمص وينسبه بالنتيجة الى عهد الاسرة المصرية الثامنة عشرة(٤٥) . الا ان الوقت الذي اختاره دوسو لهذا السد لم يكن في رايي محظوظا وموفقا . ذلك لان المنطقة التابعة لمدينة افاميا كانت تمتد في عهد السلوقيين حتى ضفاف نهر الحرية «Eleutheros» الى الجنوب من بحيرة حمص ، حيث كانت منطقة الحدود الفاصلة بين منطقة نفوذ البطالمة والسلوقيين . فالجدار المصري الذي يتكلم عنه « سترابون » يجب ان يكون ، على الارجح ، من أعمال البطالمة ، قاموا ببنائه كحاجز منيع ضد منطقة نفوذ السلوقيين . ومما يقودنا الى هذا الاعتقاد ملاحظة سترابون الاخيرة حول أرض الافاميين التي تعود لـ « الجدار المصري » وليس لمنابع النهر . وعلى هذا فانه يمكننا فهم وشرح النص على الشكل التالي :

لم تكن المجموعة الثالثة من منابع نهر العاصي منتشرة في منطقة افاميا ، وانما كان هذا الجدار يشكل نوعا من الحماية لحدود منطقة افاميا الجنوبية ولحدود سورية المجوفة الشمالية . ان جدارا بهذا الشكل لا يتطابق بأي شكل من الاشكال مع سد يبلغ طوله ٨٥٠ مترا ، ارتفاعه ٥ أمتار ، وعرضه نحو ٧٦ر١١ مترا(٤٦) . ان هذه الملاحظات ليست ، على أي حال ، الحل النهائي للمسألة ، ويمكن أن نعتبر ان هذا السؤال بحكم المنتهي عندما تقوم الحفريات بكشف الحائط الذي وصفه « سترابون». ولقد تعرض البحاثة بروسي « L. Brosse » للموضوع ثانية وتوصل الى النتيجة بأنه يصعب تحديد الزمن الذي أنشيء فيه السد وذلك لان وضعه الحالي لا يسمح بذلك نظرا لما طرأ عليه من اصلاحات وتغييرات كثيرة مما غير معالمه الاصلية تماما(٤٧) ، وقيل بأن أسلوب بنائه يشبه اسلوب البناء في العهد الروماني أو البيزنطي(٤٨) . كما رفض

المؤرخ سيريغ وكثيرون غيره نظرية السد التي قال بها «دوسو» ، ويعده من نتائج العصر الروماني أو العصر الوسيط . وليس هناك ما يدعو لتأييد فرضية دوسو الذي أراد ان ينسب الجدار المصري الذي ذكره « سترابون » الى عصر رمسيس دون ان يحدد مكانه بالضبط(٤٩) .

وبعد كل الذي قيل حتى الان فان كل شيء يبقى غامضا ..ان ما يذكره المؤرخ العربي ابو الفداء لا يستند على اساس(٥٠) ، اذ لا بد انه قد خلط بين هذا السد والسد الذي بناه الاسكندر الكبير عند احتلاله لمدينة صور(٥١) ، كما انه من غير المعقول ان يكون السد من بناء السلوقيين لان هؤلاء لم ينشطوا حركة العمران في منطقة الحدود ، واقتصروا على البناء بشكل رئيسي في منطقة سورية الشمالية ، اما منطقة الجنوب فقد تركوها لسكان المنطقة ، نظرا لان الجنوب الذي كان مسرحا للحروب « السورية الستة »(٥٢) التي اندلعت بين هاتين القوتين الكبيرتين كان منطقة توتر بين البطالمة والسلوقيين . كما انه من المستبعد ان يكون امراء حمص الاوائل الذين تركهم القائد الروماني «بومبي» في اماراتهم قد شيدوا هذا السد الذي كان بناؤه يكلف كثيرا في تلك الايام نظرا لما اصابهم من دمار نتيجة الحوادث التي تلت انتهاء امبراطورية السلوقيين، وبسبب الحروب الاهلية الرومانية« Bellum Civile »لانهم لم يتخذوا مواقف حيادية بل انحازوا الى هذا الطرف أو ذاك . وعلى هذا فان المؤرخ سيريغ ينسب هذا السد الى زمن كانت تتمتع فيه حمص بالغنى والقوة في ظل الامبراطورية الرومانية(٥٣) ، الا انه لا يحدد الوقت الذي يقصده(٥٤) . من المحتمل ان تكون المدينة قد تمتعت بهذا المركز في عهد الامراء العرب الاخيرين من السلالة الحاكمة الاولى ، او تحت حكم سلالة القيصر سفيروس (قيصر من عام ١٩٣-٢١١م) . ان السلام الذي اوجده القيصر اوغسطس « Augustus ، ٣١ ق.م - ١٤م » ، قد عاد بالنفع أيضا على الاقاليم الشرقية من الامبراطورية ، ومنها اقليم سورية ومدينة حمص . لقد بدأ امراؤها بالتمركز والاستيطان تدريجيا كما التفتوا الى العناية بمدينتهم والاهتمام بشؤونها .الا انه مهما يكن من امر فليس من المعقول ان يكون بمقدور مدينة ناشئة كحمص أن تتحمل نفقات بناء مثل هذا السد الكبير . من ناحية اخرى يذكر بعض المؤرخين ان حمص قد ازدهرت في زمن العائلة السفيرية(٥٥) . الا انه لا يوجد حاليا اي اثر في المدينة يذكر ويشير الى ازدهار المدينة والى الرعاية الخاصة التي وجهها اليها حكام هذه العائلة . صحيح ان قياصرة هذه العائلة كانوا من اصل حمصي ، الا انهم وجهوا جل عنايتهم الى مدن ومناطق اخرى . وعلى مايبدو فانهم لم يبنوا في مدينة حمص شيئا . واذا كان السد ، على اي حال ، يرجع الى زمن العائلة السفيرية الا ان الفضل في انشائه يعود الى ما كانت تكسبه المدينة من التجارة المحلية ومن الهبات والهدايا التي كان يقدمها الزوار الى معبد اله الشمس . ومهما يكن من امر بناء السد ومتى كان ذلك ، فان

الحمصيين كانوا يعرفون كيف يستفيدون وينتفعون منه . فقد كانت البحيرة ونهر العاصي ـ كما هو الحال اليوم ـ غنية بالاسماك ، الامر الذي دفعهم الى ممارسة صيد السمك واتخاذه مهنة رئيسة لهم(٥٦). ان الموقع الجميل الاخاذ الذي تتمتع به المدينة والذي يمتدحه المؤرخ السوري أميان «Ammianus Marcellinus» (٥٧)(٣٣٠م ـ ٤٠٠؟)، يعود فضله كليا الى نهر العاصي . ولقد تشكلت من مجرى النهر في غرب المدينة منخفضات مستنقعية كانت تؤمن الحماية للمدينة ضد المهاجمين .

حدودها الشمالية :

أما مع مدن سورية الشمالية فكانت حمص تتصل بطريق شمال ـ جنوب ، كما تشير الى ذلك لائحة الطرق الانطونينية مبتدئة بـ كيرو ومنتهية بـ حمص بطول ١٥١ ميلا ، مارة بالمحطات التالية :

٢٠ ميل	XX	Minnica	: منكا
٢٢	XXII	Beroa	: حلب
١٨	XVIII	Calcida	: كلكيدا
٢٠	XX	Arra	: أرا
٢٣	XXIII	Capareas	: كبارياس
١٦	XVI	Epiphania	: حماه
١٦	XVI	Arethusa	: الرستن
١٦	XVI	Emesa (٥٨)	: حمص

تتقاطع هذه الطرق الى الشمال من حماة ، عند كبارياس مع طريق اثاميا ـ تدمر (٥٠) ، وابتداء من حماة تتحد مع طريق العاصي المذكورة آنفا وتصبح قطعة من طريق شمال ـ جنوب حتى مدينة حمص .

كان يحد منطقة حمص من الشمال المحمية السلوقية الرستن التي بناها الملك سلوقس الاول المنتصر(٦٠) ، والتي أصبحت بعد احتلال القائد الروماني « بومبي » لسورية عام ٦٣ ق.م تابعة لحكم الامراء الحمصيين(٦١) .

حدودها الجنوبية :

أما الطريق التي كانت تصل حمص معدمشق فكانت تمتد على نفس امتداد طريق سيرياني ـ سكيتوبوليس . واما منطقة الحدود بين المدينتين فكانت تقع عند يبرود(٦٢) التي كانت تتبع منطقة نفوذ حمص ، كما تشير الى ذلك احدى النقوش الحجرية(٦٣).

هذه الشبكة الممتازة من الطرق التي كانت تربط حمص مع مدن سورية سهلت للمدينة تقدما وتطورا سريعا . من جهة أخرى فقد كانت هذه الطرق تسبب ضررا بالنسبة للمدينة نظرا لانها كانت ـ بسبب موقعها الجغرافي المميز ـ دائما مسرحا للحروب التي أضرّت بها كثيرا(٦٤) ، حتى أصبح لها في تاريخ الحروب اسم يذكر لكثرة الحروب التي اندلعت في منطقتها .

إن جميع الطرق ، تقريبا ، التي تقود الى حمص اليوم لهاامتداد الطرق الرومانية القديمة نفسها،والتي لا تزال آثارها واضحة للعيان بسبب حجارة الرصف الكبيرة التي كان الرومان يستخدمونها والمسماة « Via strata : Plaster ».

الحواشي:

(1) Duden- **Lexikon, Bd** 4 (Mannheim 1963) p. 69.
(2) G.W. Freytag, **Lexicon Arabico-Latinum, I** (1830) 472, S.V.: حمص
(3) Malalas, 13, c.39 A, 345.
(4) K. Miller, **Itineraria Romana** (Stuttgart 1916).
(5) R. Dussaud, **La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam** (Paris 1955) 82 .
(6) P. Thomsen « Die römischen Meilensteine; der Provinzen : Syria Arabia u. Palästia», in; **ZDPV**40 (1917) 25 .
(7) Palladius, **De vita S. Joan. chrysostimos, 47, 71.**
(8) **Notita Dignitatum, I,** 84.
(9) **Noitia Dignitatum** 85, Nr 10.
(10) R. Dussaud, **Topographie historique de la Syrie antique et médievale,** 261, Ann.6.
(11) Th. Mommsen, **Römische Ges chichte,** 5 (Berlin 1909) 464f.
(12) H. Seyrig; « Caractères de l'histoire d'Emèse », **Syria** 36 (1959),185.
(13) J.G.Fevrier,**Essai sur l'histoire** Politique et économique de Palmyre (Paris 1931) 29-42.
(14) Strabo, **Geography,** XVI,2,10.
(15) Seyrig, **Caracteres** .. 192.
(16) **ibidem,** p. 192.
(17) Highet, **Juvinal, the satirist** (Oxford 1955) 71 ff.
(18) **Juvinal, Sat.,** 3, 62f.
(19) حول نشاط السوريين التجاري في العالم الغربي قديما ، انظر :
V. Parvan, **Die Nationalitat der Kaufleute im romischen Kaiserreich**

(Breslau 1909), 110-120.

(20) D. Schlumberger, « borns frontières de la Palmyrène», in: **Syria** 20 (1939), 60.

(21) ibidem, 63 .

(22) L. Jalabert u . R . Mouterde, **IGL Syr. 5** (Paris 1959) 238.

(23) M. Rostovtzeff, **Caravan cities**(OXford 1932) 109.

(24) L. Jalabert, **IGL Syr.** 5, 238.

(25) D. Schlumberger, ibidem, 66.

(26) P. Thomsen, **Die röm . Meilensteine** ,20.

(27) J. Hasebrock, **Untersuchungenzur Geschichte des Kaisers Septimius Severus** (Heidelberg 1921) 66.

(٢٨) هذا التقسيم كان قد خطط لـه القيصر هدريان ، (١١٧–١٣٨م) كما يذكر كتاب « تاريخ القياصرة وهو مجموعة تراجم لحياة.٢امبراطورا رومانيا مـن هدريان حتـى نوميران Historia Augusta ، Numeran أي من ١١٧ الى ٢٨٤ VitaHa dr, XIV, 1 ، وقام القيصر سيفيروس بعملية التقسيم عام ١٩٤.

(٢٩) شمل هذا الاقليم منطقة تدمر ، الجزء الجنوبي من افاميا بما فيها حمص واراضي سورية المجوفة. انظـر :

E. Bormann, **De Syriae provinciae Romanae, Dissertation** (Berlin 1865) 13.

(30) M. Rostovtzeff « La Syrie Romaine » , in : **Revue historique**, 175 (1935) 35 .

(31) Strab. 16; 2,10; A. M. JONES,« Ituraea , » in : **Oxford Classical Dictionary** (Oxford 1964)463.

لم تكن حمص ابدا مركزا للايثوريين كما يدعي المؤرخ كارشتيت Kahrstedt في كتابه « المناطق السورية في العصر الهلنستي ، برلين ١٩٢٦، ص٨٨))لانه في الوقت الذي انتهت فيه عمليا دولـة الايتوريين عام ٢٤ ق.م ، استمرت امارة حمص على حالها . وكانت دولة الايتوريين تضم لبنـان والبقاع وبعلبك (هليوبوليس) وعنجر وجبال لبنان الشرقية ، وبانياس واوتالا والجولان، وقـد حكمها بطليموس بن مينيوس (٨٥ – ٤٠ ق.م) واضطر أن يدفع للقائد بومبـي ١٠٠٠ ثالنت عند احتلاله سورية عام ٦٣ ق.م ليبقيه حاكما على بلادالايثوريين . انظر : سليم عادل عبد الحق، رومـا والشرق الروماني، دمشق ١٩٥٩، ٤٦٩–٤٧٤.

(32) J. Weulersse, **L'Oronte.** Etudede fleuve (Tour 1940) 1ff.

(33) R. Dussaud, « La digue du lac de Homs et le mur égytien de Strabon» , in : **Monument et mémoire,** Piot 25 (1921/22) 138.

تظهر على احد الصكوك المعدنية من عهد القيصر انطونيوس بيوس (١٣٨–١٦١)صورة امرأة هي على القالب الهة المصير لمدينة حمص ـ ونهر العاصي يجري تحتقدميها . وهذا يدل على الصفة المقدسة للنهر وعبادة الحمصيين له كرمز للخصب،وكان في حمص عبادة الماء ايضا ، الى جانب عبادة الحجر ، ويحتفل بها سكان المدينة في عيد اليماس على ضفاف النهر .

(34) O. Cuntz, **Itineraria Romana**, vol. 1 (Leipzig 1926) 27.
(35) G . Parthey und M . Pinder, **Itinerarium Antonini Augusti** (Leipzig 1929) 27, Nr 198.

(36) M. P. Charlesworth, **Trade -routes and commerce of the Roman Empire,** (Hildesheim 1961) 38.

(37(Ptolemaius V, 14, 16;
(38) C. Ritter, **Erdkunde, 17, 2, P.**1004.
(39) Abou el Fida, **Géographie** (arab), (Paris 1840) 40.
(40) F. M. Heichelheim, **Roman Syria** IV (1938) 142; A. Neubauer, **La Géographie du Talmoud** (Hildesheim 1967) 24f.. 29.

(14) J. Weulersse, **L'Oronte,** 17.
(42) Seyrig 189.

ما يذكره المؤرخ بوليبيوس Polibius (٢٠٢-١٢٤ق‌م) في الكتاب الخامس من سفره الكبير ((تاريخ روما ودول المتوسط)) V,45,10 عن البحيرات يقصد به تلك الموافعة بين جبال لبنان الغربية والشرقية في وادي ماسوياس Massayas ، اما بحيرة حمص فهي تقع شرق سلسلة جبال لبنان الشرقية . ومايدعيه كارل ريتر C. Ritter من ان بوليبيوس كان يعرف بحيرة حمص ولكنه لا يذكرها بالاسم لايستند الى اساس .

(44) Strab. 16,2,19.

ترجمة النص اليوناني ((منابع نهر العاصي التي تقع بالقرب من جبل لبنان ، وبالقرب من برادايسوس ، وبالقرب من الجدار المصري حول اراضي مدينة افاميا)).

(45) Dussaud , **Top.,** 112f. LA digue, 137; 140f.
(46) Seyrig, 189.
(47) L. Brossé, « La digue du lac de Homs » , in : Syria IV (1923) 273, anm2 .

(48) L. Brossé, **ibidem,** 237, anm 3.
(49) Seyrig, 188.
(50) **يبدو ان الباحثين المعاصرين فهموا النص العربي الذي يورده ابي الفداء خطا . النص العربي يقول: من الجهة الشمالية للبحيرة تم تشييد سد حجري من قبل القدماء ، وينسب للقائد المكدوني الإسكندر .**

(51) Hermann Bengtson, **Griechischte** (Munchen 1969) b342.
(52) Bengtson, **ibidem,** 405 ff.
(53) Seyrig, 189.
(54) E. Merkel, « Erst Festsetzungen im fruchtbaren Halbmond », in : **Altheim-Stiehl : Die Araber inder alten welt,** I (Berlin 1964) 370.

(55) Benzinger, « Emésa» , in : **RE,**N.B. V,2 (1905) 2497.

(56) Seyrig, 184 Anm.5; R.Dussaud, la digue, 134.
(57) Ammianus Marcellinus, XIV,8,9.
(58) E.Honigmann, Syria, in : **RE** IV 2 (1932) 1676.
(59) Dussaud, **Top.**, Karte 14.
(60) Appian, **Syria,** C.57.
(61) Strab. 16, 2, 10.

(٦٢) يبرود اليوم في منتصف الطريق بين حمص ودمشق ، يذكرها الجغرافي بطليموس (الكتاب الخامس، الفقرة ١٥) من المدن التابعة لمنطقة لاوديكيا ، وعاصمتها لاوديكيا في سفح جبل لبنان .
(٦٤) قام القائد بلستا نفسه بذبح الكثير من الحمصيين ، كما دمر المدينة تدميرا كاملا .
Historia Augusta, Gallienus, III,4, ibidem.

(63) **IGL.** Syr.V, 2707.

قائمة المختصرات

IGL Syr ...... Inscriptions Grecques et Latines de la Syrie.
,RE .... Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft.
ZDPV ...... Zeitschrift des Deutschen Palästina - Vereins.

إدريـــمي مَـــلِكُ ألالاخ

د. عيد مرعي

جامعة دمشق

بين الاعوام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ و ١٩٤٦ ـ ١٩٤٩ قامت بعثة أثرية انكليزية بقيـادة السير ليونارد وولي Leonard woolley بالتنقيب في موقـع تل عطشانة علـى المجرى السفلي لنهر العاصي بالقرب من انطاكيـة . وبينت التنقيبات ان هـذا الموقع سكنته منذ آلاف السنين جماعات بشرية ، ويمكن تتبع ذلك من خلال اللقى الآثاريـة التي تم العثور عليها (١) . وقد اصبح معروفا ان مدينة عريقة تدعى الالاخ كانت تقـوم في موقع هذا التـل .

من الاكتشافات المهمة في تل عطشانة مجموعة من الالواح المسمارية باللغة الاكادية يزيد عددها على خمسمائة لوح ، تعـود الـى فترتين زمنيتين منفصلتين خلال الالف الثانية قبل الميلاد (٢).

ويعطي الارشيف القديم المكتشف في الطبقـة السابعة معلومات عن العلاقـات ، وخاصـة الاقتصادية ، في المنطقة ، في نهايـة القرن الثامن عشـر وخلال القرن السابع عشر قبل الميلاد ، والارشيف الاحدث الذي عثر عليه في الطبقة الرابعة يبين لنا الاحوال التي كانت سائدة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وكانت الالاخ مملكة صغيرة واقعة تحت النفوذ الميتاني . ومن أبرز مكتشفات الطبقة الرابعة تمثال الملك ادريمي ملك ألالاخ الذي عثر عليه في ربيع عام ١٩٣٩ .

يمثل التمثال الملك ادريمي بوضعية الجلوس وهو منحوت على حجر يتكون مـن خليط مـن الدولوميت Dolomit والمغنيزيت Magnesit (موجـود حاليا في المتحف البريطاني في لندن) وجد محطما في بناء ملحق بمعبد المدينة راسه مفصول عن جسده . عثر على حطام التمثال في حفرة في أرض المعبد . كذلك وجد في البنـاء عرش من البازلت ارتفاعه ٦٥ سم ، وأمام العرش وجد مذبح مربع الشكل من البازلت أيضا ارتفاعه ٨٩ سم . ومن اعادة تصور تكوين وضع العرش يتبين بشكل واضح أن تمثال ادريمي كان مقاما في البناء الملحق والمذبح أمامه (٣) .

دراسات تاريخية ، ٢٩ و ٣٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٨

من: كتاب :

Sidney Smith, **The Statue of idri-mi** (1943) London.

من المعتقد أن التمثال كان قائما في معبد مدينة الالاخ عندما هاجمها العدو (٤) ودمرها ، والذي دخل المعبد وحطم التمثال الى عدة قطع . بعد ذلك جاء احد سكان المدينة ودخل خرائب المعبد فوجد التمثال محطما فجمع أجزاءه ووضعها في حفرة في الارض وغطاها بالحجارة والتراب ، وربما كان لديه الامل بأنه سيعود يوما الى المدينة ومن ثم يعيد التمثال الى ما كان عليه . ولكن الالاخ بقيت مدمرة ومهجورة حتى تم اكتشافها حديثا على أيدي منقبي الآثار(٥) ، بيد أن أمنية ذلك الرجل تحققت بعد قرون طويلة وان لم يعد هو الى المدينة ، فقد جمعت قطع التمثال المحطمة ورممت واعيد التمثال الى وضعيته الاصلية التي تمثل رجلا ملتحيا في وضعية الجلوس. هو واحد من أقدم الشخصيات في تاريخ سورية القديم .

وتكمن اهمية التمثال الكبير في الكتابة التي يحملها والمؤلفة من مائة واربعة سطور منقوشة بالخط المسماري واللغة الاكادية ، تمثل سيرة ذاتية يروي فيها ادريمي قصة حياته والاعمال التي قام بها (٦).

في بداية النص يقدم ادريمي نفسه ويذكر اسم والده (السطرين ١ ــ ٢) ، وفي السطور ٣ــ٦ يذكر أن تمردا حدث في حلب مقر حكم أبيه وأرغمه هو واخوته على الهرب الى مدينة ايمار Emar (٧) حيث يقيم أقرباء أمه .

مما لا شك فيه أن التمرد الذي حدث في حلب كان بتأييد من مملكة حوري ــ ميتاني التي كانت تحاول في تلك الفترة (بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد) مد سيطرتها باتجاه الغرب نحو سواحل البحر المتوسط .

مملكة حوري ــ ميتاني كانت قد نشأت في اعالي بلاد الرافدين واتخذت من واشوكاني washshukani(ربما تل الفخيرية قرب راس العين) عاصمة لها .وقد بلغت تلك المملكة اوج قوتها وازدهارها في الفترة ما بين ١٤٥٠ــ١٣٥٠ق.م ، وشملت مناطق واسعة امتدت من جبال زاغروس شرقا حتى سواحل البحر المتوسط غربا .

وكانت حلب قد فقدت دورها الهام في شمال سورية نتيجة الاحتلال الحثي بقيادة مورشيلي الاول Murshili I في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد . ولكن بعد موت مورشيلي الاول مرت الامبراطورية الحثية في مرحلة من الضعف والفوضى نتيجة الصراعات الداخلية التي حلت بها . ثم استطاعت حلب خلال هذه المرحلة استعادة استقلالها وقوتها ودورها الهام في المنطقة ، وقام على حكمها الملوك شارا ــ ال Shara-el وأبا ــ ال Abb-el واليم ــ اليما Ilim-ilimma والد ادريمي (٨) .

أدى سقوط حلب وهرب أسرة ادريمي نتيجة التمرد الذي حدث فيها الـى أن يمد باراتارنـا Baratarna ملك حوري ـ ميتاني نفوذه حتى سواحل البحر المتوسط.

لا ترد في النص تفاصيل ما حدث في حلب . ولكن بما أن النص لا يذكر شيئا عن هرب اليم ـ اليما والد ادريمي مع الهاربين الى ايمار فيمكن القول أنه قتل خلال التمرد الذي حدث ، أو أن موته الطبيعي كان دافعا للقيام بالتمرد (٩) .

كانت ايمار واقعة خارج منطقة نفوذ اليم ـ اليما ، أما في القرنين الثامن عشـر والسابع عشر قبل الميلاد فكانت تحت سيطرة ملوك يمحاض ، وكانت تقوم بينها وبين الالاخ علاقات قويـة .

أما فراعنة مصر فقد مارسوا زمن الدولة الحديثة ،أي منذ بدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، سياسة توسعية باتجاه سورية، فقام تحوتموس الاول Thutmosis I (١٤٩٧ ـ ١٤٨٢) بالاستيلاء على فلسطين ، وفي عـام ١٤٥٨ حقق تحوتموس الثالث نصرا عند مجدو ضد تحالف سـوري بقيادة ملك قادش . ومـن المحتمل أن تكـون امبراطورية حوري ـ ميتاني قد دعمت هذا التحالف . وفي عام ١٤٤٧ وصل تحوتموس الثالث حتى كركميش دون أن نسمع عن اية اجراءات ميتانية ضده .

خلاصة الامر ان سورية كانت خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد مثـار نزاع دائم بين مملكة حوري ـ ميتاني من جهة ، والامبراطورية المصرية من جهة ثانية . وتم وضع حد لهذا النزاع بعقـد اتفاقية للسـلام بين القوتين الكبيرتين في عهـد الفرعـون تحوتموس الرابع (١٤٠٠ ـ ١٣٩٠ق.م) حددت مناطق نفوذ كل مـن هاتين القوتين في سورية فوصل النفوذ المصري على الساحل حتـى أوجاريت وكان بذلك ابعد مما وصل اليه في الداخل حيث كانت الحدود تمـر في وادي العاصي بالقرب من سـهول حمص تقريبـا .

بعد اقامة غير معروفة في ايمار غادرها ادريمي متوجها الى أرض كنعان في جنوب غرب سورية وذلك عبر بادية الشام . أما الاسـباب التي دعت ادريمي الى التوجه الى ارض كنعان دون سواها فكانت على ما يبدو قرب هذه المنطقة من البحر ومـن مناطق النفوذ المصري في سورية ، مما يسهل الاتصال مع المصريين وطلب العون منهم اذا دعت الضرورة من أجل العودة الى مملكة ابيه . يضاف الى ذلك أن ارض كنعان كانت ملجأ للعديد من سكان مملكة اليم ـ اليما (١٠).

فيما بعد توصل ادريمي كما يبدو الى اتفاق مـع باراتارنا ملك حوري ـ ميتاني وعاد الى الالاخ ليحكم فيها كملك تابع لمملكة حوري ـ ميتاني .

يذكر ادريمي أنـه قام بتحصين مدنـه وتمتين اسوارها (السـطور ٦٠ ـ ٦٣) لزيادة فاعليتها الدفاعية ورد الهجمات المعادية . كذلك يذكر انه قام بحملة عسكريـة ضد بعض القلاع والمدن الحثية (السطور ٦٤ ـ ٨٠) . ولكن يبدو أن تلك الحملة كانت بهدف السلب والنهب ، وحدثت في وقت كانت فيه الامبراطورية الحثية تمر بموجة من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، لم تمكنها من الرد على العمل العسـكري الذي قام به ادريمي ، ولربما قام ادريمي بذلك بتشجيع من سيده ملك حوري ـ ميتاني .

في نهاية النص يصب ادريمي شـتائم ولعنات الآلهـة وغضبهم على كل مـن يغير أو يزيل تمثاله ، ويذكر بأنه حكم ثلاثين عاما كملك في الالاخ . ويتمنى النصر والحيـاة الطويلة لكاتب النص (السطور ٩٢ ـ ١٠٤) .

حكم ادريمي في مملكة يحدها البحر المتوسط غربا وكيزوواتنا kizzuwatna (١١) شمالا . ولها حدود مشتركة في الجنوب مـع أجاريت Ugarit وبقيت حلب خارج نفوذ ادريمي وتحت السيطرة الميتانية المباشرة (١٢)

حكم ادريمي ثلاثة عقود من السنين في بداية القرن الخامس عشر قبل الميـلاد ، واعتبره خلفاؤه مؤسس سلالة جديدة واستخدموا خاتمه في ختم وثائقهم .من هنا فان وثائق من الطبقة الرابعة في الالاخ تذكر اسم ادريمي أو تحمل خاتمـه . وتمثاله بقـي قرابة ثلاثمائة عام مقدسا في الالاخ (١٣) . أي الى العصر الذي حدث فيه التغيير الكبير في سورية الشماليـة بدخـول شعوب البحـر من جهـة وانتشـار الآراميين وانهيار الامبراطورية الحثية .

فيما يلي نقـدم النص الاكادي المنقوش على تمثـال ادريمي (١٤) مكتوبا بالحرف العربي (١٥) مع ترجمة وتفسير له (١٦) :

١ ـ أ ـ نا ـ كو I (١٧) أدـري ـمي مار (١٨) اليم (١٩) ـإـليم ـما	١ ـ أنا إدريمي بن اليم ـ اليما
٢ ـ أراد (٢٠) (د) تيشوب(٢١) (د) خي ـ بات(٢٢) أو (د)شاوشكا(٢٣) بيلت(٢٤) (اورو)(٢٥) ا ـ لا ـ لا ـ خ بيلتي(٢٤) ـ يا	٢ ـ خادم تيشوب ، خيبات وشاوشكا سيدة الالاخ ، سيدتي .
٣ ـ ا ـ نا (أورو) خا ـ لا ـ اب (كي)(٢٦) بيت(٢٧) أ بي ـ يا	٣ ـ في حلب بيت أبي .
٤ ـ . . . . . ما ـ شي ـ يق ـ تو (٢٨) ات ـ تاب ـ شي أو خال ـ قا ـ نو	٤ ـ حدثت اضطرابات وهربنا (الى)
٥ ـ أميلوت (٢٩) (أورو) إـمار (كي) اـخاـتيـشي(٣٠)	٥ ـ سادة ايمار اخوة
٦ ـ شا أمـميـيا او اشـبلـنو اـنا (أورو) إـمار (كي)	٦ ـ أمي ، وسكنا في ايمار (٣١)
٧ ـ اخـخي (خي.أ)ـيا شا إلي(٣٢)ـ يا رابو(٣٢)	٧ ـ اخوتي الذين كانوا أكبر مني
٨ ـ إتـتيـياـما أشـبوـو أو ماـانـنوـومـما	٨ ـ سكنوا معي أيضا ، ولكن لا أحد منهم
٩ ـ أـواـتي(ميش) (٣٤)شا أخـشوـشو او أل إخـشوـوش	٩ ـ فهم الاشياء التي فهمتها (٣٥).
١٠ـ أومـما أـنـاـكوـما ماـانـنوـوم بيت(٣٦) أـبيـشو	١٠ـ كما يلي (فكرت) أنا : من في بيت أبيه
١١ـ لوـو مار شاكا ناكي(٣٧) رابو(٣٨) او ماـانـنوـوم	١١ـ فهو الابن الاكبر لامير ، ولكن من
١٢ـ أـنا ماري(٣٩)(أورو) إـمار(كي) لوـو اراد(٤٠)	١٢ـ هو عند أبناء ايمار فهو عبد .
١٣ـ سيسي(٤١)ـيا(جيش) نركبتي(٤٢)ـيا او كيزي(٤٣) ـ يا	١٣ـ حصاني ، عربتي وخادمي
١٤ـ إلـتيـقيـشوـنو أو إـنا ماـات خوـريـيبـتي(كي)	١٤ـ اخذتها وفي أرض الصحراء
١٥ـ إيـتيـتيـيق أو ليـبي صابي(٤٤) سوـتوـو(كي)(٤٥)	١٥ـ عبرت . ولدى جماعات السوتيين
١٦ـ ايـتيـروـوب إشـتيـشو اـنا ليـبي	١٦ـ دخلت . معه (مع الخادم) .

١٧ـ كوـ زي I زاكـ كار(٤٦) بيـ تاـ كو بـ نا شاـ ني أ وـ مي	١٧ـ بت أمام عرش زاكار . في اليوم الثاني
١٨ـ أنـ موـ وشـ ما أو أـ نا ماـ ات كيـ ينـ اـ ني (كي)	١٨ـ رحلت والى أرض كنعان(٤٧)
١٩ـ أ لـ ليـ يك إـ نا ماـ ات كيـ ينـ أ ـ ني (كي)	١٩ـ وصلت . في ارض كنعان
٢٠ـ (أورو) امـ ميـ يا (كي) اشـ بو إـ نا (أورو) امـ ميـ يا (كي)	٢٠ـ (تقع) مدينة أميًا (٤٨) . في مدينة أميًا سكن
٢١ـ ماري (أورو) خاـ لاـ اب (كي) ماري ماـ ات موـ كيـ يشـ خي (كي)	٢١ـ أناس (٤٩) من حلب ، أناس(٤٩) من أرض موكيش(٥٠)،
٢٢ـ ماري(٥١) ماـ ات نيـ خي (كي)(٥٢) أو ماري(٥١) ماـ ات	٢٢ـ اناس من أرض نيخي واناس من أرض
٢٣ـ أـ ماـ آي (كي)(٥٣) اشـ بو	٢٣ـ أمائي . هم سكنوا (هناك)(٥٤)
٢٤ـ بـ موـ روـ ونـ نيـ ما	٢٤ـ عندما رأوني (وتأكدوا)
٢٥ـ بـ نوـ ما مار بيـ ليـ شوـ نو أـ ناـ كو اوـ أـ ناـ موخي(٥٥)ـ يا	٢٥ـ انني ابن سيدهم فانهم حولي
٢٦ـ إبـ خوـ روـ نيمـ ما أـ كاـ اـ ناـ كا أورـ تابـ بيـ اـ كو	٢٦ـ تجمعوا . وهكذا عملت كبيرا
٢٧ـ أ وـ راـ اك أو أـ نا ليـ بي صابي(٥٦) خابيري(٥٧)	٢٧ـ وحكمت . ولدى جماعات الخابيرو .
٢٨ـ أـ نا شيبي شناتي(٥٨) اشـ باـ كو إ صثوراتي(٥٩) ا وـ زاـ كي	٢٨ـ أقمت سبع سنوات . تركت عصافير تطير .
٢٩ـ بو خادي(٦٠) ابـ ريـ ما أو شيـ بـ ي شاـ ناـ تي (د) تيشوب(٦٢)	٢٩ـ وتفحصت (احشاء) الحملان (٦١). وفي السنة السابعة
٣٠ـ أـ نا قا ثادي(٦٣)ـ يا اتـ توـ ور أو إـ تيـ بوـ وش(جيش)إ ليباتي(٦٤)	٣٠ـ رجع تيشوب الى رأسي(٦٥). ومن ثم صنعت سفنا .
٣١ـ صابي(٦٦)نوـ ولـ لا (٦٧) أـ نا (جيش) اليباتي(٦٨) أوـ شارـ كيـ يبـ شوـ نو	٣١ـ عساكر نولاً جعلتهم يصعدون الى السفن .
٣٢ـ او تا متا(٦٩) أـ نا ماـ ات موـ كيـ يشـ خي (كي)	٣٢ـ وبحرا من أرض موكيش
٣٣ـ اطـ خيـ يـ كو أو ياني خورشان(٧٠) خاـ ز ي(٧١)	٣٣ـ اقتربت ، وامام جبل الاقرع
٣٤ـ أـ نا تاـ باـ ليم الـ شوـ ود إـ ليـ ياـ كو	٣٤ـ وصلت الى اليابسة . (بعد ذلك) صعدت .

٣٥ـ أو مـاـتي ـيا اشـموـون ـني ـما أ لبي(٧٢) أو إ ميري(٧٣)	٣٥ـ وعندما سمعت بلدي بي الابقار والاغنـام
٣٦ـ أـنا بـاـني ـيا أوبـلوـوـنيم او إـنا إشتين أو مي(٧٤)	٣٦ـ جلبها المرء لي . وفي يوم واحد
٣٧ـ كيـما أشتين(٧٥) أ ميلي(٧٦) مـاـات نيـخي(كي) مـاـات أـمـاـاي(كي)	٣٧ـ كانسان واحد أرض نيخي ، أرض أمائي
٣٨ـ مـاـات موـكيـيشـخي(كي) أو (أورو)أـلاـلاـاخ(كي) الي(٧٧)ـيا	٣٨ـ أرض موكيش والالاخ مدينتي
٣٩ـ أـنا يـاـشيـيم اتـتوـروـنيم أ خيّ(٧٨)ـيا	٣٩ـ عادوا الي (٧٩). اخوتـي
٤٠ـ إشـموـوـما أو أـنا ما خـريـ يا الـليـكوـو	٤٠ـ سمعوا (بذلك) وأتوا الي .
٤١ـ أ خـخي (خي.أ) ـيا اتـتيـيـاـفا انـناـخوـو	٤١ـ إخوتي استراحوا عندي(٧٩ب).
٤٢ـ أ خـخي (خي.أ) ـيا أصـصورـ شوـنو أبـبوـنا	٤٢ـ حميت إخوتي . عدا عن ذلك
٤٣ـ شيبي شناتي(٨٠) I بـاـراـاتـ تارـنا شارو(٨٢) دانـنو	٤٣ـ سبع سنين باراتارنا(٨١) الملك القوي .
٤٤ـ شار(٨٣) صابي(٨٤) خورـري (كي) أوـناـكيرـانـني	٤٤ـ ملك الحوريين عاداني .
٤٥ـ إـنا شيـببـي شـاـنـاـتي أـنا I بـاـراـاتـارـنا شاري(٨٥)	٤٥ـ في السنة السابعة الى باراتارنا الملك .
٤٦ـ شار(٨٦) صابي /خورـري/(كي)(٨٧) I أنـواـانـدا أشـتـابار أو أدـ بوـوب	٤٦ـ ملك الحوريين أرسلت أنواندا(٨٨) وتحدثت .
٤٧ـ مـاـنـخاـتي(خي) شـا أـبوـتي (خي.أ)ـيا بـنوـما	٤٧ـ عن جهود آبائي بأن
٤٨ـ أـبوـتي(خي.أ)ـيا أـنا مو خيّ(٨٩)ـشوـنو انـنـاـخوـو	٤٨ـ آبائي كانوا قد خلدوا الى الهدوء(٩٠)
٤٩ـ أو بـاـنوـتيـني أـنا شاري(٩١) شا صابي خورـري(كي) دامـيـيق	٤٩ـ وأجدادنا (كانوا) طيبين مع ملوك الحوريين
٥٠ـ أو أـنا بيـريـشوـنو ما ميتا(٩٢) دانـنـاـتا	٥٠ـ وانهم فيما بينهم قسما عظيمـا
٥١ـ اشـكوـنوـنيـنا شارو دانـنو مـاـنـخاـتي(خي.أ)	٥١ـ اقسموا . الملك القوي سمع عن جهـود
٥٢ـ شا بـاـنوـتيـني أو ماميت(٩٣) شا بيـريـشوـنو اشـميـما	٥٢ـ أجدادنا وعن القسم فيما بينهم

٥٣ـ	او اتـتي مـاـمي ـتي اب ـتا ـلا ـاخ اش ـشوم اـوا ـات	وخاف من علامة القسـم . لاجل محتوى
٥٤ـ	مـاـمي ـتي او اش ـشوم مـاـنا ـخا ـتي (ميش) ـني شو ـول ـمي ـيا	القسم ولاجل جهودنا قبل هديتي الترحيبية(٩٣) .
٥٥ـ	إم ـتا ـخار او كي ـنو ـنو شا ري ـدو ـو شا نيقي(٩٥)	وفي (شهر) كينونو (٩٤) التالي قدمت أضاحي
٥٦ـ	او ـشار ـبي او بيتا(٩٦) خال ـقو او او ـتي ـير ـشو	كثيرة واعدت اليه البيت الهارب(٩٧).
٥٧ـ	إ ـنا أميلوتي(٩٨) ـيا إ ـنا كي ـنو ـتي ـيا رو ـأن ـنا ـام	في انسانيتي ، في اخلاصي ، بشكل ودي .
٥٨ـ	از ـكور ـشو او شارا(٩٩) ـكو أ ـنا (أورو) أ ـلا ـلا ـاخ (كي)	أقسمت له . لذلك اصبحت ملكا على الالاخ(١٠٠) .
٥٩ـ	شارو(١٠١) شا إ ميتي (١٠٢) ـيا او شو ميلي(١٠٣) ـيا ال ـلو ـ أن ـني ـما	الملوك الذين على يميني والذين على يساري جاؤوا الي .
٦٠ـ	او كي ـما شو ـنو ـتي ـما اوم ـتا ـشي ـلا ـكو دور(١٠٤) ـشو ـنو	ووجدت نفسي مماثلا لهم . أسوارها (أسوار المدن) .
٦١ـ	شا ا ـبو ـتي (خي ١٠) إ ـنا قا ـقا ـري تاب ـكو ـو	التي اقامها الاجداد من تراب .
٦٢ـ	او ا ـنا ـكو إ ـنا قا ـقا ـري او ـشا ـات ـبو ـو	جعلتها ترتفع بالتراب
٦٣ـ	او ا ـنا ـان ـتا او ـشاق ـ قو ـو ـشو ـنو	ومن اجل القتال زدتها علـوا .
٦٤ـ	صا با(١٠٥) ال ـتي ـقي او ا ـنا مـا ـات خلـ ـات ـتي (كي)	اخذت العساكر والى أرض حاتي(١٠٦)
٦٥ـ	إ ـتي ـلي او شيبي(١٠٧) ا لي(١٠٨) ا ص ـبات ـشو ـنو	صعدت واستوليت على سبع قلاع (مدن) :
٦٦ـ	(أورو) با ـاش ـشا ـخي (كي) (أورو) دا ـما ـرو ـوت ـلا (كي)	باشاخي ، داماروتلا ،
٦٧ـ	(أورو) خو ـلاخ ـخا ـان (كي) (أورو) زي ـلا (أورو) إ ـإ (كي)	خولاخان ، زيلا ، اي
٦٨ـ	(أورو) أو ـلو ـزي ـلا (كي) او (أورو) زا ـرو ـنا (كي)	او لوزيلا و زارونا(١٠٩)

النص	الترجمة
٦٩ـ ان ـموـو الي اص ـبات ـشوـنو او أول ـلوـو	٦٩ـ هذه القلاع (المدن) استوليت عليها . هي
٧٠ـ اخ ـتي ـبي ـشوـنوـتي ماـات خاـات ـتي (كي)	٧٠ـ دمرتها . بلاد حاتي
٧١ـ أوـأول ابـخور أو أـنا موخي(١١٠) ـيا أوـأول الـلي ـكو	٧١ـ لم تتجمع ولم تأت ضـدي(١١١).
٧٢ـ شا لبـبي ـيا إـتي ـبوـوش شاـلاـتي (خي.أ) ـشوـنو	٧٢ـ صنعت ما يشتهيه لبي (قلبي) : غنائمهـم .
٧٣ـ اش ـلوـولـما نام ـكوـري ـ شوـنو بوـشي ـشوـنو باـشي ـتوـ(شو) ـ نو	٧٣ـ نهبتها . املاكهم ، أمتعتهم ، ممتلكاتهم .
٧٤ـ الـتي ـقي أو أو ـزاـاز أـنا صابي(١١٢) تيل ـلاـتي ـيا	٧٤ـ أخذت ووزعتها على عساكري(١١٣) .
٧٥ـ (لو.ميش) أخ ـخي (خي.أ) ـيا	٧٥ـ واخوتـي .
٧٦ـ أو (لو.ميش)ابـروـتي (خي.أ) ـيا كاـكاـشوـنوـما	٧٦ـ واصحابي . ولكن أسلحتهم
٧٧ـ أـناـكو الي ـتي ـقي أو أـنا ماـات موـكي ـيش ـخي (كي) اتـتوـور	٧٧ـ أخذتها أنا شخصيا . ومن ثم رجعت الى بلاد موكيش مدينتي مع الغنيمة .
٧٨ـ او إـروـوب أـنا (أورو) أـلاـلاـاخ (كي) أ لي(١١٤)ـيا إـنا شالـلاـتيم	٧٨ـ ودخلت الى الالاخ
٧٩ـ أو إـنا مارـشي ـتيم إـنا نام ـكوـري إـنا بوـشي أو إنا باـشي ـتي	٧٩ـ ومع ثروة من الحيوانات والممتلكات والامـلاك والامتعـة .
٨٠ـ شا إ ش ـتو ماـات خاـات ـتي(كي) أوـشي ـري ـدو بيتا(١١٥) أوش ـتي ـبي ـيش	٨٠ـ التي جعلتها تأتي من بلاد حاتي . بنيت قصرا .
٨١ـ (جيش)كوسي(١١٦)ـيا كي ـما كوسي(١١٦) شا شاري(١١٧) أو ـماـشي ـيل	٨١ـ عملت عرشي مماثلا لعروش الملوك ،
٨٢ـ (لو.مش) أخي(١١٨) ـيا كي ـما أخي(١١٨) شا شاري (١١٧) ماري (١١٩) ـ يا	٨٢ـ اخوتي كاخوة الملوك ، أولادي .
٨٣ـ كي ـما ماري(١١٩)ـشوـنو أو (لو.ميش)تابـبوـتي (خي.أ)ـيا أو تابـبوـتي (خي.أ) ـشوـنو	٨٣ـ كأولادهم واصحابي كأصحابهم .
٨٤ـ أوـماـشي ـلوـوـشوـنو	٨٤ـ جعلتهم . السكان

	أشيبي(١٢٠) شا أـنا لبـبي ماـتي (كي) ـيا	الذين في بلدي .
٨٥ـ	شو بتا(١٢١) ـشوـنو طابتا (١٢٢) أو أوـشيـشيـيبـشوـنو شا شو تا(١٢١) لا أوـوشـشاـبو	مسكنهم جعلتهم يسكنون بشكل أفضل . الذين لم يسكنوا في مسكن (قط)
٨٦ـ	أـناـكو أوـشيـشيـبوـشوـنو أو ماـتي(كي)ـيا أو ـكيـينـنو	جعلتهم يسكنون . ووطدت بلدي .
٨٧ـ	أو أو ـماـشيـيل أ لي(١٢٣)ـ يا كيـميـي باـنوـتيـنيـما كيـما أبوتي(١٢٤)ـنيـما	وعملت مدني كما أجدادنا (عملوها) . كآبائنـا .
٨٨ـ	اتـتي (ميش) شا إ لي (١٢٥) شا (أورو) أـلاـلاخ (كي) أوـكيـينـنو وـما	(الذين) عينوا علامات آلهة الالاخ
٨٩ـ	أو نيقي(١٢٦) شا أـبيـيـني شا أوشـتيـبيـشوـوـشوـنو	والاضاحي التي قدمها آباؤنـا .
٩٠ـ	أـناـكو إـتيـنيـبوـوشـشوـنو أنـموـو إـتيـبوـوشـشوـنو	قدمتها أنا بانتظام (١٢٧) هذا ما عملته .
٩١ـ	او أـناا قاـتي I (د) تيشوب(١٢٨)ـ نيـراـري ماري(١٢٩)ـيا أبـتاـ قيـيدـشوـنو	وعهدت به الى يد ولدي تيشوب ـ نيراري .
٩٢ـ	ماـانـنوـومـميـي صالي(١٣٠) ـ يا انـنيـناـتي إـناـأسـ ساخـشو	من يزلْ نصبي هذا
٩٣ـ	أو بيـريـيخـشو ليـيلـ قوـوت شامو(١٣١) ليـيزـزوـ ورـشو	فليستأصل نسله وليلعنه إله السماء ـ
٩٤ـ	شاـابـلاـتو إرـصيـتو بيـريـيخـشو ليـيلـقوـوت	ولتستأصل الارض السفلى(١٣٢) سلالته
٩٥ـ	إ لو(١٣٣)شاشامي(١٣٤)أو إرصيتي(١٣٥) شاروت(١٣٦)ـشو او ماـاتـ شو(كي) ليمـدوـدوـشو	ولتقسّم آلهة السماء والارض مملكته وارضه .
٩٦ـ	ماـانـنوـومـميـي أوـناـاكـكارـشو إـيبـ باـاشـشي	من يغيره أيضا أو يعمل به شيئا
٩٧ـ	د تيشوب(١٣٧) بل(١٣٨) شامي(١٣٩) او إرصيتي(١٤٠)أو إ لي(١٤١)رابوتي(١٤٢) شوـماـشو	ليحطم تيشوب سيد السماء والارض والآلهة الكبار اسمه
٩٨ـ	او زير(١٤٣)شو ليـخالـليق إـنا ماـتيـشو	وذريته في

I شـارـــروـــوا(١٤٤) طو بشـارو(١٤٥) صيخيرو(١٤٦) أراد(١٤٧) تيشوب(١٤٨) شيميجي(١٤٩) كو شوخ(١٥٠) أو شاوشكا(١٥١)	بلاده شاروروا هو الكاتب الصغير عبد تيشوب ، شيمجي ، كوشوخ وشاوشكا .
٩٩ـ I شـارـــروـــوا (لو) طوبشـار(١٥٢) شا صالما(١٥٣) أنـــنيـــنا ـتيم أشـــطوـــروـــشو الو(١٥٤) شا شامي(١٥٥) أو ارصيتي(١٥٦)	٩٩ـ مشاروروا الكاتب الذي كتب هذا النصب لتبقيه آلهة السماء والارض
١٠٠ـ ليـــيالـــليـــطوـــوـــشو ليـــناـــصاـــروـــشو لوـــو أودا مّامو(١٥٧) ـــوـــشوـــ (د) شيميجي(١٥٨) بل(١٥٩) إـــلوـــتي	١٠٠ـ حيا ولتنصره ولتكن طيبة معه شيميجي سيد الاعلى
١٠١ـ أو شابـــليـــتي بل(١٥٩) لوـــو إـــطيمـــمي لوـــو أوبالاط (١٦٠) ـ شـــو	١٠١ـ والاسفل ، سيد أشباح الموتي ليحفظه على قيد الحياة .
١٠٢ـ شلا شا شناتي(١٦١) شارا(١٦٢) ـــكو	١٠٢ـ ثلاثين عاما كنت ملكا .
١٠٣ـ ماـــناـــاخـــتيـــيا أـــنا طوبي(١٦٣) ـ يا أشـــطوـــور ليـــداجـــجالوـــشوـــنو	١٠٣ـ كتبت أعمالي على لوحي ليراها (المرء) .
١٠٤ـ أو أـــنا موخيّ(١٦٤)ـ يا ليـــيك ـــتاـــناـــراـــبو	١٠٤ـ وليرحمني دائما .

شرح بعض الاحرف والرموز الواردة في النص الاكادي :

ج = g تلفظ جيما مصرية .

ح = ḫ

ش = š

ط = ṭ

ز = z

ص = ṣ

ق = q

< > = اضافة ليست واردة في النص الاصلي .

( ) = كلمة مضافة الى الترجمة ليستقيم المعنى في العربية .

الهوامش :

(١) انظر حول ذلك :

L. Woolley, An Account of the Excavations at Tell Atchana 1937 - 1949, Oxford 1955. L. Woolley, Aforgatten Kingdom, Lindon 1953(

(٢) الالواح المسمارية التي اكتشفت في آلالاخ نشرها وايزمن في كتابه

The Alalakh Tablets, London 1953.

وفي مجلة الدراسات المسمارية :

JCS 8 (1954), P. 1 ff.; 12 (1958), P. 124 ff.; 13 (1959), P. 19 ff. and P.50ff.

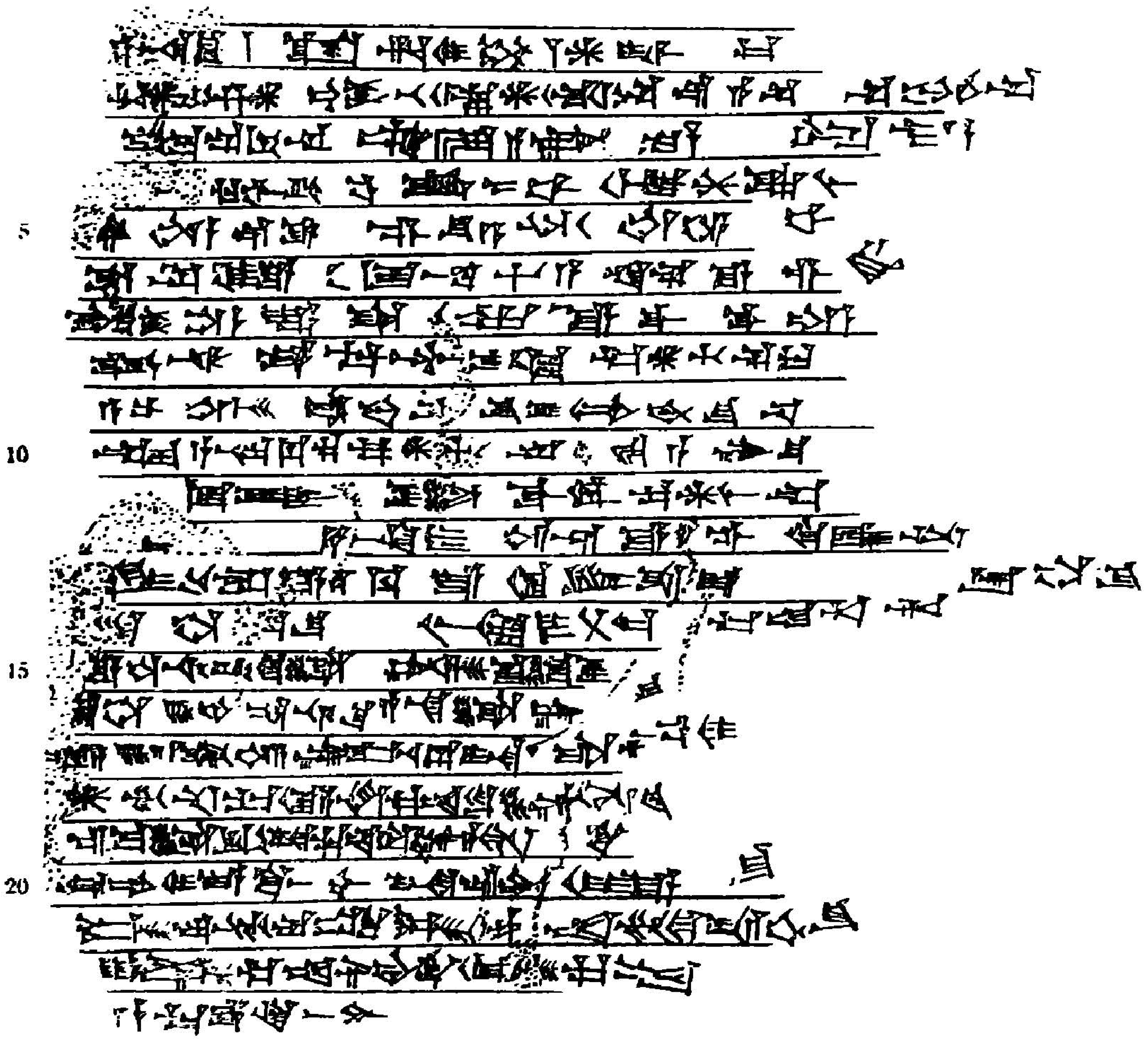

Right shoulder top left.

(٣) S. Smith, The Statue of Idri-mi, London 1949, P. 1 ff.; R. Mayer-Opificius, Archäologischer Kommentar zur Statue des Idrimi von Alalah, in: UF 13(1981), S. 279 ff.
وأيضـا :
A. Moortgat, Die Kunst des Alten Mesopotamien, Babylon und Assur, Überarbeitete Neuausgabe, Köln 1985, S. 69 ff.

(٤) المقصود بالعدو هنا شعوب البحر التي بدأت تحركاتها في بدايات القرن الثاني عشر قبل الميـلاد فاجتاحت مدن الساحل السوري ووصلت حتى مصر وكانت السبب الاساسي في انهيار الامبراطورية الحثية في الاناضـول .

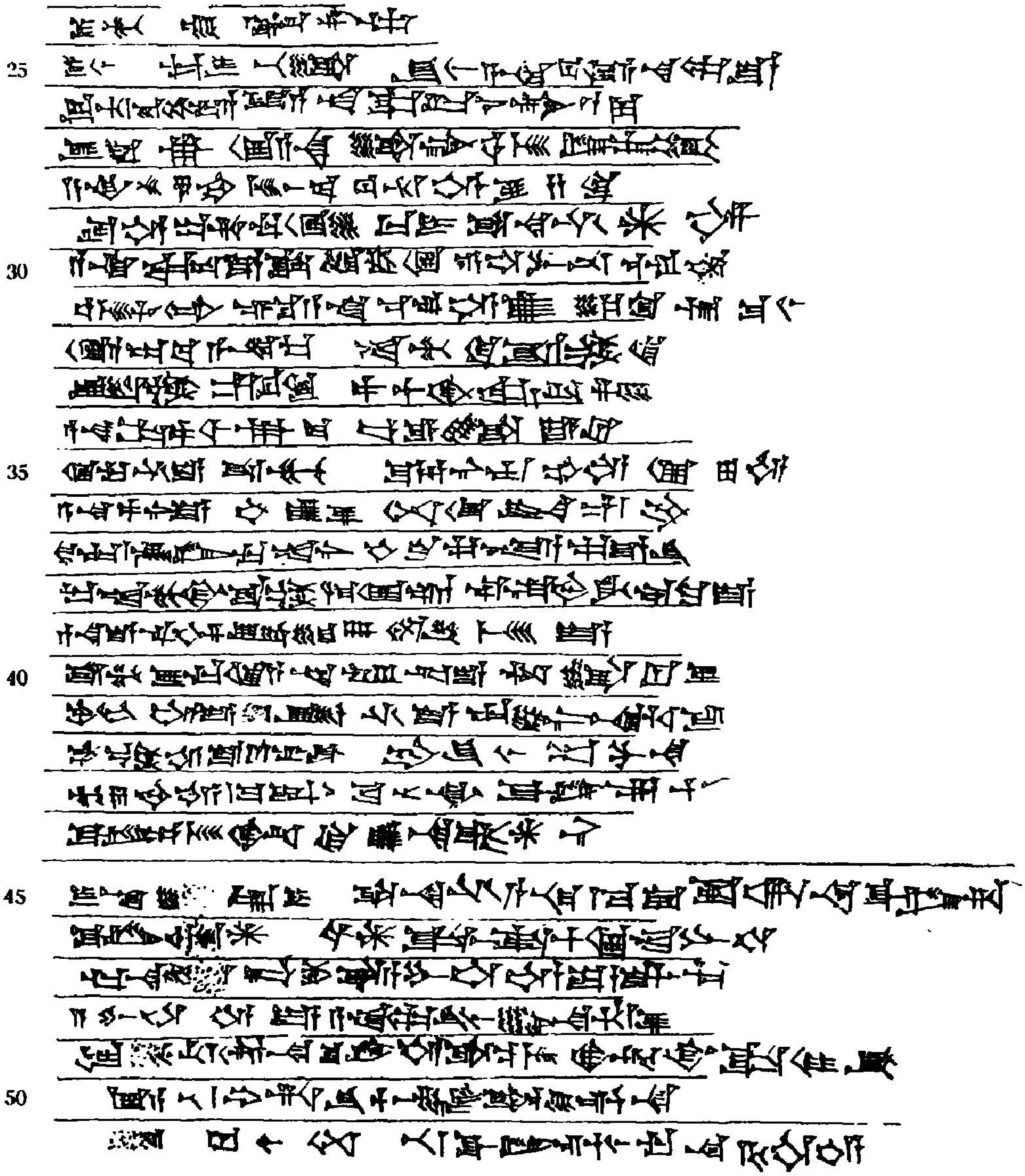

Right side: left column.

(٥) H. Klengel, Geschichte und Kultur Altsyriens, Wien-München 1980, S. 68.

(٦) الكتابة المنقوشة على التمثال نشرت لاول مرة من قبل سيدني سميث Sidney Smith عام ١٩٤٩ مع ترجمة ودراسة لها في كتابه : The Statue of Idri-mi, London 1949.

(٧) ايمار : مسكنة حاليا ، حوالي ٩٢ كم الى الشرق من حلب على الفرات . كانت عقدة مهمة للمواصلات النهرية والبرية بين سورية وبلاد ما بين النهرين . انظر حولها :
M. Heltzer, RLA 5 (1976 - 80), S. 65 ff.; RGTC 3 (1980), S. 109; 6 (1978) ,

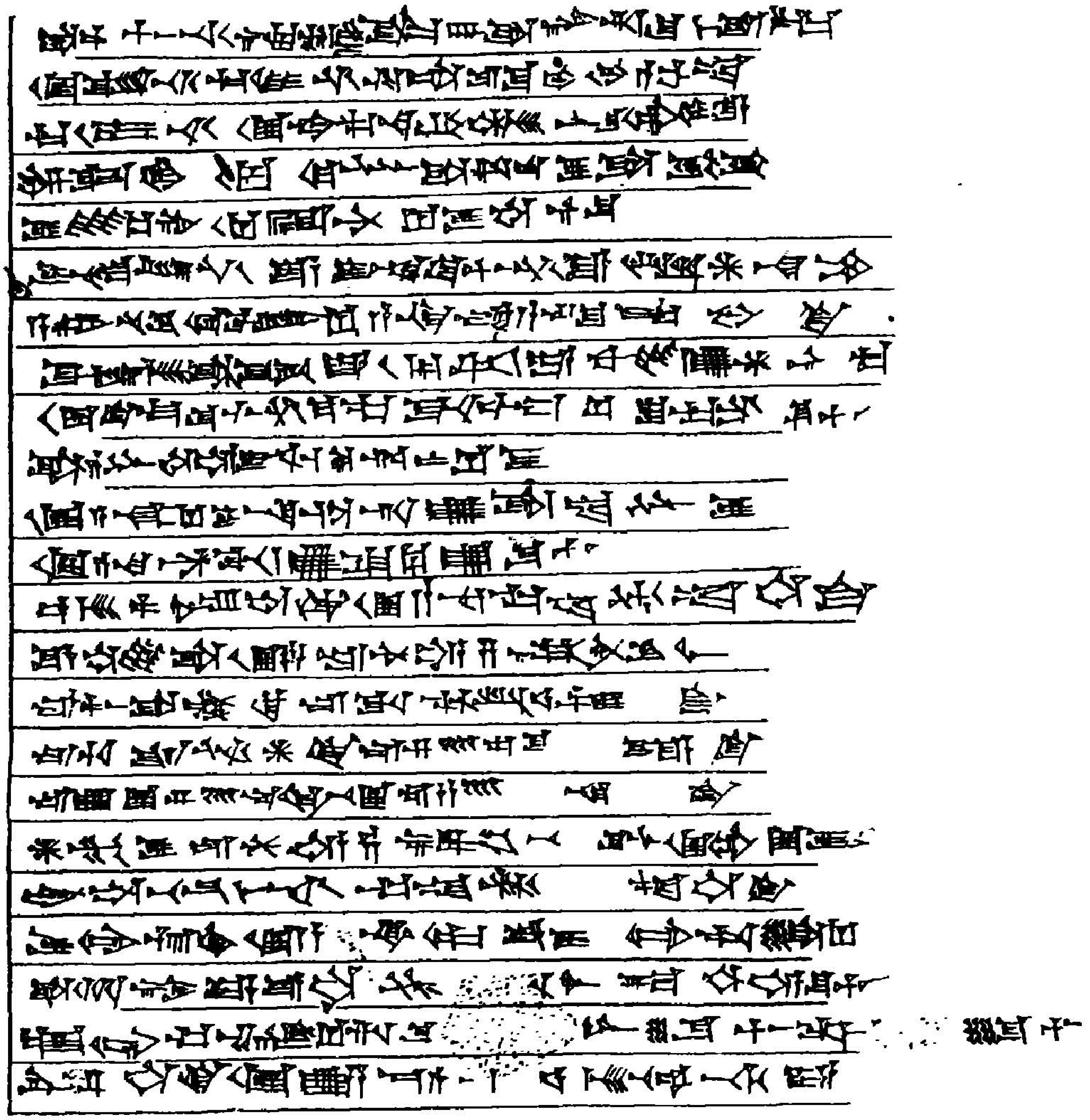

Left side : right column.

S. 140; A.Goetze, The Syrian Town of Emar, in: BASOR 147 (1957), P. 22-27.

(٨) H. Klengel, Historischer Kommentar zur Inschrift des Idrimi von Alalah, in: UF 13 (1981), S. 270 ff.;G.Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter, Darmstadt 1982, S. 35.

(٩) H. Klengel. UF 13 (1981), S. 273.

(١٠) Ibid. S. 274.

(١١) منطقة في كيليكية . انظر : RLA 5 (1976-80), S. 627 ff.

(١٢) H. Klengel, UF 13 (1981), S. 277.

(١٣) H. Klengel, Geschichte und Kultur Altsyriens, S. 68.

(١٤) اعتمدت في هـذا على النص الاكادي وعلى دراسة سيدني سميث وعلى الدراسة المنشـورة حديثـا

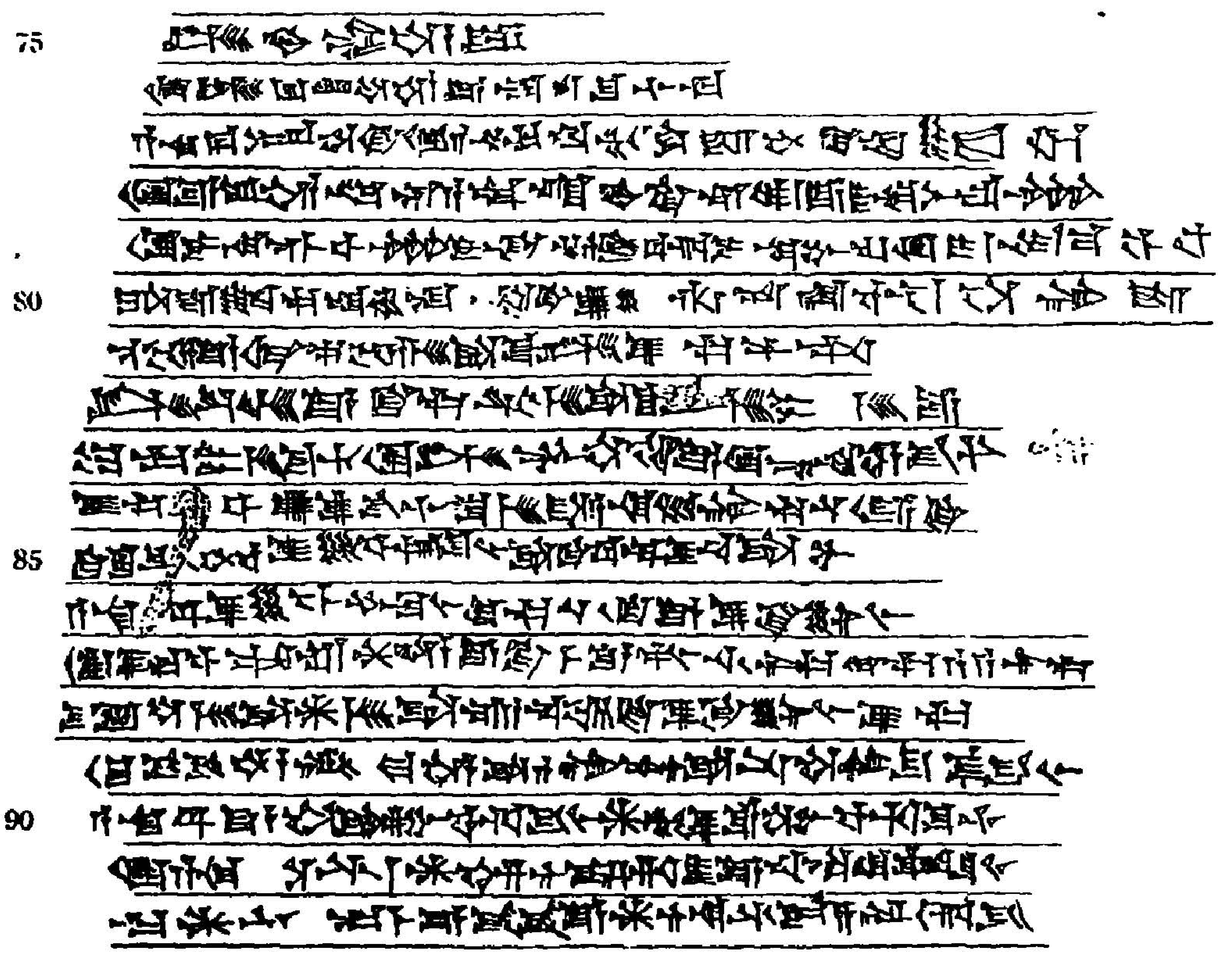

Left shoulder.

من قبل :

M. Dietrtch - O. Loretz, Die Inschrift der Statue des Königs Idrimi von Alalh, in: UF 13 (1981), S. 201-268.

وعلى محاضرات أستاذي الكبير الاستاذ الدكتور أينار فون شولر Einar vor Schuler حول هذا الموضوع في صيف عام ١٩٨٥ .

(١٥) جرت العادة عند علماء الآشوريات الاجانب أن يكتبوا النصوص المسمارية عند نشرها ودراستها بالحرف اللاتيني .

(١٦) نص ادريمي هو النص الوحيد المكتشف حتى الآن الذي يعود الى بدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد . لذلك تبقى بعض الاحداث المذكورة فيه غير واضحة تماما بسبب غياب امكانية المقارنة مع نصوص اخرى .

(١٧) هذه الاشارة ترد عادة قبل أسماء الرجال .

(١٨) mar كتبت بالسومرية دومو DUMU وتعني « ابن » . كذلك في السطر ٢٥ .

(١٩) كتبت بالسومرية دينجير DINGIR .

(٢٠) كتبت بالسومرية إر IR وتعني عبد ، خادم .

(٢١) كتبت بالسومرية إم IM وتعني إله الطقس . والدال الموجودة أمام الاسم هي اختصارا للكلمة DINGIR السومرية والتي تعني إله . وجود هذا الحرف قبل الاسم يعني أن الاسم إسم إله .

تيشوب هو ملك السماء وإله الطقس عند الحوريين . ان قراءة الاشارة إم IM الدالة على إله الطقس لا زالت موضع جدل ونقاش . هل قصد تيشوب سيد البانتيون الحوري أم أدد إله الطقس الرافدي ؟

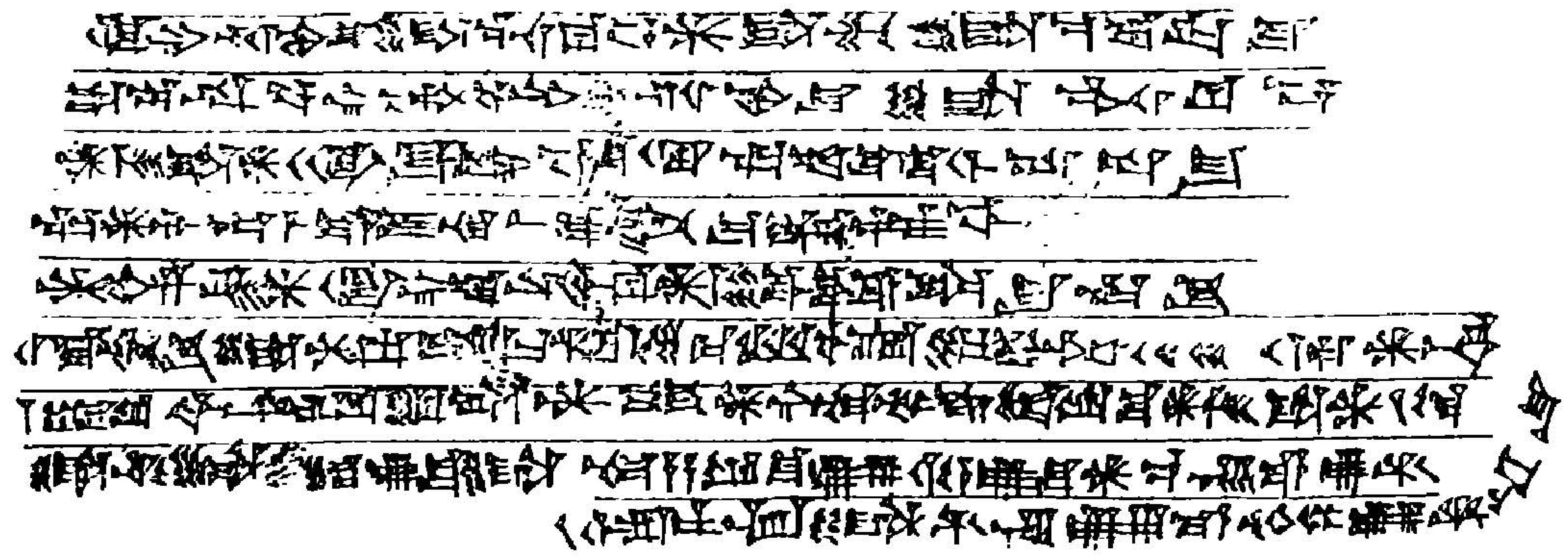

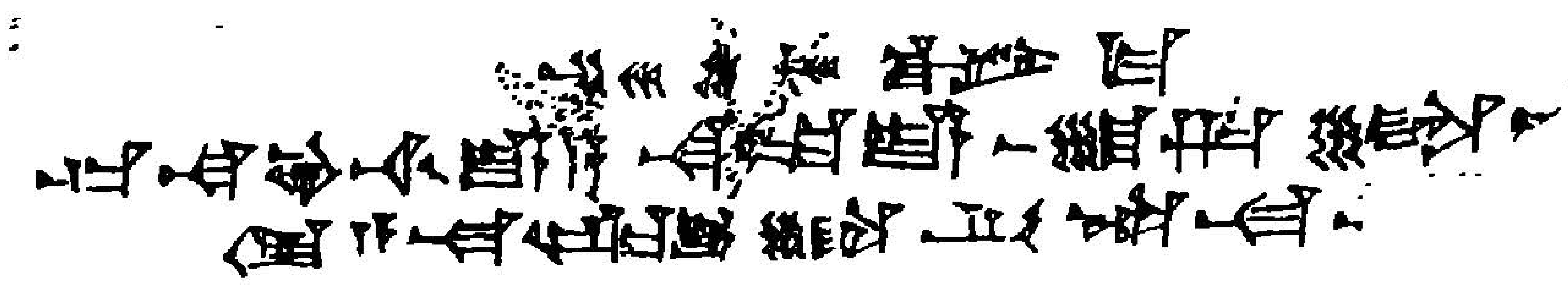

من المرجع أنها كانت تقرأ تيشـوب نظرا للوضـع السـياسي الذي كان سـائدا زمن كتابة هذا النص ، حيث النفوذ الحوري قويا في شمال سورية . انظر حول تيشوب .

E. V. Schuler, Die Mythologie der Hethiter und Hurriter, in: Wörterbuch der Mythologie, Band I, Götter und Mythen im Vorderen Orient, Herausgegeben von H.-W. Haussig, Stuttgart 1965, S. 176; G. Wilhelm, Grundzüge der Geschicht und Kultur der Hurriiter, S.69.

(٢٢) خيبات : ملكة السماء وزوجة إله الطقس تيشـوب في البانتيـون الحوري . انظر حولها :

E.V. Schuler, Wörterbuch der Mythologie I, S. 172; G.Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter, S. 78; J.Danmanville, RLA 4 (1972-75) , S. 326ff.

يرد ذكر خيبات أيضا في بعض نصـوص ايبـلا مما يدل على أن هـذه الالهة كانت معبودة في شـمال سورية منذ أقدم العصـور .

(٢٣) كتبت بالسـومرية إش IS8 والتي يمكن أن تقرأ عشـتار Istar أو شـاوشـكا . ولكن من المرجع أن المقصود منها كان شـاوشـكا نظرا للوضـع السـياسي الذي كان سـائدا . شـاوشـكا تعني « المساحة» باللغة الحورية وهي أخت تيشـوب ولها نفس صـفات عشـتار ، فهـي إلهة الحب والحرب عنـد الحوريين انظـر :

E.V. Schuler, Wörterbuch der Mythologie I, S. 176, 179; G. Wilhelm, Grundzüge der Geshichte und Kultur der Hurriter, S. 71.

(٢٤) كتبت بالسـومرية NIN وتعني « سـيدة » .

(٢٥) أورو URU كلمة سومرية تعني « مدينة » وتكتب عادة قبل أسماء المدن والاماكن .

(٢٦) كـي KI تعني « أرض » بالسـومرية ، تكتب عند نهاية الاسم للدلالة على أنه اسم أرض أو مكان.

(٢٧) بيـت bit كتبت بالسـومرية É وتعني « بيت ، قصر » .

(٢٨) masiktu ماشيقتو تقابلها في العربية كلمة « مشقة » .

(٢٩) أميلوت amelut كتبت بالسومرية LU . LU (hi.a) تعني « رجل » و hi.a علامة للجمع .

(٣٠) كـتبت هكذا hi.a . a-ha-te (hi.a) - si علامة الجمع تكتب ولا تلفظ .

(٣١) ترجمة الاسـطر ٢ ـ ٦ لا تزال غير واضحة تماما . هناك من يترجمها على الشـكل التالي : في حلب بيت أبي حدثت اضطرابات وهربنـا . سـادة إيمـار كانوا مـن أقرباء أمي وهكـذا سـكنا في إيمـار . انظـر :

Dietrich- Loretz, UF 13, S. 204.

(٣٢) إلي eli كتبت بالسـومرية UGU تعني « علي » .

(٣٣) رابو rabû كتبت بالسومرية GAL.GAL (hi.a) وتعني « أكبر » .

(٣٤) ميش mes : علامة للجمع سومرية الاصـل واسـتخدمت في اللغة الاكادية .

(٣٥) هنا يريد إدريمي أن يقول أنه كان أذكى وأكثر فطنة من أخوته الاكبر منه . نجد ذلك أيضا في قصة يوسف في التوراة ولدى شوبيلو ليوما العاهل الحثي .

(٣٦) انظر الهامش رقم ٢٧ .

(٣٧) شاكاناكي sakkanakki كتبت بالسومرية NISAG وتعني « حاكم مدينة ، موظف » .

(٣٨) رابو rabû كتبت بالسومرية GAL وتعني « كبير » .

(٣٩) ماري mare كتبت بالسومرية DUMU hi.a وتعني « أبناء » .

(٤٠) انظر الهامش رقم ٢٠ .

(٤١) سيس sisi كتبت بالسومرية ANSE.KUR.RA وتعني « حصان » . الترجمة الحرفية لهذه الكلمة السومرية هي « حمار البلاد الجبلية ، حمار الشرق ، حمار البلاد الاجنبية » . في هذا المعنى اشارة الى أن الحصان دخل بلاد ما بين النهرين من جهة الشرق .

(٤٢) نَرْكَبْتي (gis) narkabti كتبت بالسومرية GIGIR وتعني « مركبة » جيش gisقبلها تعني « شجرة ، خشب » ، وتكتب عادة قبل أسماء الاشجار والاشياء المصنوعة من الخشب .

(٤٣) كيزي kizi كتبت بالسومرية (lù) SAHAR وتعني « خادم » .

(٤٤) صابي sâbê كتبت بالسومرية ÉRIN(mes) وتعني أشخاص ، اناس ، عساكر .

(٤٥) السوتيون :. قبائل بدوية قطعانهم من الاغنام . كانت مناطق انتشارهم واسعة . كانوا يظهرون في منطقة الفرات الاوسط وشرقي دجلة وضمن بادية الشام . تدل الوثائق على مناطق انتشارهم وهي تعود الى قرون مختلفة . وحسب نصوص ماري تجول السوتيون عبر بادية الشام من ماري وجبل بشري حتى تدمر وقطنة .

انظر حول السوتيين :

J. - R. Kupper, Les nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari, Paris 1957. P. 83ff; H. Klengel, Zwischen Zelt und Palast, Leipzig-wien 1972, S. 69 ff.; Gronebg, RGTC 3 (1980), S. 212.

(٤٦) زاكار Zakkar : من المحتمل أنه أمير المنطقة التي مر بها إدريمي . من الجدير بالذكر أن زاكار هو اسم أيضا لحاكم آرامي حكم في حماة في بداية الالف الاول قبل الميلاد . انظر حوله :
KAI Nr. 202, Kommentar, S. 205ff.

(٤٧) كنعان : منطقة في جنوب غرب سورية يرد ذكرها في نصوص مسمارية ونصوص أخرى تعود الى الالف الثالث والثاني والاول قبل الميلاد . انظر :
RLA5(1976-80) , S. 352 ff.; RGTC 3 (1980), S. 139.

(٤٨) أميًا Ammiya : هي ربما أميون الواقعة بالقرب من طرابلس . انظر :
RLA 5, S. 353; Klengel, UF 13, S. 274.

(٤٩) حرفيا « أبناء » كذلك في السطر ٢٢ .

(٥٠) موكيش Mukis : هي المنطقة المحيطة بـ ألالاخ . ألالاخ كانت بمثابة المركز لهذه المنطقة .

(٥١) ماري mârê كتبت بالسومرية HÉ = DUMU (mes) . أما كلمة ماري الثانية الواردة في هذا السطر فكتبت DUMU(mes)

(٥٢) نيخي Nihi : ترد في المصادر الاخرى باسم Niya وهي منطقة تقع الى الجنوب من تل مرديخ « إيبلا » .

(٥٣) أماي a-ma-e (ki) هي منطقة تقع الى الشمال من إيبلا .

(٥٤) يمكن القول أن هؤلاء الناس هربوا من حلب والمناطق المحيطة بهـا نتيجة التمرد الـذي قام فيهـا وسقوطها تحت السيطرة المتيانية ، وسكنوا في أميًّا الواقعة في أرض كنعان بعيـدا عن النفـوذ المتيالي . وربما كان هؤلاء من أنصار إليم ـ إليما لذلك فانهم رحبوا بادريمي عندما رأوه .

(٥٥) انظر الهامش رقم ٣٢ .

(٥٦) انظر الهامش رقم ٤٤ .

(٥٧) خابيرو **hapiru** كتبت بالسومرية **(lù)SA.GAZ** الخابيرو جماعات من اللصوص وقطاع الطـرق كانت تعيش خارج التنظيمات الاجتماعية المعروفة وتمارس أعمـال السلب والنهب حيث أمكـن . وأحيانا كانت جماعات الخابيرو تخدم كمرتزقة لدى الحكام والملوك . يرد ذكـر الخابيرو في نصوص عديدة من بلاد الرافدين وسورية ومصر .

موضوع الخابيرو كان موضع بحث المؤتمر الرابـع للدراسات الآشـورية الذي عقد في باريس عـام ١٩٥٢ . وقد جمعت أبحاث ذلك المؤتمر من قبل **Bottero** انظر :
Kupper, Les nomades, P. 249 ff.; Bòttero, R1A 4(1972-75),S.14 ff.

(٥٨) شيبي شـناتي **MU 7 KAM(mes)** كتبت بالسومرية səb, ə sanatı

(٥٩) إصّوراتي **issurāti** : كتبت بالسومرية **Musen(hi.a)** وتعني عصافير .

(٦٠) بوخادي **puhādi** كتبت بالسومرية **$SILA_4$(hi.a** وتعني حمْلان (خراف صغيرة) .

(٦١) نوع من التنجيم واستطلاع المستقبل وذلك بمراقبة طـيران العصافير وتفحص الحملان التي تذبـح كقرابين وخاصة الاحشاء منها لرؤية ما يحمل المستقبل .
النظر في أحشـاء القرابين لاستطلاع المستقبل كان شائعا في بلاد الرافدين .

(٦٢) انظر الهامش رقم ٢١ .

(٦٣) قاقّادي **qaqqadi** كتبت بالسومرية **SAG.DU** وتعني رأس .

(٦٤) إليباتي **(gis) elippati** كتبت بالسومرية **MÄ(hi.a)** وتعني سفن .

(٦٥) المعنى هنا أن تيشوب عاد ليشمل إدريمي برعايته ورحمته وأصبح راضيا عنه . يبدو أن إدريمـي كان يجري اتصالات في هذه الفترة مع ملك متياني من أجل العودة الى الالاخ .

(٦٦) انظر الهامش رقم ٤٤ .

(٦٧) عساكر نولا **Nulla** : هم مجموعات من الخابيرو مدربة بشكل جيـد على القتال . وربما كانـوا يسكنون المناطق الجبلية الواقعة خلف أميًّا والغنية بالاخشـاب الصالحة لبناء السفن . من المعتقد أنهم كانوا غير مندمجين بشكل ثابت فيوحدات سياسية . انظـر :
Dietrich- Loretz, UF 13, S. 214; N. Na'aman, Aroyal Scribe and His Scribal Products in the Alalah IV Court, in: OA 19(1980), P.113 -114; H. Klengel, UF 13. S. 275.

(٦٨) انظر الهامش رقم ٦٤ .

(٦٩) تامتـا **tâmta** كتبت بالسومرية **A.AB.BA** وتعني بحـر .

(٧٠) خورشان **ḫursan** كتبت بالسومرية **HUR.SAG** وتعني جبـل .

(٧١) خازي **Hazi** : جبل الاقرع . هذه أقدم اشارة اليه معروفة حتى الآن . في النصوص الابجديـة المكتشـفة في أوجاريت يدعـى ، جبل صافـون **Spn (Saphon)** . في العصرين اليونانـي والرومانى كان يسمى جبل كاسيوس **Kasios/Casius** جبل الاقرع كان مهما للملاحة البحرية

كنقطة توجيه للبحارة . ولكن دوره الاهم كان في المجال الديني ليس فقط في أوجاريت القريبة منه حيث كان يعتبر مركز للاله بعل ، ولكن أيضا لدى الحثيين .

(٧٢) ألبي alpi كتبت بالسومرية GU (hi.a) وتعني ابقار .
(٧٣) إمِّري immeri كتبت بالسومرية UDU(hi.a) وتعني أغنام .
(٧٤) إشتين أومي istên ûmi كتبت بالسومرية UD 1 KAM وتعني يوم واحد .
(٧٥) إشتين isten كتبت بالسومرية I(en) وتعني واحد .
(٧٦) أميلي amêli كتبت بالسومرية LU وتعني رجل ، انسان .
(٧٧) آلي âli كتبت بالسومرية URU(ki) وتعني مدينة .
(٧٨) أخِّي ahhi كتبت بالسومرية SES (mes) : إخوة .
(٧٩) يريد إدريمي هنا أن يقول أن سكان مملكة أبيه كانوا يحبونه لذلك رحبوا به ترحيبا حارا عند عودته اليهم .
(٧٩ب) انظر الهامش رقم ٩٠ .
(٨٠) شبي شَناتي sed'e sanâti كتبت بالسومرية MN 7 KAM (hi.a) سبع سنين .
(٨١) باراتارنا Barattarna : كان ملك حوري ــ متياني عام ١٤٧٠ ق٠م .
(٨٢) شارو sarru كتبت بالسومرية LUGAL : ملك . كذلك في السطر ٥١ .
(٨٣) شار sar كتبت بالسومرية LUGAL : ملك .
(٨٤) انظر الهامش رقم ٤٤ .
(٨٥) شاري sarri كتبت بالسومرية LUGAL(ri) : ملك .
(٨٦) انظر الهامش رقم ٨٣ .
(٨٧) يبدو أن الكاتب نسي كلمة خوري (كي) هنا فأضيفت ليستقيم المعنى . انظر :
Dietrich-Loretz, UF 13, S. 212.

(٨٨) أنواندا Anwanda : مبعوث إدريمي الى ملك حوري ــ متياني . انظر :
S.Smith, the Statue of Idri-mi, P.17.

(٨٩) انظر الهامش رقم ٣٢ .
(٩٠) Ditrich - Loretz يترجمان السطر ٤١ على النحو التالي :
« اخوتي تآخوا معي » ص ٢٠٥ . بشكل مشابه يترجمه S.Smith في الصفحة ١٧ . ولكن هذه الترجمة لا تحمل معنى ، فهم إخوة أصلا ولا يحتاجون لان يتآخوا .
كذلك فان السطر ٤٨ قد ترجم من قبلهما كما يلي :

« آبائي كانوا قد تآخوا فيما بينهم » . هذا أيضا لا يتضمن أي معنى . نرى أن الفعل الوارد في هذين السطرين (٤١ ، ٤٨) يدل على الاستراحة وليس على التآخي .
(٩١) شاري sarri كتبت بالسومرية LUGAL(hi.a) وتعني ملوك .
(٩٢) ماميتا mâmita كتبت بالسومرية NAM.ÉRIM قسم ، يمين ، حَرَم .
(٩٣) الهدية الترحيبية تعني هنا أن إدريمي أرسل هدية ملكية إلى الملك المتياني كنوع من اعلان الولاء والخضوع له . وقبولها من قبل الملك المتياني دليل على أنه راضٍ عن تابعه إدريمي .
(٩٤) كينونو kinûnu : « موقد نار » في اللغة الاكادية . شهر كينونو (في الارامية كانونا ، وفي العربية

كانون) : هواسم الشهر العاشر في التقويم البابلي وكذلك شهر عيد ، وفي ماري شهر عيد للاله داجان Dagan .

انظر : AHw, S. 481-82.

(٩٥) نيقى niqu كتبت بالسومرية SISKUR : ضحية ، قربان .

(٩٦) انظر الهامش رقم ٢٧ .

(٩٧) المقصود بعودة البيت الهارب خضوع العائلة الملكية التي هربت من حلب من جديد للملك المتياني .
انظر : H. Klengel. UF 13, 5. 276.

(٩٨) أميلوتي (amilûtu) كتبت بالسومرية LU(ti) : انسانية .

(٩٩) شارا sarrā كتبت بالسومرية LUGAL : ملك .

(١٠٠) من الواضح أن إدريمي أقسم يمين الولاء لملك متياني لذلك عيّن ملكا على الالاخ كتابع للامبراطورية الحورية ـ المتيانية .

(١٠١) شارّو (sarrû) كتبت بالسومرية LUGAL(mes) : ملوك .

(١٠٢) إميتّي imitti كتبت بالسومرية ZAG : الناحية اليمنى .

(١٠٣) شوميلي sumêli كتبت بالسومرية GUB : الناحية اليسرى .

(١٠٤) دور dûr كتبت بالسومرية KI.BAD : جدار ، سور .

(١٠٥) صابا saba كتبت بالسومرية ÉRIN (mes bá) : عساكر ، أناس ، أشخاص .

(١٠٦) المقصود بـ « أرض حاتي » البلاد الخاضعة للامبراطورية الحثية .

(١٠٧) شيبي seb'e : سبعة ، وكتبت رقما .

(١٠٨) كتبت حسب رأي سيدني سميث كالتالي : (al)hal(HI.A)-sa ومعناها «قلاع». بينما يرى ديتريش ولورتيس Dietrich-Loretz ان قراءة هذه الكلمة على الشكل التالي : URU (didli. hi.a) ومعناها « أماكن » . نتيجة مراجعة النص الاكادي والتأكد منه نميل الى رأي سيدني سميث .
وهذا ما يراه أيضا الاستاذ الدكتور أينار فون شولر .
هذه الكلمة ترد أيضا في السطر ٦٩ .

(١٠٩) مواقع القلاع (المدن) المذكورة في الاسطر ٦٦ ـ ٦٨ لا تزال غير معروفة حتى الان .

(١١٠) انظر الهامش رقم ٣٢ .

(١١١) المقصود هنا أن الامبراطورية الحثية لم تبعث بقواتها لمقاومة إدريمي حيث كانت تمر في ذلك الوقت بمرحلة من الضعف نتيجة الفوضى والصراعات الداخلية . وقد قام إدريمي بحملته ضد الاراضي الحثية على ما يبدو بتشجيع وتأييد من امبراطور حوري ـ متياني .

(١١٢) انظر الهامش رقم ٤٤ .

(١١٣) حرفيا « على فرقي المساعدة » .

(١١٤) انظر الهامش رقم ٧٧ .

(١١٥) انظر الهامش رقم ٢٧ .

(١١٦) كوسي (gis)Kussi : كتبت بالسومرية GU.ZA كمفرد أولا و GU:ZA(mes) كجمع ثانيا ، وتعني عرش ، كرسي .

(١١٧) شارّي sarri كتبت بالسومرية LUGAL(mes) : ملوك .

(١١٨) انظر الهامش رقم ٧٨ .

(١١٩) انظر الهامش رقم ٥١ .

(١٢٠) أشيبي āsibi كتبت بالسومرية TUS(mes) وتعني « سكان ، مقيمون » .

(١٢١) شوبتا subta كتبت بالسومرية KI.TUS : مسكن .

(١٢٢) طابتا tabta كتبت بالسومرية DU_{10}(ta) : جيد ، طيب .

(١٢٣) آ لي āli كتبت بالسومرية URU(didli. hi.a) : مدن .

(١٢٤) أبوتي abbûte كتبت بالسومرية A.A : آباء .

(١٢٥) إلي ili كتبت بالسومرية DINGIR(mes) آلهة .

(١٢٦) نيقي nipê كتبت بالسومرية والاكادية: SISKUR (hi.a ni-iq-qi yi.a) وتعني أضاحي ، قرابين .

(١٢٧) هذه اشارة الى عبادة وتقديس الاموات وتقديم الاضاحي والقرابين لهم . انظر :
R. Mayer-Opficius, UF, S. 287 ff.

(١٢٨) انظر الهامش رقم ٢١ .

(١٢٩) انظر الهامش رقم ١٨ .

(١٣٠) سالمي salmi كتبت بالسومرية ALAM وتعني تمثال ، شكل ، صورة . يقابل هذه الكلمة في العربية كلمة صنم .

(١٣١) شامو samû كتبت بالسومرية والاكادية AN samu : سماء ، إله السماء .

(١٣٢) المقصود هنا العالم السفلي أي عالم الاموات .

(١٣٣) إلو ilû كتبت بالسومرية DINGIR (mes) : آلهة .

(١٣٤) شامي samê كتبت بالسومرية AN : سماء ، إله السماء .

(١٣٥) إرصيتي erseti كتبت بالسومرية KI : أرض . بالعربية أرض .

(١٣٦) شاروت sarrût كتبت بالسومرية LUGAL(ut) : مملكة .

(١٣٧) انظر الهامش رقم ٢١ .

(١٣٨) بيل bêl كتبت بالسومرية EN : سيد .

(١٣٩) انظر الهامش رقم ١٣٤ .

(١٤٠) كتبت بالسومرية والاكادية KI er-se-ti : أرض .

(١٤١) انظر الهامش رقم ١٣٣ .

(١٤٢) رابوتي rabûti كتبت بالسومرية GAL. GAL.E.NE وتعني « كبار » .

(١٤٣) زير zêr كتبت بالسومرية NUMUN(mes) وتعني ذرية سلالة .

(١٤٤) شاروا Sarruwa : كان الكاتب الملكي في الالاخ . انظر حوله :
N. Na'aman, A Royal Soyal Scribe and His Scribal Products in the Alalah IV Court, in: OA 19 (1980), P.107 ff.

(١٤٥) طوبشارو tupsarru كتبت بالسومرية DUB.SAR : كاتب .

(١٤٦) يقرأ ديتريش ولورتيس هذه الكلمة دومو : ابن ، بينما يرى الاستاذ فون شولر أن هذه الكلمة هي TUR السومرية والتي يقابلها في الاكادية Seheru : صغير .

(١٤٧) انظر الهامش رقم ٢٠ .

(١٤٨) كتبَ الرقم « ١٠ » الذي هو رمز إله الطقس . انظر أيضا الهامش رقم ٢١ .

(١٤٩) كتبَ الرقم « ٢٠ » الذي يشير عادة الى إله الشمس (شماش لدى الاكاديين وشيمجي لدى

الحوريين . انظر حول شيمجي :

G. Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter,S. 74 ff.;

E.V. Schuler, Wörterbuch der Mythologie I, S. 176.

(١٥٠) كتبت الرقم « ٣٠ » الذي يرمز عادة الى إله القمر (سين Sin لدى الاكاديين وكوشوخ لدى الحوريين . انظر حول كوشوخ :

G. Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter,S.74.

(١٥١) انظر الهامش رقم ٢٣ .

(١٥٢) انظر الهامش رقم ١٤٥ .

(١٥٣) انظر الهامش رقم ١٣٠ .

(١٥٤) انظر الهامش رقم ١٣٣ .

(١٥٥) انظر الهامش رقم ١٣٤ .

(١٥٦) انظر الهامش رقم ١٣٥ .

(١٥٧) أوداماقو udammaqû كتبت بالسومرية $SI6_5$ وتعني « يكون جيدا ، طيبا » .

(١٥٨) شيمجي Simigi كتبت بالسومرية UTU: إله الشمس . انظر أيضا الهامش ١٤٩ .

(١٥٩) انظر الهامش رقم ١٣٨ .

(١٦٠) أوبالاط uballat كتبت بالسومرية TIL.LA : حياة .

(١٦١) شلاشا شناتي salasa sanati كتبت بالسومرية MU 30 KAM (mes) وتعني « ثلاثون سنة » .

(١٦٢) شارا sarrā : كتبت بالسومرية LUGAL: ملك .

(١٦٣) طوبي tuppi كتبت بالسومرية DUB وتعني لوح .

(١٦٤) انظر الهامش رقم ٣٢ .

مختصرات اسماء المصادر والمراجع الواردة في الهوامش :

AHw = W.V. Soden, Akkadisches Handwörterbuch.
BASOR = Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
JCS = Journal of Cuneiform Studies.
KAI = H.Donner- W.Rölig, Kanaanäische und Aramäische Inschriften, 1-3, Wiesbiden 1966-1969.
OA = Oriens Antiquus.
RGTC = Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes.
UF = Ugarit-Forschungen.
RLA = Reallexikon der Assyriologie.

بعض الأسس النظرية للصناعات الحربية في العهدين الأيوبي والمملوكي

المهندس أزاد علي

لا يختلف اثنان قط على أهمية السلاح ودوره الفعال في مجريات الاحداث وحركة التاريخ ، فلا غرابة اذن أن نجد في الحضارات والدول ، منذ أقدم العصور ، اهتماما كبيرا بالسلاح ، وصناعته وتطويره ، لان السلاح كان ولا يزال الاداة الاقوى للتغير وللدفاع عن النظم الاجتماعية ، وبالتالي بقاء الحضارات والدول مرهون بقدراتها الدفاعية اي بصناعاتها الحربية ومدى اكتفائها الذاتي وتوفر السلاح بين ايدي ابنائها .

ومن المعروف أن الاهتمام بالجوانب العسكرية وصناعة السلاح بلغ مستوى رفيعا في الحضارة العربية الاسلامية لتلبية متطلبات الفتوحات الاسلامية ، ومن ثم حماية الرعايا والاجزاء البعيدة من الدولة ضد الغزاة ، واستمدت هذه الاهتمامات بالعلوم العسكرية وصناعة السلاح مشروعيتها من فكرة الجهاد وكونها فريضة على كل مسلم . فلا نصادف كتابا أو مخطوطا في هذه العلوم الا وقد استهل وافتتح بمجموعة من الآيات واحاديث تؤكد فضل الجهاد وضرورة تعلم الفروسية وفنون القتال ، وتحبيذ اقتناء السلاح وصنعه اضافة الى الاستشهاد بالاحاديث النبوية التي تبين ان لصانع السلاح أيضا الفضل مثل المجاهد وأنه سيدخل الجنة ، وقد أورد التلواني في « رمي النشاب» أن الرسول «ص» : « وكان عنده ثلاث قسي معقبة تدعى الروحا وقوس شوحط تسمى البيضاء وقوس نبع تسمى الصفراء »(١) ، ليكون كل ذلك حافزا للمسلمين لاقتناء الاسلحة وتعلم فنون الرمي والاقتداء بالرسول الكريم .

ومما لا شك فيه أيضا أن العلوم العسكرية تطورت وتشعبت في المراحل اللاحقة لبدايات الاسلام . ويمكن اعتبار العهد الايوبي بداية النهضة التكنولوجية العسكرية لان الزيادة التي حصلت في الاهتمام بالجوانب العسكرية كانت نتيجة للوضع التاريخي العام . ولضرورات الامن والدفاع ولمقاومة غزو الفرنجة . وكانت محصلة هذه النهضة مدرسة عسكرية متطورة من كافة الجوانب النظرية والتطبيقية ، فتم صنع السلاح وتأمين العتاد بكثرة وتجريبه في ساحات القتال طوال قرنين من الزمن من تاريخ تلك الحروب الطويلة . وظهرت كتب نظرية في الفروسية والسياسة العسكرية والتعبئة ،

وحتى التجسس ، ودرست في المدارس الدينية كمقررات ، مثل « التذكرة الهروية في الحيل الحربية » لعلي بن أبي بكر الهروي ، وهي تظهر التطور الذي وصلت اليه تلك العلوم وتعطي فكرة عن الاسلحة والعتاد المتوافر في تلك الايام :
« ... ولا يهمل أمر الصناع والمقدمين كالمعمارية والمنجنيقية والزراقين والترسة ، والنقابين . ويجب على السلطان أن يتفقد خزائن السلاح والسيوف والرماح والكبودة والزرد والعدد والتراس والحبويات والجواشن ، والجفتيات/ستارة/ وجياد الطوارق والحراب ، والقسي وأوتارها والجروخ والزيارات ، والنبل والحسك وآلة النقوب والكلاليب للحروب ،وأخشاب المنجنيقات ، والعرادات وحبال القنب وكلما يطلب من آلة الحرب وكثرة الحجارة الكبار والكفيات الصغار ، والحلق والمسامير والزفت والقار والكلس وجلود الجواميس والجمال والبقر والاوعال ، والنفط وآلته والقدر وحوائجها وليعتبر الاهراء وما فيها من الحبوب ، كالحنطة ، والشعير والعدس ، والجلبان وبيوت الاتبان ، وليعتبر المخازن وما فيها من الملح ، والاسمان والزيوت والادهان وكثرة الشحوم ، والنمك سود من اللحوم والكبود المالحة والاطراف المشرحة ... »(٢)

الا أن مهمة دارسي تاريخ التكنولوجيا بشكل عام والصناعات الحربية بشكل خاص لا تقتصر على ذكر أنواع الاسلحة ، وطرائق استعمالها ، بل تتعدى ذلك للوصول الى دراسات مقارنة بين أنواعها والمواد التي صنعت منها ، وطرق الانتاج ، وتتبع مسار تطورها جيلا بعد جيل . كما تبقى مهمة التاريخ العلمي غير مكتملة في اعتقادنا اذا لم تشتمل على البحث عن الاسس النظرية لصناعة السلاح واستعمالاته .

ونقصد بالاسس النظرية المفاهيم العلمية في اطارها الواسع المفهومي ، وهذه المفاهيم التي تكون في أشكالها الجنينية ذات أبعاد وسمات معرفية ، ولها طابع فيزيائي عام . وربما تحتوي بين جنباتها أفكارا رياضية لم تستقل وتتبلور بعد في رموز ومعادلات .

أن محاولتنا هذه هي خطوة أولية في هذا الطريق ، نهدف منها أولا الى الاشارة الى هذه البنى واتباع منهجية علمية للكشف عنها واعادة صياغتها . وذلك بقراءة النص التراثي العلمي بموضوعية ، دون اسقاط مباشر للمفاهيم النظرية العلمية المعاصرة على النص القديم — على الرغم من أنه لا مفر من ذلك وبدرجات متفاوتة — ولتكون عاملا مساعدا على الكشف عن المضمون العلمي للنص التراثي ، ودون محاولة السمو بها وتحميلها أكثر مما تتحمل من المضامين العلمية . لنقل انها قراءة متوازنة للتراث العلمي ، تجاهد للحفاظ على استقلالية النص وربطه بسياقه التاريخي ، ومحاولة لاستكشاف عوالمه الداخلية العلمية . وسنتطرق فيما يلي لثلاث نقاط :

١ ـ الطرق التجريبية في اختبار السلاح :

ان طرق تجريب السلاح ، تكشف لنا ، أول ما تكشف ، عن عقلية الصانعين والمجربين لذلك سنشير الى بعض هذه التجارب الهامة ، وخاصة التي ذكرها الطرسوسي في « التبصرة » وقد نقلها عن أستاذه الشيخ حسن الابرقي(٣) : « يجب أن يكون طول القوس العربية ستة أشبار ونصف شبر الرامي . وأقوى القسي العربية ما بلغ وزن جره مائة وعشرين رطلا وأضعفها ما كان وزن جره خمسين رطلا والوسطى ما بينهما وصفة معرفة أوزان القسي أن تأخذ القوس فتوترها وتعلقها في وتد شديد في الحائط . . . خذ نشابة وضع في فوقها الوتر والزقها بجانب الديمك بخيط شدا رخوا ثم اشدد على الوتر عند فوق النشابة بسير وثيقة محكمة جدا ثم علق بالشرابة الواح رصاص كلما علقت لوحا نظرت الى مقدار ما ينزل من النشابة فتزيد لوحا ثانيا ولا تزال تفعل ذلك الى أن ينتهي رأس النصل الى نصف الديمك فاذا بلغت الى هذا الموضع خططت الالواح واحدا واحدا وتركت ترجع على مهل الى أن تعود موترة ثم تنظر كم وزن الالواح التي علقتها على الحرير وصحة الوزن فما كان مبلغه من الامناء والارطال فهو مقدار قوة تلك القوس وقوة من يجرها . »(٤).

وهذه الطريقة التجريبية نصادفها في أغلب المخطوطات التي جاءت بعد التبصرة في العهد المملوكي ، والنص السابق بغنى عن التعليق ، لوضوح الافكار الفيزيائية التطبيقية فيه ، ولحسن سير التجربة التي تم الربط فيها بين قوة الثقالة واستطالة الوتر الحريري في القوس ، وبالتالي تعبر التجربة عن قوة توتر الوتر بالاثقال ب« الحيل » وخاصة عند التلواني : « فتكون تلك الارطال زنة حيل ذلك القوس . » (٥) فاذا كانت الاسطالة اللازمة « الشد » تتطلب مئة رطل فالمساواة هنا صحيحة ، ولكن تحليل قوة التوتر داخل الوتر ربما تحتاج الى توضيح أكثر دقة وتحديدا . وتتطلب صياغة معادلة رياضية تدرس توازن القوى في تلك العقدة .

ومع ذلك تبدو التجربة خطوة متقدمة في الفيزياء التطبيقية في المرحلة المعنية . ويدهش القارىء من دقة تجارب اختيار أنواع الخشب الصالحة لصناعة الرماح والنبال ، وطرق حساب كثافاتها بالسقوط أو الاطلاق أو الوزن المباشر . ومن النص التالي نتأكد من درجة الاهتمام بمادة الخشب وكيفية اختياره : « اعلم ان أجود أنواع الخشب ما اجتمع فيه الصلابة والخفة ورقة بشرته وصفا أديمه وكان طويل العرق غير رخو ولا منتفش . . . وفي الخشب ما يكون بطيء السير وخفيف السير فاذا كان عندك عودان وأردت أن تعلم أيهما أخف فاعمد الى حلقة ضيقة بقدر غلظ السهم فلا تزال تصنع من السهم قليلا وتدخله في الحلقة مرغوما ويصنع كذلك حتى يكمل السهمان

على هذا النحت فاذا أكملتهما فارجعهما في الميزان فأيهما أخف فاستعمله ،والا فريشهما بريش موزون واجعل منهما نصلا موزونا وارم بهما فأيهما كان أسرع فاستعمله .»(٦).

ونكتفي بهذين المثالين عينتين للطرائق التجريبية في الصناعات الحربية وتحديد مواصفاتها الهندسية .

٢ ـ المفاهيم الفيزيائية :

في العلوم العسكرية لا بد من حجة أو سند نظري علمي ، لا لتفسير طرق استعمال السلاح فحسب ، بل لتوضيح آلية صنعه أيضا . وهذه الحجج ، ان اردنا تسميتها بذلك ، هي جملة من المفاهيم الفيزيائية العامة التي لم تدخل طور القوانين بعد ، وقد يكون البعض منها ما زال على تخوم العلوم الفيزيائية ، ولكنها تحاول الدخول في دائرتها بمحاولتها شرح بنية المواد الخام الداخلة في جسم السلاح وتكوينه . وان عجزت تلك النظرات في خلق قناعات حول تماسك المواد وتفسير خواصها ، فانها تلجأ الى المقارنات الخارجية ومحاكاة الطبيعة . ونجد مثالا على ذلك (التفسير العلمي بالمحاكاة والبحث عن نقاط التشابه) بمقارنة القوس مع طبيعة الجسد البشري من ناحية التماسك والاحتفاظ بالقوام : « وافضل قسي اليد وأنفعها ما تركب من الخشب والعقب والقرن والغراء وفي ذلك حكمة بليغة وصنعة شريفة رفيعة وذلك أنها منشأة على نشأة الانسان، فانها قوامه وبناؤه على أربع العظم واللحم والعروق والدم وكذلك انشيت القوس لان الخشب بمنزلة العظم من الانسان والقرن بمنزلة اللحم والعقب المشتبك على جميع أعضائها بمنزلة العروق المشتبكة على جميع أعضاء الانسان والغراء فيها بمنزلة الدم الذي يلتيم جميعها وقد جعل لها بطنا وظهرا كالانسان »(٧) .

نلاحظ هنا التفسير العلمي في أبسط اشكاله انها « حكمة » فقط في الصنعة لانها توازي حكمة طبيعة الانسان من نواحيه الفيزيائية ـ الجسدية ، مع الاخذ بالاعتبار ان وجهة النظر هذه لا تأخذ في اعتبارها مفهوم كمال بنية الجسد البشري .

اذا تابعنا الموضوع في حدود هذه المفاهيم نصادف الكثير منها ، ولكننا نسعى للوصول الى أفكار أكثر قربا والتصاقا بالميكانيك والحركة ومقاومة المواد .والتي نجدها عند ابن أرنبغا الزردكاش في كتابه « الانيق في المناجيق » ، حيث يشير الى كيفية زيادة مدى القذيفة أو نقصانه باجراء بعض الترتيبات العلمية : « اذا أردت ان ترمي بعيدا فانك تضع الحجر في المنجنيق وترمي به الى مطلوبك فان اردت ابعد منه فانك تدهن في الثانية اصبع المنجنيق بالزيت ... وان أردت أبعد منه فانك تضع في اصبع المنجنيق

كعكة من حبل وترمي به فانك تبلغ مقصودك . . »(٨) وهذه الاجراءات تبين مدى فهمه لمسألة الاحتكاك وعلاقتها بسرعة دوران محور المنجنيق «السهم» ، وبالتالي سرعة رمي القذيفة وحركة الثقل المعاكس ، وفي مواضع اخرى من الكتاب تبدو المفاهيم العلمية الفيزيائية أكثر وضوحا وخاصة عند الاشارة الى تدريجات القنداق ، اذ يتم الربط مباشرة بين مدى القذيفة « منزلة » والفتحة « زاوية الرمي » بعلاقة طردية تربط المسافة الافقية بزاوية الرمي : « صفة قنداق وخاصتها انها ترمي بها مرة بعد اخرى، وكل مرة ابعد من الاخرى . . . والقاعدة فيه انك تبتدىء من الخط التحتاني ثم الى الثاني ثم الى الثالث الى حين تفرغ الخطوط والخط الاخير أعلى من الكل . » (٩)

وثمة شواهد تؤكد على ان الصناع ومؤلفي التصانيف العلمية العسكرية قد استوعبوا وتنبهوا لمسألة مقاومة الهواء ومسار القذيفة وكيفية المحافظة على توازن القذيفة او السهم المنطلق ، ودقة توجيهها . فالاسهم الكبيرة « خطاي » والمنجنيقية ، مصنوعة بطريقة تحتوي على صفائح معدنية صغيرة في جنباتها كالاجنحة ولها ذيل على شكل صفيحة رقيقة للحفاظ على التوازن . وهذا مؤشر لفهمهم التجريبي العملي لمقاومة الهواء .

لكن هذه الفكرة تتضح أكثر في النبال حيث مصطلح التريش اي تعبير مؤخرة النشاب بالريش لتامين دقة اكثر في التوجيه : « اما الريش فهو انواع احسنها وانفعها ريش النسر . . . وقالوا الاذناب خير للسهم من الجناح لانه الين . . . ورامي السهم المريش بالشمال يطلب أيمن الهدف وعكس ذلك السهم المريش بالريش الايمن »(١٠).

٣ ـ النسب العددية والتناسب :

ان الكم الهائل والنوعية المتطورة من السلاح الذي تم انتاجه في الحضارة العربية الاسلامية في مختلف عهودها وبقاعها . تولد تساؤلا مشروعا حول كيفية انتاجه والاسس التي قام عليها . ونجد الاجابة على هذا التساؤل في القراءة العلمية لتاريخ هذه الصناعة وعلومها ، قراءة لا تتوقف عند المفاهيم النظرية المعرفية العامة . وحتى التجربة وحدها لن تجيب على السؤال المطروح بقوة حول كيفية الرقي والنجاح في صناعة السلاح . ولا شك أن القارىء بامعان يصل الى نتائج هامة يصادفها في المخطوطات وغيرها ، تتعلق بالنسب العددية والتناسب الداخلي بين اجزاء ومكونات السلاح . فالتجربة الطويلة في استخدام السلاح واعادة صنعه وتحسينه انتجت جملة من المعايير والمقاييس هي الناظم والموجه لصناعة اي قطعة من السلاح أو آلة ، فثمة تناسب عددي دائم كقانون يشكل أساسا لتركيب المواد الداخلة في صناعة القذائف والمتفجرات «القدور والاسهم الحارقة»،

ولنتابع النص التالي : « تأخذ ثمانين قنا ، وثمانين وشق ، وخمسين علك صنوبر ، واربعين بطم خام ، يحل في طاجن قليل من النفط ويغلف ، بخمسة عشر علك صنوبر وقصاصة لباد ، وتوز وتبيض القدر وتملأ »(١١).

وكما هو معروف في صناعة السيوف وعلم السقاية أن نوعية خلائط الفولاذ والنسب الداخلة في تركيبها تحدد جودة السيوف والنصال وخصائصها . ويمكن التأكد من ذلك بالرجوع الى المراجع الكثيرة في هذا المجال .

اذن يمكن القول أن نوعية المواد ونسبها الوزنية أو الحجمية المضافة بعضها الى بعض هي مفتاح الصناعات الحربية وسر نجاحها وخاصة في الاصناف ذات الصبغة الكيميائية ، أما في الآلات والادوات نفسها ، فالتناسب يتحقق بين الاجزاء ، وكل جزء مكون للآلة الحربية يشكل مرجعا معياريا للاقسام المتبقية ، يتم التقايس بواسطتها للوصول الى حالة الانسجام والتوافق التام التي تم التأكد من صلاحيتها ونجاحها تجريبيا :«اعلم أن الوتر الطويل أطرد للسهم وأحد وأسرع ولكن اذا أفرط الطول حدث منه انقلاب . وقال علماء هذا الفن ان أصح النصول للنشاب الميداني واليغلق وهو الحربي ما كان وزنه السبع من جميع بدن السهم مع نصله، ما نقص أو زاد فهو غير صحيح(١٢).

فما يضبط الجزء اذن هي الاجزاء الاخرى من السلاح ، سواء كان القياس وزنا أم حجما (بالابعاد الهندسية الثلاثة) . لقد تنبهوا كثيرا الى عملية التوافق والتناسب بدقة فقالوا « لكل قوس وترا (كذا) ولكل وتر سهما »(١٣) .

يمكن تلخيص ما سبق بأن المفاهيم النظرية العامة المرتبطة بمواد انشاء الاسلحة ووظيفة السلاح كانت التربة التي أنبتت علم صناعة السلاح . وأعطته الدفع الكافي للوصول الى درجة الكمال في اطار الصنف الواحد . وكذلك بالتجربة وتعديل الصنع معتمدة بشكل أساسي على التناسب الداخلي كأساس نظري ، لانه الاكثر سهولة وتشخيصا من جهة ، وكونه موضوع التجربة من جهة أخرى . وكان هدف التجارب العملية دعم الفكرة كما أشرنا .

وفي بحثنا عن الاسس النظرية لم نقصد اكتشاف معادلات رياضية او نظريات فيزيائية ناضجة كانت صناعة السلاح تعتمدها ، أو تفسر تركيبة الاسلحة وآلية صنعها واستخدامها ، لان ذلك ضرب من الخيال . فهذه الصناعات بتطورها وتراكم خبرات صانعيها ،وتفاعلها مع الفكر والعلوم النظرية لاحقا ، قد انتجت النظريات وعلوم التكنولوجيا وليس العكس . فالاساس النظري الذي أشرنا اليه ، هو معرفي عام

يسبق مرحلة القوانين العلمية التطبيقية ، ويسبق مرحلة الالتحام بين العلوم النظرية والتطبيقية بعدة قرون .

فالاطار العام الذي تم وفقه صناعة السلاح في العهدين الايوبي والمملوكي يمكن وضعه وفق المخطط التالي :

السبب العددية

المفاهيم النظرية + الخبرة العلمية ————> صناعة حربية + خصائص هندسية

التجربة

أما التوسع والتعمق لصياغة معادلات متعلقة بهذه الاسس فهو موضوع آخر .

* * *

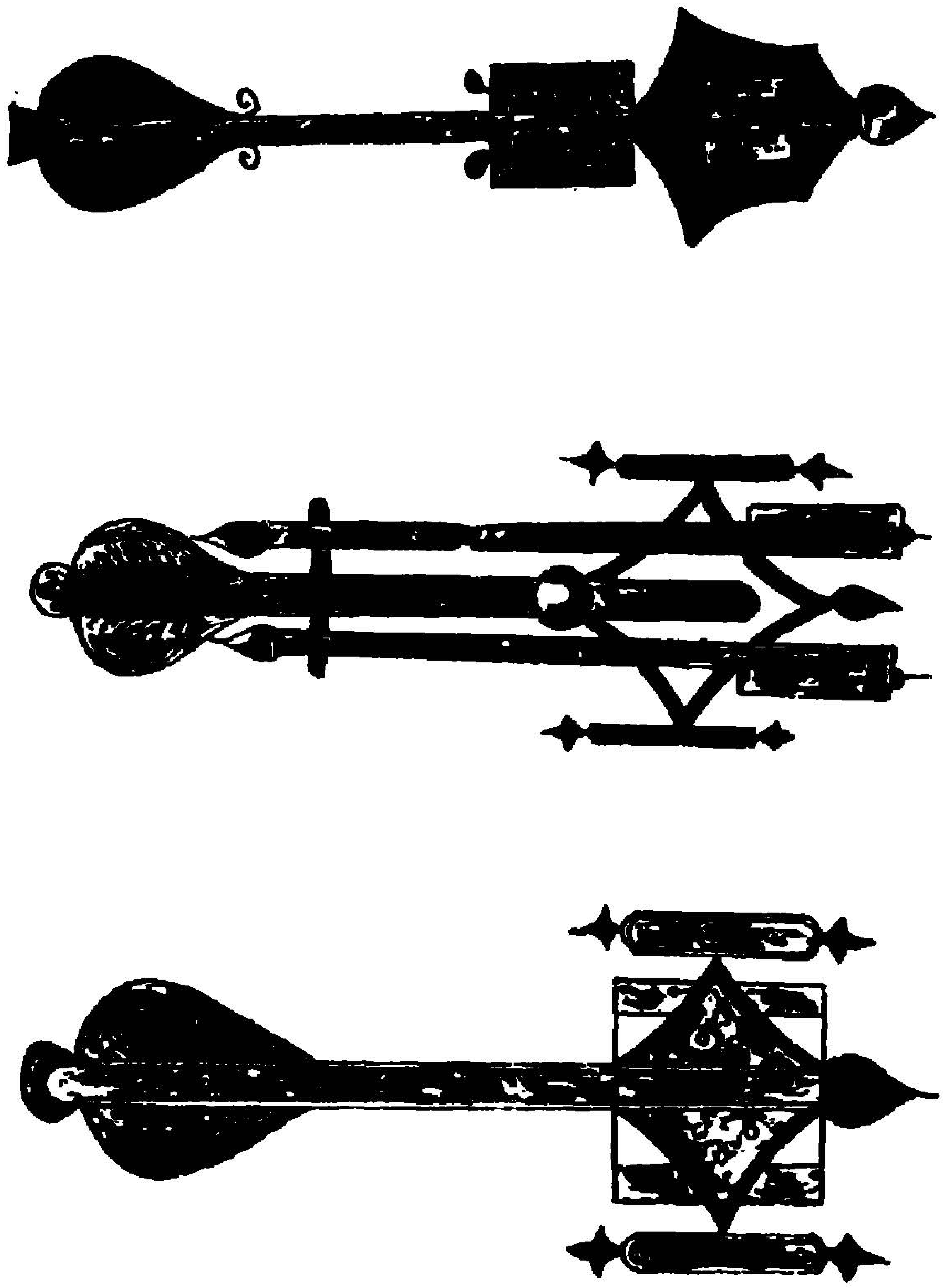

أسهم نارية « خطاي »

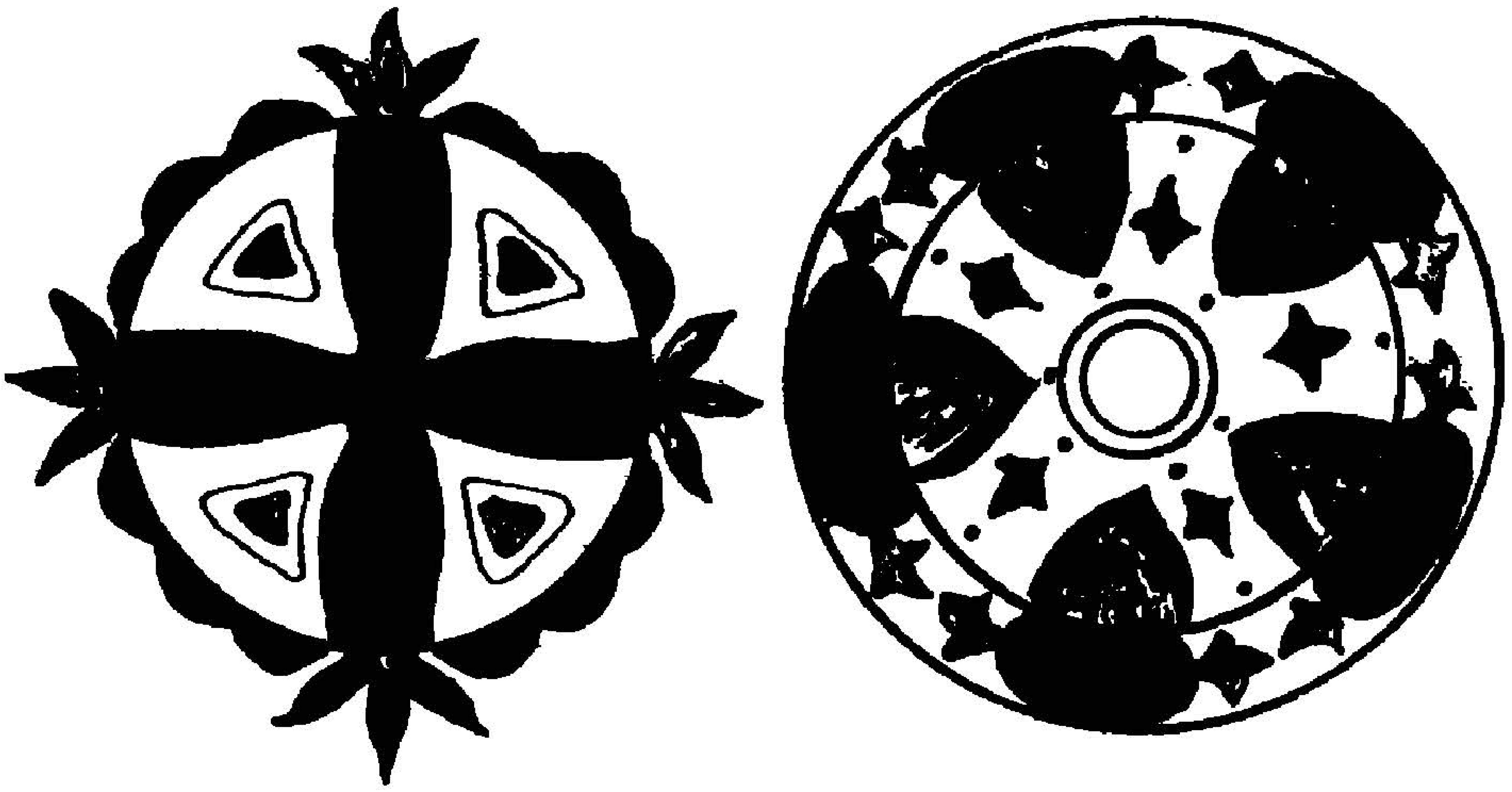

قنائف

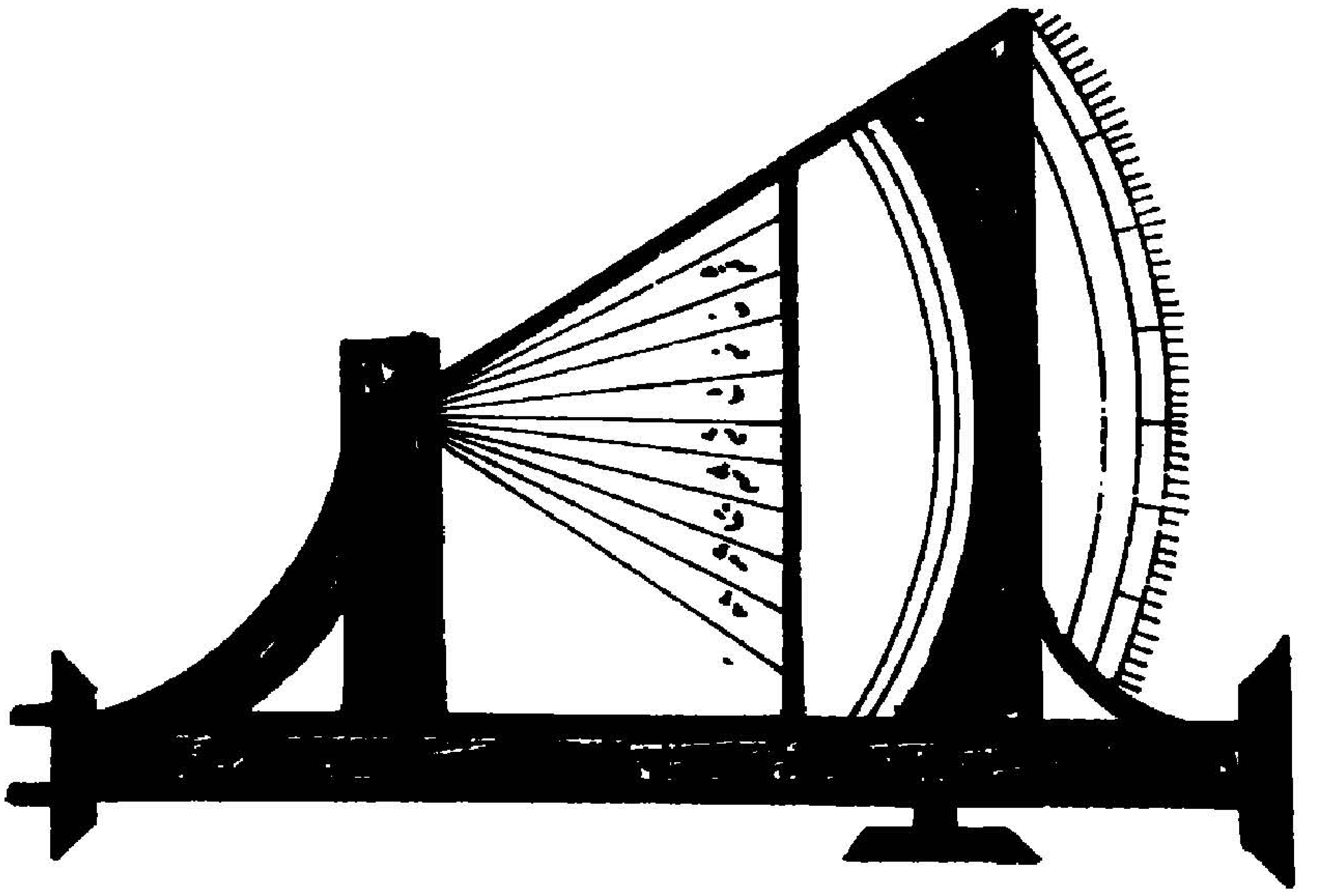

قنداق

المراجع حسب ورودها في البحث

١ ـ محمد بن عبد الله التلواني ، رمي النشاب (مخطوط ، ٧٣ ورقة ، ١٣ سطرا) المكتبة الوقفية بحلب نسخة مودعة في مكتبة الميكروفيلم في معهد التراث تحت الرقم /١١٠٩/ ، لوحة ٢ .

٢ ـ علي بن أبي بكر الهروي (ت ٦١١ هـ) ، التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، تحقيق مطيع المرابط، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٨٤ .

٣ ـ مرضي بن علي بن مرضي الطرطوسي مؤلف أهم كتاب في الصناعات الحربية في العهد الايوبي « تبصرة أرباب الالباب في النجاة من الحروب .. »وقد ذكر فيها أنه تعلم واخذ هذه العلوم من الشيخ حسن الابرقي الاسكندري وكلاهما غير معروف ولم نعثر لهما على ترجمة . ولكن من المؤكد أن الطرطوسي عاصر صلاح الدين لانه أهدى اليه الكتاب ، والابرقي كان في خدمة آخر خلفاء الفاطميين بالاسكندرية .

٤ ـ التبصرة .. عن مجلة المعهد الفرنسي في دمشق ١٩٦٨ ، نشر هذا الفصل وعني به ودرسه Antone Boudot ، ص ١٥٣ في مكتبة المعهد تحت الرقم (٥) نسخة مصورة منه .

٥ ـ التلواني ، اللوحة (١٧) .

٦ ـ حسين بن محمد بن عيسون الحنفي السنجاري ، (ت ٨٥٥هـ) ، هداية الرامي ، مخطوط في مكتبة معهد التراث تحت الرقم /١٦٣١/ مجموع . الباب الرابع والاربعون .

٧ ـ التلواني ، اللوحة (١٤) .

٨ ـ ابن أرنبغا الزردكاش ، الانيق في المناجيق ، دراسة وتحقيق الدكتور احسان هندي ، منشورات جامعة حلب ، معهد التراث (١٩٨٦) ص ٤١ .

٩ ـ المرجع السابق . ص (١٣٧) .

١٠ ـ التلواني ، اللوحة (٢١) .

١١ ـ كتاب الانيق . ص (٨٠ ١) .

١٢ ـ التلواني ، اللوحات (١٨ ـ ٢٠).

ابن فضل الله العمري
وكتابه
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

سيف الدين القصير

على الرغم من الدراسات التاريخية الكثيرة التي تناولت مختلف الموضوعات ، والاهتمام الواسع بجمع المخطوطات المنتشرة في شرق العالم وغربه تملأ رفوف المكتبات الضخمة وتحقيقها ونشرها ، فلا تزال هناك بعض الكتب المخطوطة التي تنتظر من يسعى اليها ليخرجها من كهف الاهمال والنسيان الى نور العناية والرعاية ، والكشف عما تضمه دفتاها من معارف وعلوم واخبار تلقي المزيد من الضوء على مآثر حضارتنا الزاهرة ، وترفد المعرفة الانسانية بكنز ثمين من كنوز الحضارة التي ابتدات مع مسيرة الانسان في هذا الكون ، وتسعى معه تارة هنا وطورا هناك ، وكلها مكرسة لخدمته وتحقيق تقدمه وتطوره .

من هذه الكتب المخطوطة كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار لمؤلفه الشهير بابن فضل الله العمري .

قال ابن شاكر الكتبي : « هو شهاب الدين بن فضل الله أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى بن دعجان بن خليفة أبي الفضل نصر بن منصور بن عبد الله بن علي بن محمد بن ابي بكر عبد الله بن عبيد الله بن ابي بكر بن عبد الله الصالح بن ابي سلمة عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، القاضي، شهاب الدين ، ابو العباس، ابن القاضي ابي المعالي محي الدين ، القرشي ، العدوي ، العمري.»(١)

وقال ابن حجر العسقلاني : هو «أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلي بن دعجان ابن خلف بن نصر بن منصور بن عبيد الله بن يحيى ين محمد بن أبي بكر بن عبيد الله ابن أبي بكر بن عبيد الله ين أبي بكر بن عبيد الله بن أبي سلمة ين عبيد الله ين عبد الله بن عمر العدوي العمري .»(٢)

فاسمه هو احمد بن يحيي ولقبه شهاب الدين بن فضل الله ، واشتهر بابن فضل الله العمري ، وينتسب الى عمر بن الخطاب ، ولا يشك بصحة هذه النسبة .

دراسات تاريخية ، ٢٩ و ٣٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٨

ولد احمد بن يحيى في دمشق في الثالث من شوال سنة سبعمائة هجرية ، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٣) . وكان بيته بيت علم ورياسة فنشأ نشأة العلماء وتلقى تربية صالحة من والده الذي كان أمين سر السلطان الناصر بالقاهرة (٤) .

تلقى ابن فضل الله من العلوم ما كان معروفا في عصره ، وبرع في الادب والتاريخ والانشاء ، وكان له مشاركة بسائر العلوم على اختلاف موضوعاتها(٥) . واخذ هذه المعارف عن كبار علماء عصره ، فدرس اللغة على كمال الدين بن قاضي شهبة وشمس الدين بن مسلم ، وأخذ الفقه عن قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد وعن برهان الدين الفزاري ، وقرأ الاصول على شمس الدين الاصفهاني ، والاحكام الصغرى على ابن تيمية ، والعروض على شمس الدين بن الصايغ .(٦)

وظائفه وأعماله : عمل ابن فضل العمري في ديوان الانشاء لما ولي والده سر دمشق . وفي هذه الفترة « أنشأ كثيرا من التقاليد والمناشير والتواقيع . »(٧) وكان لهذا العمل أثر في تأليفه لكتاب **التعريف بالمصطلح الشريف** .(٨) ثم انتقل ابن فضل الله الى مصر عندما تولى والده كتابة السر للسلطان الملك الناصر في القاهرة ، وقرأ البريد على السلطان . وبقي في وظيفته تلك الى أن عزل بأخيه القاضي علاء الدين سنة ٧٣٨هـ .(٩) ثم عاد الى دمشق مرة أخرى وتولى كتابة السر هناك سنة ٧٤٠ هـ . ولكنه لم يستمر في ذلك طويلا ، فقد عزل بعد سنتين(١٠) ، فتفرغ للتأليف والتصنيف ، « وبقي بطالا الى أن هلك بحمى الربيع يوم عرفة عن تسع وأربعين سنة ، (١١) عام ٧٤٩ هـ .

بالرغم من أن ابن فضل الله لم يعمر أكثر من نصف قرن من الزمان ، الا أنه استطاع أن يدون في هذه الفترة القصيرة نسبيا عشرات المجلدات والتصانيف في مواضيع مختلفة . وقد ذكر له حاجي خليفة اكثر من اثني عشر مؤلفا ،وهذه التصانيف كما أوردها الزركلي هي : (١٢)

١ ـ مسالك الابصار في ممالك الامصار (مخطوط في ٢٠ مجلدا طبع الاول منها) .

٢ ـ مختصر قلائد العقيان (مخطوط) .

٣ ـ الشتويات (مخطوط) .

٣ ـ النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية (مخطوط) .

٥ ـ ممالك عباد الصليب ، مطبوع مع ترجمة ايطالية بقلم ميخائيل اماري . رومية ١٨٨٣م .

٦ ـ التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ، مطبعة العاصمة ، ١٣١٢ هـ .

٧ ـ الدائرة بين مكة والبلاد (غير معروف) .

٨ ـ فواصل السمر في فضائل آل عمر . (٤ مجلدات ـ غير معروف) .

٩ ـ يقظة الساهر (غير معروف) .

١٠ ـ نغمة الروض (غير معروف) .

١١ ـ دمعة الباكي (غير معروف) .

١٢ ـ صبابة المشتاق (٤ مجلدات في المدائح النبوية . غير معروف) .

وقيل انه « نظم كثيرا من القصائد والاراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح والبليق ،وأنشأ كثيرا من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك ،وغير ذلك. »(١٣)

شخصيته : عرف ابن فضل الله العمري بأنه امام فاضل ، وبليغ مفوه حافظ، وحجة الكتاب ، وأحد أئمة أهل الادب . وقال عنه ابن شاكر الكتبي : « .... رزقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت في غيره وهي الحافظة فما طالع شيئا الا كان مستحضرا لاكثره ، والذاكرة التي اذا اراد ذكر شيء من زمن متقدم كان ذلك حاضرا كأنه انما مر به بالامس، والذكاء الذي يتسلط به على ما أراد ،وحسن القريحة في النظم والنثر. »(١٤)

وقال عنه ابن كثير : « كان يشبه بالقاضي الفاضل في زمانه وله مصنفات عديدة بعبارات سعيدة ، وكان حسن المذاكرة سريع الاستحضار ، جيد الحفظ ، فصيح اللسان ، جميل الاخلاق ، يحب العلماء والفقراء . »(١٥)

وذكر ابن الوردي بأن « منزلته في الانشاء معروفة وفضيلته في النظم والنثر موصوفة . »(١٦)

أما المقريزي فقد وصفه بحدة المزاج وشراسة الاخلاق وقوة النفس(١٧) . وزاد الزركلي على ذلك فقال : « هو مؤرخ حجة في معرفة المسالك والممالك وخطوط الاقاليم والبلدان ، امام في الترسل والانشاء ، عارف بأخبار عصره وتراجمهم ، غزير المعرفة بالتاريخ ولا سيما تاريخ المغول من عهد جنكيز خان الى عصره . » (١٨)

وبالنسبة الى علوم ابن فضل الله ومؤلفاته فقد أشار ابن شاكر الى ذلك ووصفه بأنه غزير المعرفة،وله معرفة بسائر الفنون،وقال انه لم ير«من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيز خان وهلم جرا معرفته وكذلك ملوك الهند والاتراك . »(١٩)

وأشار ابن شاكر الى كتاب « المسالك » فقال : «وكتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار في عشرين مجلدا كبارا وهو كتاب حافل ما اعلم أن لاحد مثله.»(٢٢)

أما كرد علي فبالغ بعض الشيء في اطراء مؤلفات ابن فضل الله فوصف كتاب **التعريف بالمصطلح الشريف** بقوله : « وهو سفر بديع لم يبق شاردة في تراتيب الدولة الا أتى عليها ففيه نموذجاب بما يكتب بـه الى ملوك الاطراف وكـل ما يتعلق بدواوين الملك من رتب المكاتبـات وعادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير ... » (٢١)

ووصف كتاب « المسالك » بقوله : « وهو ينادي على وجه الدهر باتساع علمه ومعرفته في تقويم البلدان والتاريخ والرجال والادب والاجتماع والهندسة والسياسة والفلك والنقش والتصوير والبناء . »(٢٢) وذكر بأن المؤلف تروّى كثيرا في نقل الاخبار، « فلم ير عجيبة حتى فحص عنها ولا غريبة حتى ذكر الناقل لهـا لتكون عهدتها عليه ويتبرأ هو منها . »(٢٣)

وامتدح كرد علي طريقة ابن فضل الله العمري في نقل الاخبار فقال : « وطريقته في نقل الاخبار التحقيق لاكثر ما يعرف بتكرار السؤال واحدا بعد واحد عما علمه مـن أحوال بلاده وماضيها ، وما اشتملت عليه في الغالب . قال : وكنت أسأل الرجل عـن بلاده ثم أسأل الآخر لاقف على الحق . فما اتفقت عليه أقوالهم او تقاربت أثبته ، وما اختلفت فيه اقوالهم أو اضطربت تركته . ثم اني أترك الرجل المسؤول مدة ، اناسيه فيها عما قال ، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما سألت ، فاذا ثبت على قولـه الاول أثبت مقاله وان تزلزل أذهبت في الريح أقواله . كل هذا لاتروى في الروايـة واتوثق في التصحيح . »(٢٤)

٤ ـ كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار :

قال جرجي زيدان في وصف الكتاب : « هو موسوعة في بضعة وعشرين مجلدا . وهو كتاب هام في التاريخ والادب والجغرافية والتاريخ الطبيعي وغيرها .»(٢٥)

وقد اختلف المؤرخون والمؤلفون في ذكرهم لعدد مجلدات هذا الكتاب ، فبعضهم قال انه يقع في عشرين مجلـدا ، وبعضهم ذكر أنه يقع في سبعة وعشرين . والظاهر أن هذا الاختلاف ناجم عن وجود اكثر من نسخة واحدة للكتاب ، فالمخطوطـة الموجودة في طوبقبوسراي مثلا تقع في ١٧ جزءا بينما المخطوطـة الموجودة في آياصوفية تقـع في ٢٧

جزءا . وهذا الاختلاف غير ذي أهمية طالما أن مادة الكتاب ومحتوياته هي ذاتها في كلتا النسختين .

ويقتصر الكتاب على ذكر الممالك الاسلامية ، غير أنه يشير الى ممالك أخرى ولكن ذلك لمقتضيات الحديث واتمامه . وقد قال ابن فضل الله في ذلك : « وقنعت بما بلغه ملك هذه الامة ، وتمت بكلمة الاسلام على أهله النعمة ، ولم أتجاوز حدها ، ولا مشيت خطوة بعدها ، الا ما جره سياق الكلام ، او طارح به شجون الحديث مما اندرج في أثناء ذلك ، أو اضطرت اليه تعريجات السالك ، اقتضاه سبب ، او دخل مع غيره في ذمة حسب . » (٢٦)

ويشير ابن فضل الله الى انه شرع بتأليف الكتاب في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وانه سمّى الكتاب « مسالك الابصار في ممالك الامصار . » (٢٧)

يقسم الكتاب الى قسمين رئيسيين : قسم في الارض وآخر في سكان الارض . ويبحث القسم الاول ، أي الجغرافية ، في الارض وما اشتملت عليه برا وبحرا ، ويقسم هذا القسم الى نوعين : نوع في ذكر المسالك وآخر في ذكر الممالك . والنوع الاول مقسم بدوره الى ابواب ، والابواب الى فصول . ففي الباب الاول من القسم الاول يتحدث عن الارض وأسمائها ، وصفاتها ، والتراب ، والرمال ، وأحوال الارض . ويتحدث في الباب الثاني عن الاقاليم السبعة وتقسيماتها ، والمدن والجزائر والانهار في كل اقليم . ويبحث في الباب الثالث في البحار والرياح وبعض العجائب المتصلة بذلك . أما الباب الرابع ففيه حديث عن القبلة وكيفية الاستدلال عليها والطرق المختلفة في ذلك . ويستطرد في هذا الباب فيبحث في تداخل الشهور ، والكواكب ، والافلاك ، والخسوف والكسوف ، وغير ذلك . ويقتصر الباب الخامس على الحديث عن الطرق وتعاريجها وما يتصل بذلك .

وقسّم النوع الثاني من القسم الاول الى خمسة عشر بابا تتحدث عن الممالك المختلفة . وقد ورد فيها ذكر لممالك الهند ، وبيت جنكيز خان ، والصين ، والتورانيين ومملكة الجبل ، ومملكة الجبال ، ومملكة الاتراك بالروم ، ثم ممالك مصر والشام والحجاز ، ومملكة اليمن ، وممالك المسلمين بالحبشة ، والممالك الاسلامية في السودان وافريقية والاندلس . ويختتم ذلك بحديث عن العرب الموجودين في زمانه ، واماكنهم ومضارب أخبيتهم ومساكنهم .

ويبحث القسم الثاني من الكتاب في سكان الارض من طوائف وامم ، وقد قسمه

الى أربعة انواع . وقسّم سكان الارض الى سكان الشرق وسكان الغرب ، وترجم رجالهم وأعلامهم بشكل التفاضل بين البلدين . وشملت ترجماته العلماء وأعيان الناس من أطباء وفقهاء ورجال سياسة وادارة وادب . كما تحدث عن غير الناطق والجماد ، فبحث في الحيوان والمعادن والنبات والطيور وغيرها . ثم يرد بعد ذلك ذكر الطوائف والديانات المختلفة . ويختم هذا القسم بالحديث عن التاريخ الذي قسمه الى بابين : باب في ذكر الدول التي قامت قبل الاسلام ، وباب في ذكر الدول الكائنة في الاسلام . وقد انتهى بتاريخه الى سنة ٧٤٤ هـ ، أي قبل وفاته بخمسة أعوام .

ما نشر من الكتاب :

على الرغم من شهرة الكتاب وشهرة مؤلفه ، الا أن ما نشر منه وحقق لم يتعد الجزء الاول من أجزائه العشرين . وقد عمدت دار الكتب المصرية بالقاهرة الى طباعة هذا الجزء الذي قام بتحقيقه أحمد زكي باشا سنة ١٩٢٤م . وقد وقعت مخطوطة هذا الجزء صدفة بيد المحقق بسراي طوبقبو باستانبول ، وكانت بعنوان « مرآة الكائنات » . وذكر المحقق انه اغتبط بهذه اللقية لانه وجد « أن رجلا من أهل العلم قرأ هذا الجزء على المؤلف ، وأن المؤلف كتب بخطه عليه بعض التصحيحات واضاف اليها زيادات كتبها بيده في ورقات ، طيارات ، » . (٢٨)

ثم ذكر المحقق أنه صور الكتاب بأكمله مع النسخة الاخرى من الجزء الاول الموجودة في ايا صوفية واحضر الكل الى القاهرة « ... وهو محفوظ بدار الكتب المصرية . وليس يوجد في اي قطر آخر بالمشارق والمغارب نسخة كاملة مثل التي اعدتها الى مصر . » (٢٩)

واعتنى المحقق عناية فائقة في نشره لهذا الجزء ، وبذل فيه غاية الجهد ، وسافر الى فلسطين « لتطبيق ما أورده المؤلف عن المسجد الاقصى ، من البيانات الفنية المعمارية والاصطلاحات الهندسية البنائية التي لم يجر بها قلم كاتب قط ، لا من العرب ولا من العجم ، لاقديما ولا حديثا . » (٣٠)

ثم اورد المحقق بعد هذا التمهيد البسيط فهرسا لمضامين الكتاب والذي يبدأ بفاتحة المؤلف ، وفيها كلام عن طريقة المؤلف في كتابة المادة ، ومنهاج الكتاب بشكل عام . ويبحث هذا الجزء في مقدار الارض وحالتها ، والجبال والانهار والبحيرات ، وفي اشهر المساجد والاديرة وأماكنها .

ويعلق المحقق على النص في الحواشي اما باشارة الى زيادة او نقصان في النص ، أو بشرح الكلمة او العبارة ، او بالاشارة الى مصادر أخرى ورد فيها ما جاء في النص .

واثبت عناوين صغيرة للموضوعات على جانبي الصفحات ، كما اشار الى صفحات المخطوطات المستعملة في التحقيق . واورد في آخر الجزء المحقق جدولا سماه «تصويبات لما وقع في النسخة الام ، وتصحيحات لما وقع اثناء الطبع .» اما صفحات المخطوطة المحققة فقد بلغت ٢٩١ صفحة ، بينما صفحات الكتاب المطبوع جاوزت (٢٩٠) صفحة دون جدول التصويبات والتصحيحات .

المخطوطات :

تنتشر مخطوطات الكتاب في مكتبات ومتاحف عدة (٢١) ، ولكن ليس ثمة مجموعة كاملة لهذا المخطوط في مكان واحد . فمخطوطات أياصوفية تضم المجموعة الكاملة لاجزاء الكتاب ما عدا الجزأين الاول والحادي والعشرين والقسم الثاني من الجزء السابع والعشرين . وهذه المجموعة مكتوبة بالخط النسخي .(٢٢)

اما النسخة الموجودة في سراي طوبقبو باستانبول (نسخة احمد الثالث) فتقع في سبعة عشر جزءا ، وينقصها الجزء الخامس .(٢٣)

وتوجد في الجامع الكبير بتونس نسخة مخطوطة هي الجزء الخامس عشر من كتاب المسالك ، وقد كتب على الصفحة الاولى منها : « الجزء الرابع من كتاب الصلاح الصفدي ، » وعلى الصفحة الاخيرة : « نجز الجزء (١٥) من مسالك الابصار في ممالك الامصار . »(٢٤)

وتوجد مخطوطة للجزء العشرين من هذا الكتاب في مكتبة جون رينلادس ، وهي بقلم أحمد بن علي المقريزي ، ويعود تاريخ نسخها الى حوالي سنة ١٤٢٠م ، وقد كتبت بخط نسخي مصري .(٢٥)

وكذلك فاننا نجد في مجموعة مخطوطات الاسكوريال نسخة للجزء الخامس عشر من كتاب المسالك . وذكر أن هذا الجزء يتعلق بالشعراء ، ويضم لائحة بأسماء الشعراء الذين يرد ذكرهم في المخطوط .(٢٦)

اما مكتبة باريس الوطنية فانها تضم اكبر عدد من مخطوطات كتاب المسالك بالنسبة الى بقية المكتبات الاوربية ، اذ يوجد فيها ستة نسخ لاجزاء مختلفة . وورد في ذكر النسخة الاولى : « هذه دائرة المعارف لشهاب الدين العمري والتي تحمل لقبه . »(٢٧) وهي مخطوطة من ١١٩ ورقة ذات حجم متوسط ويعود تاريخ نسخها الى القرن السابع عشر ، ولم يرد ذكر لرقم الجزء او تعريف بمحتوياته . » (٢٨)

والنسخة الثانية هي لمجلد من ثلاثة اقسام من ٢٢١ صفحة يعود تاريخ نسخها الى القرن الخامس عشر . وهي من القسم التاريخي لكتاب المسالك وتتحدث عن تاريخ الاكراد والطورانيين والهند والسند .(٣٩) وتقع الثالثة في ١٧٧ صفحة ، ويعود تاريخ نسخها الى القرن الخامس عشر ، وتتحدث عن تاريخ القرون الاولى للهجرة . (٤٠)

والنسخة الرابعة من ٢١٨ صفحة يعود تاريخ نسخها الى القرن الرابع عشر الميلادي وفيها كلام عن شعراء المغرب من القرن الرابع الهجري الى القرن الثامن .(٤١)

وتقع النسخة الخامسة في ٢١٨ صفحة أيضا ، ويعود تاريخ نسخها الى القرن الرابع عشر الميلادي ، وتتحدث عن الوقائع الاسلامية خلال الفترة من ٥٤١ هـ وحتى ٧٤٤ هـ بشكل مختصر .(٤٢) أما النسخة السادسة والاخيرة في هذه المجموعة فتتكون من ٢٣٥ صفحة يعود تاريخ نسخها الى القرن الخامس عشر ، ويشمل موضوعها التاريخ العالمي منذ الخليقة وحتى خلافة علي بن أبي طالب . كما تبحث في الامام الشيعي الثاني عشر ، وأحفاد علي ، وتتضمن بعض الابيات للشريف الرضي .(٤٣)

وتحتوي مجموعة مخطوطات برلين على مخطوطة لجزء من كتاب المسالك تحت رقم (٩٣٨٠) وهي بعنوان « مسالك الابصار في ممالك الامصار لاحمد بن فضل الله العمري ٦٩٧ ــ ٧٤٩ هـ » وهي تبدأ بقبائل العربان من مصر الى أقصى المغرب.(٤٤) وهناك مخطوطة لاحد الاجزاء موجودة في مكتبة بودليان باكسفورد ، كما يوجد نسخة اخرى في المتحف البريطاني تحت رقم (٥٧٥) .(٤٥)

أما في مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت فيوجد نسختان مصورتان عن نسختي آياصوفية وأحمد الثالث . وبعض هذه الاجزاء مصورة بالميكروفيلم أيضا .(٤٦) كما يوجد بعض نسخ المكتبة الاهلية بباريس مصورة بالميكروفيلم ، (٤٧) بالاضافة الى نسخة بودليان ، (٤٨) وثلاث نسخ مجهولة المكان والتاريخ .(٤٩)

وتوجد نسخة مصورة لقطعة من مسالك الابصار في مكتبة الجامعة الامريكية بعنوان « مقارنة بين المشرق والمغرب » الموجودة في مكتبة جامعة دمشق . ويعود تاريخ نسخها الى القرن الثامن الهجري وقد كتبت بخط منسوب ، وعدد ورقاتها لا يتجاوز ٤١ ورقة .

ويجب أن نضيف هنا النسخ الموجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، والتي تحدث عنها احمد زكي في مقدمة تحقيقه للجزء الاول من كتاب مسالك الابصار ، وهي المجموعة الوحيدة الكاملة لجميع اجزاء الكتاب قام المحقق بتصويرها عن نسخ آياصوفية وطوبقبو سراي (٥٠) .

قيمـة الكتـاب :

يبدو لاول وهلة أن للكتاب شأنا كبيرا ، وانـه مصدر هـام من مصادر التاريخ الاسلامي ، وربما كان كذلك في بعض الاجزاء منه ، ولكن اذا ما تفحصنا الجزء الاخير منه وقارناه ببعض المؤلفات الاخرى التي ظهرت قبله وجدنا أن هذا الجزء هو تلخيص ان لم يكن نسخ لبعض هذه الكتب ، وعلى وجه الخصوص كتاب « المختصر في اخبـار البشر » لعماد الدين اسماعيل ابي الفداء المتوفى سنة (٧٣٢ هـ) . وامثلة النقل عن « المختصر » كثيرة ويكفي أن نشير الى بعضها . ففي نسخة آياصوفية ورقة (٣٤٠) ونسخة أحمد الثالث ورقة (٦٢٤) يرد ذكر لورود أمراء روميين على السلطان الظاهر، وقد وردت العبارة ذاتها في « المختصر » (ج٤ ، ص٩) . ثم في نسخة آياصوفية ورقة (٣٤٢) ونسخة أحمد الثالث ورقة (٦٢٦) حديث عن وفاة الظاهر وتنصيب ولـده الملك السعيد خلفا له بمصر ، وقد ورد النص بحرفه في « المختصر » (ج٤ ، ص١٠). وعند الحديث عن الوقعة العظيمة بين المسلمين والتتر بظاهر حمص سـنة ٦٧٩ هـ . نجد توافقا تاما بين نص « المختصر » (ج٤ ص ١٤–١٥) ونص نسخة احمـد الثالث ورقة (٦٣٢ – ٦٣٤) ، في حين نلاحظ أن نسخة اياصوفية ورقة (٣٤٨ – ٣٥٠) قد اختصرت بعض الفقرات .

لكن هذا لا يعني أن ابن فضل الله العمري اقتصر علـى نسخ كتاب « المختصر » لابي الفداء وتقديمه الينا تحت اسـم « مسالك الابصـار » . فهناك بعض الاختلاف ، وربما يعود ذلك الى استخدام ابن فضل الله لمصادر أخرى غير «المختصر» . فمثلا وبعد الحديث عن وقعة حمص بين التتر والمسلمين المذكورة أعلاه ، تورد نسخة أحمد الثالث ورقة (٦٣٢ – ٦٣٥) قصيدة في مدح الملك المنصور قلاوون لم يرد ذكرها لا في «المختصر» ولا في نسخة اياصوفية التـي ربما اختصرتها هي الاخرى ، ونجد في نسخة أياصوفية ورقة (٣٥٧ – ٣٥٩) ونسخة أحمد الثالث ورقة (٦٤٥ – ٦٤٧) نصا أورده ابن فضل الله نقلا عن كتاب الشيخ ابو الثناء يصف فتح قلعة المرقب ، وان هذا النص لم يورده « المختصر » أيضـا .

وبعد ، يبقى الكتاب في جملته دائرة معارف شاملة ضمت بين دفتيها الكثير مـن من المعارف والعلوم التي شملت النواحي الجغرافية والسكانية والاجتماعية والتاريخية، وهو في صورته النهائية، يعكس الكثير من المظاهر الحضارية التي نفخر بها ونود اظهارها وابرازها ، وهذا ما يدفعنا الى الدعوة الى متابعة الجهد لاخراج كنوز الاجداد ، كما ذكرنا ، من كهوف الاهمال والنسيان الى نور الرعاية والعناية ، وهو جهـد يستحق المتابعـة والمثابرة .

الحواشـــي :

(١) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج١ ، ص ٩ .
(٢) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ج١ ، ص ٣٣١ .
(٣) فوات الوفيـات ، ج١ ص١٠ .
(٤) كرد علي ، كنوز الاجداد ، ص٣٧٥ .
(٥) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٣ ، ص ٢٢٦ .
(٦) سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ج١-٦ ، ص٢٠٤ .
(٧) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص ٢٣٤ .
(٨) كنوز الاجداد ، ص ٣٧٦ .
(٩) معجم المطبوعات ، ج١-٦ ، ص ٢٢٦ .
(١٠) الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٣٣١ .
(١١) كنوز الاجداد ، ص ٣٧٦ .
(١٢) الزركلي ، الاعلام ، ج١ ، ص٢٥٤ .
(١٣) فوات الوفيات ، ج١ ، ص ١١ .
(١٤) المصدر ذاته ، ج١ ، ص٩ .
(١٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٢٢٩ .
(١٦) ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٣٥٤ .
(١٧) معجم المطبوعات ، ج١-٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(١٨) الإعلام ، ج١ ، ص ٢٥٤ .
(١٩) فوات الوفيات ، ج١ ، ص١٠ .
(٢٠) المصدر ذاته ، ج١ ، ص١١ .
(٢١) كنوز الاجداد ، ص٣٧٧ .
(٢٢) المصدر ذاته ، ص ٣٧٧ .
(٢٣،٢٤) المصدر ذاته ، ص ٣٧٧ .
(٢٥) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٢ ، ص٢٢٧ .
(٢٦) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ج١ ، ص٤ .
(٢٧،٢٨،٢٩،٣٠) ، المصدر ذاته والصفحات ذاتها .
(٣١) Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature , Vol.1,p.177.
(٣٢) دفتر كتبخانة اياصوفية ، ص٢٥٠ .
(٣٣) سنذكر هاتين النسختين في قسم التحقيق .
(٣٤) Roy, Catalogue, p.4, No 2905.
(٣٥) Mingana, Catalogue or the Arabic Mss., No 344.
(٣٦) Casiri, Biblio thica Arabic-Hispana, p. 68, No 285.
(٣٧) Le Baron De slane. Biblio théque Nationale , p. 388.
(٣٨،٣٩،٤٠،٤١،٤٢،٤٣) : المصدر ذاته ، ص ٤٠٧ .
(٤٤) Ahlwardt, Verzeichnis der Ar. Hdss. vol.9, p.14.

(٤٥) يوجد نسخة لهذه المخطوطة مصورة في مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت . ميكروفيلم رقم ٣٢ .

(٤٦) مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت : نسخة آياصوفية (ميكروفيلم رقم ٩٤ ،٤١ ، ٩١ ، ٤٧ ، ٧٠، ٩٠ ، ٥٢ . ٩٣ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ٨٨ ، ٥٣ ، ٩٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٨١ ، ٧٦) .
نسخة أحمد الثالث (ميكروفيلم رقم : ٧٧ ، ٨٦ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٧٥ ، ٩٥ ، ٨٧ ، ٧٢) .

(٤٧) المصدر ذاته ، ميكروفيلم رقم (٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣) .

(٤٨) المصدر ذاته ، ميكروفيلم رقم ٣٢ .

(٤٩) المصدر ذاته ، ميكروفيلم رقم ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ .

(٥٠) انظر مقدمة المحقق في كتاب المسالك ج١ .

المراجـع :

(١) ابن تغري بردي ، جمال الدين ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢ ج) القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٩ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، طبعة أولى (٤ج) حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٢٩ .

(٣) ابن العماد الحنبلي ، أبي الفلاح ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ج) القاهرة ،١٣٥١ هـ.

(٤) ابن الوردي ، زين الدين عمر ، تتمة المختصر في أخبار البشر (٢ج) مصر،المطبعة الوهبية ،١٢٨٥هـ.

(٥) حاجي خليفة ، مصطفى ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢ج) استانبول ، ١٩٤٣ .

(٦) الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات (٢ج) القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية ،١٩٥١ .

(٧) البغدادي ، اسماعيل ، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ،استانبول ، ١٩٥١ .

(٨) الزركلي ، خير الدين ، الاعلام (١٠ج) . طبعة ثانية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ــ ١٩٥٩ .

(٩) زيدان ، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية (٤ج) مصر ، مطبعة الهلال ، ١٩١٣ .

(١٠) سركيس ، يوسف ، معجم المطبوعات العربية والمعربة (١١ج) القاهرة ، مطبعة سركيس ، ١٩٢٨ .

(١١) كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، دمشق ، مطبعة الترقي ١٩٥٧ .

(١٢) كرد علي ، محمد ، كنوز الاجداد ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٥٠ .

* * *

نظام الحسبة في الإسلام

محمد زيود
مرشح للدكتوراه

الحسبة في اللغة العد والقصد ، ومن ذلك قوله (ص) « احتسبوا اعمالكم فان من احتسب عمله كتب له أجر عمله ، وأجر حسبته » . وترد بمعنى حسن التدبير كالقول: إن فلانا احسن الحسبة والتصرف ، كما وتطلق بمعنى المصدر كالاحتساب ، وتنصرف اما الى طلب الثواب في الآخرة أو الى انكار القبيح(١) من الافعال ، ومن ذلك ما ورد في الحديث « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »(٢). والحسبة في المدلول الشرعي والاصطلاح وظيفة دينية مدنية عرفها الماوردي(٣) ، والفراء ، « هي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله وهي مبنية على القاعدة القرآنية الاصلية والتي وردت في قوله تعالى(٤) « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

والحسبة في عرف النظام الاداري كلمة تطلق على حسابات الدولة ، وعلى دار المحاسبة والمواريث ، وعلى ديوان مراقبة الموازين والمكاييل ، ثم خصصت لمعنى الشرطة ، وبخاصة شرطة الاسواق والاداب . وبهذا المعنى الضيق تناولها مؤرخو الاحكام السلطانية الاسلامية مثل الماوردي (ت٤٥٠هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) والقلقشندي (ت٨٢١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ)(٥) ، ومما كتبوه يتبين أنها نظام للرقابة على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تجعلها في اطار قواعد الشرع الاسلامي ، وفي سياق المصلحة العامة للمجتمع العربي الاسلامي .

وفي الحديث تقع الحسبة تحت شمولية الحديث الشريف « لا ضرر ولا ضرار »(٦) أي لا يحق لاحد أن يحدث ضررا بغيره ، كما لا يحق لاحد أن يقابل الضرر بالضرر . ويعتبر هذا المبدأ الاسلامي العام أساسا لكل الحضارات الحديثة ونظمها ، فالشريعة الاسلامية نظمت أمور المجتمع المختلفة على نحو يكفل الراحة والطمأنينة والعدالة لجميع الناس دون تمييز بين أوضاعهم وأحوالهم(٧) . واستنادا لحكم الاية الكريمة في قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة » أي جماعة ، ذهب بعض المفسرين والفقهاء الى ان الحسبة

على القيام بها علما وعملا،ولقد استخدمت الحسبة في المجتمع الاسلامي لتنظيم الاصناف والاشراف على الصناعة ، التي تصدت الدولة للتدخل في شؤونها وتوجيه فعاليتها ، وللاشراف على الاسواق . وعلى الرغم من الاختلاف في أصل الحسبة ، فقد اعتبرها بعضهم وظيفة أو نظاما استحدث من أجل تطبيق المبادىء الاسلامية في السلوك والاخلاق ، ومبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر(٨) .

اصل الحسبة : يمكن أن نعود بهذا النظام الى الرسول (ص) ، وخلفائه من بعده وقد قام (ص) وخلفاؤه بمباشرتها(٩) بأنفسهم . ويرى القلقشندي لن اول من قام بالحسبة عمر بن الخطاب(١٠) . وعلى الرغم من ان بعضهم يرجع فكرة وجود الحسبة الى العصر اليوناني ، واستمرارها خلال العصرين الروماني والبيزنطي ، وان العرب قد اقتبسوها دون تعديل أو تغيير ، لانه « لم يكن لهم ما يمكن أن يقدموه بديلا عنها »(١١) . وهذا ، فضلا عن انه يحتاج لدليل يقيني يفتقر اليه الباحثون ، لا يضر النظام الاسلامي الذي قام علىقواعدثابتة ومبادىء هادية واحكام دينية قرآنية حددت تعاليمه استنادا الى حاجات المجتمع وضروراته ، ودليلنا على ذلك ان الرسول وخلفاءه نظموا أمر الحسبة في المدينة ومكة قبل ان يكون لهم اتصال مباشر مع الروم.. واذا كان العرب الفاتحون قد وجدوا مايتوافق مع هذا النظام في المدن المفتوحة، فحظيباهتمامهم وابقوا عليه لمعانيه الايجابية وفوائده ، فقد صبغوه بالصبغة الاسلامية(١٢) حتى غدا نظاما اسلاميا لا يحتفظ من ماضيه الا باثار بسيطة ، واستند الى مبدأ الحلالوالحرام والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، وعرف طيلة العصور الاسلامية وفي جميع الاماكن التي وصلتها الحضارة العربية الاسلامية ، فوظيفة « العامل على السوق » والعريف وجدت في صدر(١٣) الاسلام ، واستمرت طوال العصر الاموي ومهدت لظهور وظيفة «المحتسب»(١٤) التي ظهرت في المشرق منذ بداية العصر العباسي ، في حين استمر استعمال اسم « العامل على السوق » في الاندلس وشمال افريقية حتى فترة متأخرة(١٥) .

الاشراف على الاسواق في الاسلام :

وضع المسلمون الاسواق التجارية تحت المراقبة والاشراف منذ الايام الاولى لدولة المدينة ، وعينوا على الاسواق قائمين عليها لمتابعة ما يجري فيها وتنظيم أحكامها واصلاح أمورها ، واسندوا هذه المهمة للخاصة منهم . ولقد كان الامر بالمعروفوالنهي عن المنكر وتوفير الامن ، وجباية الضرائب والتحكم بالاسعار ، وتوافر السلع وعدم احتكارها أو غشها ، من المبادىء العامة والاساسية في الدولة العربية الاسلامية منذ فجرها . وكان الرسول (ص) رائد الخلفاء الراشدين في الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فقد تولى صلى الله عليه وسلم مراقبة الاسواق بنفسه حينا واوكلها الى غيره أحيانا . روي عنه(ص) «انه مرّ على صرة طعام(١٦) فادخل يده فيها فنالت أصابعه بللا،

فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فقال : اصابته السماء يا رسول الله ، فقال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس مني » أو (منا)، وخرج الرسول (ص) يوما الى المصلى فراى الناس يتبايعون فقال : يا معشر التجار، فاستجابوا له (ص) ورفعوا اعناقهم وابصارهم اليه ، فقال « ان التجار يبعثون يوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصدق » وقال (ص): « التاجر الصدوق المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة » . وقال (ص) « الحلف منفعة للسلع ممحقة للربح » وقال (ص) « ان الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهنّ كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام » ولعن (ص) آكل الربى ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال (ص): هم سواء وقال (ص) : « ما نقص قوم المكيال والميزان الا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم » . وقال (ص): « رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى » (١٧). وحتى لا تحدث المخالفات في الاسواق اسند (ص) أمر السوق في المدينة وغيرها الى عمال معينين ، فعين عمر بن الخطاب مشرفا(١٨) على سوق المدينة ، وروي انه (ص) استعمل سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكة(١٩) ، فهذا أول محتسب مكلف في الاسلام، لان كلمة استعمل تعني انه كلف من الرسول (ص) ، وانه صاحب السلطة ، وانه فرض له رزق(٢٠) . وذكر بعض المؤرخين أن « سمراء بنت نهيك الاسدية وهي صحابية أدركت النبي (ص) وعمرت كانت تمر في الاسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها »(٢١) .

وفي العصر الراشدي سار الخلفاء الراشدون على سنة نبيهم (ص) ، وكان الخليفة عمر (رض) حريصا كل الحرص على استمرار الحياة المثالية التي استنها الرسول ، وعلى العدل بين الناس ، فمارس مهام الحسبة بنفسه واشرف على اسواق المدينة ، يطوف فيها يتفقد أحوال أهلها(٢٢) ويراقب الموازين والمكاييل ، ويحث ولاته على ذلك.

وكثير ما كان يضرب من يجلس في السوق ولا يعرف احكامه(٢٣) . فالمشهور عنه انه ضرب جمالا لانه اثقل الحمولة على جمله قائلا له : « حملت جملك ما لا يطيق »(٢٤) ، وادب مجموعة من التجار الذين تجمعوا حول الطعام ولم يتركوا منفذا للمارة ، واتلف لبنا شابه شيء من الغش واراقه على رأس صاحبه(٢٥) ، وأمر بائعا يبيع زبيبا في السوق أن يزيد من سعر زبيبه الذي يبيعه فيه أو يخرج من السوق(٢٦) . وعين عمر الموظفين على أسواق الامصار للاشراف عليها ومراقبة سير الامور فيها فجعل السائب بن يزيد عاملا على سوق المدينة مع عبد الله بن عتبة بن مسعود(٢٦) ، وعين سليمان بن خيثمة على السوق أيضا وكان من فضلاء(٢٨) المهاجرين . وذكر المؤرخون انه ولى أمر الاشراف على الاسواق في المدينة الى امراة تسمى الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية القرشية . وهي صحابية من فضيلات النساء ، كان الخليفة يقدمها لرأيها ورجاحة

عقلها . وقد اشار ابن الجوزي الى استعمال عمر(٢٩) للشفاء فقال : « وكان عمر اذا دخل السوق دخل عليها » وفي هذه العبارة اشارة الى مكان وجودها وعملها والا لكانت في بيتها . وقد يكون الخليفة ولاها مهمات خاصة في السوق تتعلق بأمور النساء(٣٠) ، فقد منع عمر (رض) الشعراء من التشبيب بالنساء وكان يجلد من يتعرض لهن بعشرين سوطا ، كما كان يمنع أن يجتمع الصبيان(٣١) عند من اتهموا بالفاحشة .

ولهذا يمكن القول ان الخليفة عمر كان أول من وضع نظام الحسبة(٣٢) في الاسلام. على الرغم من أن هذا اللفظ لم تذكره النصوص بشكل واضح الا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩ هـ) .

استمر الاشراف على الاسواق في عهد عثمان (رض) ، وقد ذكر ان « الحارث بن العاص كان عاملا على السوق في ايامه يراقب البيع والشراء ويأخذ العشور(٣٣) ، ويلاحظ الموازين ويضبطها ، وعرف عن الخليفة علي (رض) أنه كان يتفقد أمر الرعية ويمشي في الاسواق يرشد الناس ويصلح الاخطاء ويأمر بحسن البيع والامتناع عن التدليس والفساد(٣٤) ، وعن الغش بالكيل والميزان ، وينصح أهل السوق والتجار من بائعي التمور والاسماك وغيرهم بأخذ(٣٥) الحق ، واعطائه ، ويأمر بابعاد ما يؤذي المسلمين في الطرقات العامة واماكن الراحة ومجاري المياه . وقد روى عنه (رض) أنه قال في وصيته لابنه الحسن . أن النبي قال له : « يا علي مر بالمعروف(٣٦) وانه عن المنكر » .

وفي العصر الاموي : اتسعت رقعة الدولة ، وانضوى تحت لواء الاسلام عناصر متباينة من جنسيات مختلفة ، كل له تقاليده ونظمه ، وظهرت مراكز اقتصادية ومالية جديدة ، ونمت المراكز القديمة ، وتوافد عليها اصحاب الحرف والتجار ورجال الاعمال واستوطنوها ، ونقل هؤلاء معهم خبراتهم ونظمهم وتقاليدهم ، وادى كل ذلك الى تباين

واختلاف فيما بينهم انعكس بعضه في تباين الفقهاء الاوائل ، كما ازداد عدد الموظفين والعاملين في ادارات الدولة ، وكان بعضهم لا يتورع عن الغش ، لهذا كان لا بد من علاج وايجاد المؤسسات الادارية التي تأخذ على عاتقها مسؤولية الاشراف على مجرى الامور اليومية والتصدي للتلاعب والغش والتعدي في الاسواق . وقد واجهت الدولة الاموية مشكلات عدة نجمت عن الوضع الجديد ، ومعاملات وصناعات جديدة ، ومكاييل ومقاييس وموازين موروثة منذ القديم ، كالاردب في مصر والشام والصاع في الحجاز والقفيز في العراق(٣٧) ، وغيرها ... وشعر المسؤولون في الدولة بالمشكلات الجديدة وبالاخطار الناجمة عنها ، فاتخذوا الخطوات الجريئة لتوحيد الدولة اداريا وقانونيا بعد أن توحدت سياسيا ، تصدى الخلفاء لمشكلة الاسواق وما يلحق بها وزاد الاهتمام بمراقبتها ، واسندوا هذه المهمة لجلة ائمة الدين ووجوه المسلمين الذين كانت

لا تأخذهم في الله(٣٨) لومة لائم . وكان للخليفة الوليد بن عبد الملك اهتمام كبير بالاسواق ، وعرف عنه انه كان يتجول فيها ، ويسأل عن الاسعار ويطلب الزيادة في الاوزان(٣٩) ، واستمرت الحال على ذلك طوال العصر الاموي .

ورد ذكر « العامل على السوق » في البصرة في ولاية زياد بن ابيه « ولي البصرة سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥م»(٤٠) ، وذكر القاسمي أنه كان سمرة بن جندب ، وقال : وهو من أوائل المحتسبين في الاسلام ، ويقول عنه الزركلي(٤١) « من الشجعان القادة، نشأ في المدينة ونزل البصرة ، فكان زياد يستخلفه عليها اذا سار الى الكوفة ، ولما مات زياد أقره معاوية عاما أو نحوه ثم عزله » .

كان العامل على السوق في العصر الاموي يعينه الامير ، ويتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية ، ويزود ببعض الاعوان الذين يساعدونه على القيام بواجباته(٤٢)، وفي ولاية ابن هبيرة على واسط (١٠٣هـ-١٠٦هـ / ٧٢٠م-٧٢٤م) ولي لاول مرة مهدي بن عبد الرحمن ثم اياس بن معاوية محتسبين(٤٣) في واسط . ويمكن القول ان وظيفة المحتسب ذكرت لاول مرة في التاريخ الاسلامي في ولاية ابن هبيرة(٤٤) (نحو ١٠٣هـ) . ثم عين عاصم الاحول على الحسبة في المكاييل والموازين في الكوفة(٤٥) ، وابن حرملة أحد موالي عثمان ابن عفان عاملا على سوق المدينة(٤٦)، وفي العراق كل من داوود وعيسى ابناء علي بن عبد الله بن عباس ، وذلك في ولاية خالد بن عبد الله(٤٧) (١٢٥ هـ/٧٥٤ م) .

وفي العصر العباسي تطورت نظم الدولة ومؤسساتها ، وبخاصة في عهد الخلفاء العظام كالمنصور والرشيد . فقد بلغ من اهتمام الخليفة المنصور بشؤون الدولة ، اصدار الامر لعماله لموافاته بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وادم ، وغيرها من الاقوات مرتين في اليوم « فكان اذا صلى المغرب وافوه بكل ما حدث طوال النهار ، واذا ما صلى الصبح وافوه بما جرى(٤٨) في الليل » وكان يرجع الاسعار الى حالتها الاولى اذا ما لاحظ ارتفاعها ، واذا ما شعر بتقصير أحد عماله كتب له يوبخه ويؤنبه ، او يعزله اذا لم ينفع معه هذا او ذاك(٤٩) ، ولم يكن الرشيد أقل اهتماما بالتجارة وتنظيم امورها من المنصور(٥٠) .

اكتسبت الحسبة اهمية كبيرة في العصر العباسي الاول ، فعين المنصور عاصم بن سليمان الاحول ، وهو من مشاهير العلماء واحد الائمة الحفاظ من التابعين ، عينه في الكوفة « على الحسبة في المكاييل والاوزان » ، كما عهد الى أبي زكريا عبد الله بأمر حسبة بغداد واسواقها وذلك في سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م (٥١) . واصبح ذكر الحسبة يتردد كثيرا فيما بعد . ويذكر بعض الباحثين ان المهدي هو الذي أوجد منصب الحسبة(٥٢)، واسند لاصحابها امر مكافحة الزندقة لاستفحالها ، ثم تطورت بعد ذلك فتصدت

للمشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية اضافة الى مراقبة الاسواق. وكان الخليفة او الامام ، او الوزير احيانا ، يعين القائم عليها من المشهود لهم بالورع والدين والبأس الشديد(٥٣) .

الحسبة في مصر : كانت الحسبة في مصر ، مثلها مثل القضاء والمظالم ، تتبع الى بغداد(٥٤) ، وكان الولاة يقومون بمهامها بأنفسهم ، او يعهدون الى المحتسبين او القائمين على الشرطة ، بالسهر على مراعاة احكام الشرع وحسن السلوك العام والاشراف على النظام ، وحماية الناس من غش التجار(٥٥) والصناع ، ويذكر الكندي بهذا الصدد ان ابا مقاتل صالح بن محمد تقلد منصب الحسبة في مصر في ولاية تكين(٥٦) عليها ، وروى ايضا ، ان« أنوجور بن أولغ » ولي شرطة مصر سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م ، وكان شديدا فمنع النساء من ارتياد الحمامات والذهاب الى المقابر وسجن المخنثين ، ومنع النواح في الجنائز وشق الاثواب ، وعاقب من خالف ذلك بشدة(٥٧) ، كما اسند مؤنس الخادم هذا المنصب الى محمد بن جعفر القرطي قبيل ولاية الاخشيد(٥٨) على مصر .

وفي فترة الحكم الاخشيدي : كان الوزير يقوم بتعيين المحتسب . فقد أورد ابن زولاق أن محمد بن جعفر بن سلام ، كان من المحتسبين واتهم بقلة الوفاء ، فشكاه سيبويه الى الوزير ابي الفضل جعفر بن الفضل قائلا له(٥٩) : « ابا الفضل حفظك وصانك وابقاك وليت علينا محتسبا قليل الوفاء كثير الجفاء طويل القفا فأما ان كفيناه او أبدلته لنا بسواه .»(٦٠) ويبدو من هذا النص بأن الوزير كان صاحب الرأي في اختيار المحتسب وفي عزله .

وفي العصر الفاطمي : كان المحتسب من كبار الموظفين في البلاط توليه السلطة العليا بمرسوم فخم ، وكان الخليفة يستدعيه الى القصر ويسلمه امر التولية بنفسه. وكان سجل التعيين لأهميته يقرأ في جامعي القاهرة(٦١) ومصر . ولم تقتصر الحسبة في عهد الفاطميين على مراقبة الاسواق وتعدت ذلك لنشر مبادئهم العقائدية ، فكان على المحتسب أن يقوم بمراقبة كل المنكرات في المذهب الشيعي ، وهكذا وجد نوع جديد من الحسبة المذهبية ، استهدف نشر المذهب وتطبيقه(٦٢) . ولقد بلغ التعصب للمذهب الشيعي أشده في عهد(٦٣) الخليفة الحاكم الذي تطرف في معتقداته ، وكان يقوم بنفسه بتنفيذ أوامر الحسبة(٦٤) ونواهيها ، وحاول أن يضع حدا للمجون، فاصدر سنة ٤٠٢هـ/١٠١١ سجلا للمحتسب عينه(٦٥) وانفذ له معه خمسة الاف دينار وخمسة وعشرين فرسا بسروجها ولجمها وقلده الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر العليا والجيزة ، وامره بالتشدد في منع شرب النبيذ او صنعه او اي نوع من المسكرات. وتشدد هذا الخليفة في الحفاظ على الاداب العامة ، واتخذ اجراءات تعسفية كثيرة، شملت المسلمين واهل الذمة(٦٦) على السواء . غير ان الاهداف السياسية منعت

الخلفاء من الاستمرار في مثل هذه المبالغات(٦٧) ، ولهـذا كان اهتمام غالبيـة الخلفاء الفاطميين منصبا على التجارة والصناعة ومراقبة اصحاب الحرف والصناعات وحماية المصالح العامة وبخاصـة مصالح الطبقات الفقيرة(٦٨) . وبلـغ مـن اهتمام الفاطميين بمراقبة التجارة انشاء « دار العيار »(٦٩) حيث كان المحتسب يستدعي اليها جميـع الباعة ويقوم بفحص الموازين والصنج والمكاييل وتعييرها وضبطها ، فان وجد بها عيبا او نقصا اتلفها وكلف صاحبها بشراء غيرها(٧٠) .

ولقد ارتقى دور المحتسب في العصر الفاطمي ، وخاصة فيما يتعلـق بالنواحي الاقتصادية ، فكان عليه ان يتعرف على دقائق كل حرفة وتجارة(٧١) ، ويعتمد في ذلك على الخبراء والنواب في كل مهنة ، ويستخدمهم في جميع أعمال الدولة(٧٢) ممثلين عنه.

وراعى الفاطميون شؤون الحسبة في بلاد الشام . ذكر ابن عساكر في تاريخه عن المحتسبين الورعين والمشهورين بالزهد والتشدد في تطبيـق الشرائـع والسـنن(٧٣) « إبراهيم بن عبد الله بن حصن بن احمد بن حزم ابو اسحق الغافقي الاندلسي ؛ وكان محتسب دمشق ، عرف عنـه أنه كان صارما في الحسـبة ، وكان بعهده رجـل يقلي القطايف ، وكان المحتسب يريد ان يؤدبه ويعاقبه لمخالفته ، فاذا رآه القطايفي قد اقبل قال له : بحق مولانا (الحاكم) امض عني ، فيمشي عنه ، فغافله يوما وأتاه من خلفه، وقال له : وحق مولانا لابد ان تنزل . وأمر بانزاله وتأديبه ، فلما ضرب بالدرة، قال: هذه في قفا عثمان فقال المحتسب : أنت لا تعرف اسماء الصحابة ، والله لاصفعنك بعدد اهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، فصفعه بعدد أهل بدر وتركه ، فمات بعد أيام من ألم الصفع » ، وبلغ الخبر مصر فاتاه كتاب الخليفة الفاطمي الحاكم يثني عليه ويشد من أزره قائلا له « هذا جزاء من ينتقص السلف الصالح »(٧٤) ومات الغافقي سنة ٤٠٤هـ، وكان مالكيا يذهب مذهب المعتزلة .

ولجأ المحتسـب الفاطمي الى التشـهير ، وهو سـلاح معنوي له أثـر فعال في النفوس ، بأن يحمل التاجر المخالف على جمل ويطاف به في الاسواق والطرقات ، ويجبر على الصياح بصوت مرتفع لقد غششت فعوقبت(٧٥) . وكان من نتائج هذه السياسة، ان تميزت الفترة الفاطمية بالازدهار التجاري والتقدم الصناعي ، وقاد ذلك الى الغنى المفرط مما لفت انظار المؤرخين والرحالة أمثال ناصر خسرو(٧٦) وغيره .

واما الحسبة في بلاد المغرب : فقد باشرها الامراء والولاة(٧٧) في بداية الامر ، ثـم اخذت تسند الى القضاة ، ويظهر ان اقدم سجل بتولية قضاة افريقية يرجع الى عصر مروان بن محمد الذي كتب الى عبد الرحمن بن زياد : « قد ولاك امير المؤمنين الحكومة والقضاء بين اهل افريقية ،واسند اليك امرا عظيما ، وحملك خطبا جسيما فيه دمـاء المسلمين واموالهم ، واقامة كتاب الله عز وجل وسنة نبيه والذب عـن ضعيفهم مـن

قويهم ، وانصاف مظلومهم من ظالمهم ، واخذ من شريفهم بالحق لخاملهم ، وقد رجاك امير المؤمنين لذلك ، لفقهك وعدلك وخيرك ، وحسبك وعلمك وتجربتك ، فعليك باتقاء الله وحده لا شريك له وايثار الحق على ما سواه وليكن جميع الناس ، قويهم وضعيفهم في الحق عندك سواء »(٧٨) . ونستنتج مما تقدم أن القاضي يعينه الخليفة فيستمد سلطته منه مباشرة ، ولهذا كان بامكانه مقاضاة الولاة فيما اذا حادوا عن جادة الصواب(٧٩) ، أو ادعي عليهم . ولقد فعل ذلك ابو كريب القاضي مع عبد الرحمن بن حبيب عندما ادعى عليه احدهم(٨٠) . وكانت سلطة القضاة واسعة تشمل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان أكثر قضاة الاباضية يمارسون بعض مهام المحتسب ، وفي تاهرت الرستمية لم يرد ذكر المحتسب بهذا الاسم ، وقام بمهمته عامل عرف باسم « المشرف على السوق» ، ذكر ابن الصغير في تاريخه اختصاصاته فقال(٨١) : « وهو الذي يتجول في الاسواق ليحارب أنواع الغش ومظاهر التدليس ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاذا رأى جزارا ينفخ اللحم عاقبه ، واذا لاحظ دابة اثقلت بالحمل خفف عنها واذا وجد فضلات في السوق وفي الطرقات ، أمر بازالتها » . وقد اكتسبت هذه الوظيفة أهمية خاصة في تاهرت وفي الواحات التي التجأ اليها الاباضية بعد سقوط الدولة الرستمية(٨٢) .

وتعود البذور الاولى لنشأة نظام الحسبة **في القيروان** الى عصر الامراء المهالبة والى يزيد بن حاتم المهلبي واليها من قبل المنصور(٨٣) ، وكانت الاسواق قبله تخضع لنظر الوالي مباشرة يجول فيها مراقبا ومشرفا ، او ينيب عنه من يقوم مقامه(٨٤) . وقد استهل يزيد فترة حكمه في القيروان بتنظيم اسواقها وافرد لكل صناعة سوقا خاصا بها(٨٥) ، وذلك جريا على ما عرفته العراق ومصر(٨٦) ، وعين على كل صنعة في السوق عريفا خبيرا بخفاياها ، مهمته مراقبة سير الاعمال والدفاع عن حقوق العمال الاجراء،

والمحافظة على العلاقات الحسنة بين أصحاب المهن وعمالهم ، ومنع الغش في الصناعات(٨٧) . وسرعان ما انتشر نظام اسواق القيروان في غيرها من مدن افريقية والمغرب مثل تونس وصفاقس وسوسة وتاهرت الرستمية ، وسجلماسة عاصمة بني واسول الصفرية ، وفاس الادريسية(٨٨) .

ويبدو أن الامور استمرت هكذا بحيث كان الولاة ومن يحظى بثقتهم من القضاة والعمال يقومون بالاشراف على شؤون الحسبة ، فعند ما ولي محمد بن الاغلب سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨ م ابا سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي قاضيا في افريقية(٨٩) باشر شؤون القضاء والحسبة معا ، ثم ما لبث ان عين للحسبة امناء او محتسبين ، واحتفظ لنفسه بمنصب القضاء ، وفصل الحسبة عن القضاء(٩٠) ، وقام سحنون

بجهود كبيرة ادت الى تطور نظام الحسبة وتقدمه ، ووقف بجراة وشجاعة امام رغبات الولاة والامراء وكبح جماحهم ، واستمر في عمله الجاد للارتقاء بنظام الحسبة وتحديد واجبات المحتسب واختصاصاته ومهامه واستن طريقا واضحا لتغيير ما كان يراه منكرا في عصره(٩١) .

ويذكر ان أول من تولى الحسبة لسحنون كان حبيب بن نصر . الا ان اسم الحسبة لم يكن معروفا قبل القرن الرابع الهجري ، وانما كانت تعرف باحكام السوق، ويطلق على متوليها « ناظر أحكام السوق »(٩٢) ولقد عرف نظام احكام السوق تطورا كبيرا وعناية مميزة بعد فترة سحنون وظهرت المؤلفات حوله ، وكان أقدمها ما ألفه يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الاندلسي(٩٣) (٢١٣ – ٢٨٩ هـ/٨٢٨–٩٠٢م)وضمنه كتابه احكام السوق ، ويمتاز هذا الكتاب بانه عمل فريد في نوعه من حيث قدمه وتحريه للدقة .

واما في الاندلس : فقد بلغت الحسبة ايام الامويين مبلغا عظيما ،يدل على ذلك ما جاء في نفح الطيب للمقري ، وما كان من عناية علمائها واهل الرأي فيها بوضع قواعدها ودراسة أحكامها . وعرف المحتسب بصاحب السوق ، ويتقلد وظيفته من القاضي بموافقة الامير أو حاكم المدينة .واشترط الاندلسيون ان يكون من أهل التجربة والخبرة والعفة والمروءة . وعلى العموم كانت الحسبة في الاندلس نوعا من أنواع القضاء المتميز بسرعة البت في القضايا(٩٤) ، وتسوية المخالفات في الطرقات والاسواق ، والمحتسب قاضيا اداريا في منطقة اختصاصه ، يتولى أحيانا مهام القاضي وينوب عنه ، ويحول بينه وبين التعامل مع الاشرار والموجين والمخالفين . يعتمد على أعوانه ويعزر المجرمين على قدر جرمهم بالتجريس ، وهو التشهير في الاسواق أمام الجمهور ، أو بالضرب فاذا تاب المشهر به سمح له بممارسة نشاطه ، واذا عاد الى غشه أخرج من السوق وربما نفي من البلد(٩٥) . لذلك اهتم القاضي بالمحتسب وراتبه وما كان يصدر عنه من احكام. وقد ارتقى نظام الحسبة في الاندلس واصبح علما يحتوي على مجموعه من القوانين والاحكام يتدارسها طلاب العلم كما يتدارسون الفقه والافتاء لاهميتها وارتباطها الوثيق بالحياة العامة ، وافرد لها الكتاب الاندلسيون المصنفات وكتبوا عنها خلاصة تجاربهم العلمية ، من أمثال ابن عبدون الاشبيلي ، والسقطي المالقي ، وابن عبد الرؤوف وعمر بن عثمان الجرسيفي(٩٦). وتعد هذه الدراسات وخاصة ما جاء منها على لسان السقطي أفضل ما ألف في ميدان الحسبة لصفتها العلمية المبنية على التجربة الطويلة ، والخبرة والمشاهدة واهمها مشاهدات السقطي التي اكتسبها في رحلاته واسفاره وممارساته في بلدة مالقه في القرن السادس الهجري. وتمتلىء كتب طبقات الاندلسيين بأسماء اصحاب الاسواق ، او المحتسبين ومن أهمهم أبو علي حسن بن محمد بن ذكوان القرطبي ، واحمد بن يونس الجذامي القرطبي ، وقد شغل كل منهما ولاية الشرطة والسوق(٩٧) .

من خلال ما تقدم نجد ان اختصاصات المحتسب : متشعبةوكثيرة وتشمل العديد من مجالات الحياة ، وواجباته الرئيسية متشابهة الى حد كبير في كل انحاء المجتمع العربي الاسلامي . وقد حدد الفقهاء اختصاصات الحسبة وتكلموا بشيء من التفصيل على مهامها(٩٨) في كتب التاريخ والفقه والتراجم او كتب الحسبة ، وهي لا تختلف في شرق العالم الاسلامي وغربه ، وما ورد في كتب الحسبة انما هو تعبير عن اختلافات ظاهرية تفصيلية تعكس اثر الاوضاع الخاصة لكل قطر(٩٩) .

وربما كان ما أورده ابن خلدون في مقدمته افضل ما قيل في الحسبة واحسن ما ذكر عن مهامها(١٠٠) : « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، يعين لذلك من يراه اهلا له، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة : مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الايلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ، ويرفع اليه ، وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين وله أيضا حمل المماطلين على الانصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيّنة ولا انفاذ أحكام ، وكأنها أحكام يتنزه القاضي عنها لعموميتها وسهولة أغراضها ، فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك ان تكون خادمة لمنصب القضاء ، وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخله في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في في وظائف الملك وافردت بالولاية »(١٠١) .

و اعتبر المحتسب من اكبر الموظفين نفوذا لاتصاله المباشر بجميع شرائح المجتمع وكان يمنع الاطباء والجراحين والصيادلة من وصف العلاج الخاطىء او بيع العقاقير المغشوشة ، ويمنع المحتكرين والصرافين من رفع السعر والغش في النقود وتزييفها(١٠٢)، وذكر الشيزري انه كان يعلم بأمور الموازين والمكاييل ، وعيار الارطال والمثاقيل ، ويشرف على جميع نواحي الانتاج والبيع والشراء ، ويتدخل في كافة شؤون الحرف والاصناف(١٠٣) ، ويمنع الغش بأنواعه ، والتحايل ، ويكافح الغلاء . وهو وان لم يكن له الحق في تحديد الاسعار « لان المسعر هو الله » الا انه كان يحول دون ارتفاع اسعار بعض البضائع الضرورية ارتفاعافاحشا ، ويمنع بيعها الا في الاسواق ، كما كان يتدخل في حالات الاحتكار(١٠٤) ويجبر المحتكرين على عرض بضائعهم وبيعها « لان الاحتكار حرام والمنع من فعل الحرام واجب » كما روي عن الرسول (ص)(١٠٥) « الجالب

مرزوق والمحتكر ملعون » . وبخلاف القضاء جاء عمل المحتسب متطلبا للسرعة(١٠٦)، والبت في معالجة الامور ضمانا للحقوق .

وبكلمة محددة ان اهم اختصاصات الحسبة وولاتها : كانت الاشراف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية لتسير في اطار الشريعة الاسلامية والاخلاق الفاضلة والذوق السليم ، ومنع البدع والاهواء ، ومكافحة المذاهب الشاذة عن مذهب الجماعة والاغلبية ، الى غير ذلك من أمور(١٠٧) وكان يأمر بالجمعة والجماعة ، وبصدق الحديث ، وأداء الامانات وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة(١٠٨) ، ويراقب نظافة الاسواق والطرق ، ومنع كل ما من شأنه مضايقة المارة(١٠٩) ؛ كما كان يقوم بمنع الناس من مواقف الريب(١١٠) ومظنات التهم وكان عليه ان يتفقد المواضع التي تجتمع فيها النساء كالاسواق وشواطىء الانهار والحمامات(١١١) .. ويتعهد ابناء الجند الذين قتل اباؤهم في سبيل الله وأهاليهم(١١٢) ، ويتفقد احوال المرضى ، ويشرف على تعليم الصبيان والبنات ويعمل على راحتهم والمحافظة(١١٣) على سلوكهم .

ومما يلفت الانتباه أن أعمال المحتسب قد تطورت تطورا هاما في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، فشملت الحكام والولاة والامراء والقضاة(١١٤) . فكان يقصد مجالس هؤلاء يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويدعوهم الى الشفقة والاحسان الى الرعية(١١٥) ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ويقول كلمة الحق(١١٦) لا يخادع ولايرائي. يروي ابن عساكر ان أبا الحسين النوري المحتسب حطم دنان خمر كانت في طريقها الى الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ / ٨٩٢-٩٠٢م) وعندما احضر بين يديه وسأله عن عمله قال : « انا المحتسب . قال : من ولاك الحسبة ، قال : من ولاك الخلافة يا أمير المؤمنين ، فأطرق الخليفة قليلا ثم قال : اذهب فقد أطلقت يدك فغير ما أحببت ان تغيره من المنكر »(١١٧) .

ويروى أيضا ان طغتكين(١١٨) (ت٥٢٢هـ/١٠٢٨م) أتابك دمشق أراد أن يعين عليها محتسبا فذكروا له رجلا من أهل العلم والمعرفة فطلب احضاره فلما مثل بين يديه قال :« اني وليتك أمر الحسبة على الناس بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر » قال: « أن كان الامر كذلك فقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند ، فانهما حرير ، واخلع هذا الخاتم فانه ذهب» ، فقد قال النبي (ص) في الذهب والحرير « ان هذين حرام على ذكور امتي حل لاناثها » ، قال فنهض السلطان عن طراحته ، وامر برفع مسنده ،وخلع الخاتم من اصبعه وقال : « قد ضممت اليك النظر في امور الشرطة » فما راى الناس محتسبا أهيب منه ..

وكان المحتسب يتردد الى مجالس الحكام والقضاة ، ويردع القاضي من اتخاذ حكم في حالة الغضب(١١٩) والانفعال ، ويعاقب بالعقوبة المناسبة من يسفه مجلس الحكم أو يطعن في صحته او لا يخضع الى الشرع(١٢٠) والقانون .

ولم يكن المسؤولون يتهاونون مع المحتسب اذا قصر في عمله ، فقد أقدم المنصور على قتل محتسب بغداد يحيى بن زكريا(١٢١) لسوء تصرفه . ولما بلغ الوزير العباسي علي بن عيسى ان محتسب بغداد كان يكثر الجلوس في داره كتب له توقيعا جاء فيه «الحسبة لا تحتمل الحجبة فطف بالاسواق تدر لك الارزاق، وان لزمت دارك صار الامر كله عليك ، والسلام »(١٢٢) .

وبمقابلة نظام الحسبة كمؤسسة ادارية اسلامية مع النظام الحديث يتبين لنا ان عمل الحسبة يناط اليوم بوزارت ومصالح متعددة، مثل وزارات التموين والاقتصاد والتجارة والصناعة والصحة والتربية . .الخ ، والشرطة البلدية والاخلاقية ، وغيرها من الادارات(١٢٣) .

ونظرا لاتساع اختصاصات المحتسب وتشعبها وصلتها بالامور الشرعية فقد أوجب الفقهاء توافر صفات معينة فيمن يوكل اليه(١٢٤) أمرها واتفقوا على ان يكون مسلما(١٢٥) حرا بالغا عدلا وان« لا يولاها(١٢٦) الا عالم مجرب» فقيه عارف بأحكام الشريعة الاسلامية، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه « فان الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر الا بكتاب(١٢٧) الله عز وجل » . وان يعمل بما يعلم ، وان لا يكون قوله مخالفا لفعله(١٢٨) ، فقد قال عز وجل في ذم علماء بني اسرائيل : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »(١٢٩) .وروى أنس بن مالك ان النبي (ص) قال : « رايت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بالمقاريض فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم(١٣٠)» . وأن يكون عفيفا عن أموال الناس « متورعا عن قبول الهدية فان ذلك رشوة »(١٣١)، وأن يكون ذا رأي وخشونة ، ويعلم نفسه(١٣٢) على الصبر وان يتجه بعمله وقوله الى الله وطلب مرضاته خالص النية لا يشوبه في طويته رياء(١٣٣) ولامراء « عارفا بالموازين والمكاييل والارطال والمثاقيل والدراهم وتحقيق كميتها » حتى يتمكن من اجراء معاملات الناس ومراقبتها دون أن يلحق بهم الغبن أو التطفيف(١٣٤) ، متمسكا بتعاليم الدين وسنن رسول(١٣٥) الله (ص). . وعليه ان يكون أنيقا نظيفا مواظبا على القيام بالفرائض والواجبات (١٣٦) ، وكلها أعمال تزيده وقارا وتقديرا وتبعد الطعن في دينه وسلوكه. وان يكون عارفا بأحكام الصلاة والصوم والزكاة ، والزواج والطلاق ، والبيع والشراء، والمباح من الطعام والمحرم ، وفي الاشربة والذبائح وشروطها ، والشهادات ، والصنائع جيدها من رديئها وغشها وخالصها من مغشوشها(١٣٧) ، وباختصار عارفا عالما بكل قواعد الشرع لينا من غير تراخ شديدا من غير(١٣٨) عنف . وكانت الحسبة في العصر الفاطمي تعد من المناصب الهامة في الدولة وتأتي بعد القضاء(١٣٩) والدعوة ، ويتمتع صاحبها بصفات اخلاقية عالية ولا تعقد الا لاشخاص من أعيان الشهود والعدول يعينهم الخليفة بنفسه ويراقبهم عن كثب(١٤٠) .

ولما كان المحتسب غير قادر على الاحاطة بكل ما تقدم ، فقد اتخذ العرفاء على الاصناف وأصحاب الحرف من اصحاب الخبرة واهل الثقة(١٤١) والامانة ، كما اتخذ النواب على الحدود والموانيء وفي الاماكن التي ترد اليها الغلة لمراقبة ما يرد من الغلال وما يخرج منها ، وليكونوا على اطلاع واسع على احوال البلاد(١٤٢) الاقتصادية ، واتخذ الاعوان والغلمان ليتقوى بهم على(١٤٣) المخالفين ، وقد يكون الشرطة من هؤلاء .وكان له خطة يتبعها في القيام بأعماله ، وله دكة في السوق(١٤٤) يراقب منها اهل السوق ، ويطوف الاسواق الاخرى ليلا ونهارا راكبا أو ماشيا محاطا باعوانه(١٤٥) وغلمانه ومنهم عريف السوق والعارف بأحوال الصناعات وخفاياها وكان عليه ان يحمل سوطا ودرة، ويخيف الناس المتلاعبين بمصالح واقوات الشعب ويغافل الجميع، ويتفنن في ايجاد الوسائل لكشف الغشاشين ، وكان لا يعاقب الافراد لاول غلطة بل يبدي النصح والارشاد والتحذير ، وبعد ذلك يباشر العقوبة(١٤٦) المستحقة بادوات حددت ووصفت وصفا دقيقا على ما أورده ابن الاخوة(١٤٧) وغيره .

ويعد كتاب **احكام السوق** من اقدم ما وصلنا من كتب الحسبة المستقلة. ثم ظهرت في وقت متأخر كتب تناولت الحسبة تفصيلا ، وتطرقت الى كل ما يتصل بها من شروط المحتسب ومهامه ، ويظهر أنها وضعت كبرنامج عمل للمحتسب كي يقوم بأعماله على أكمل وجه ، وتكشف الكتب والمؤلفات في الحسبة جوانب هامة وشيقة من الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ودور المحتسب وأعوانه في المحافظة على مصالح الناس ، ويعد كتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** لجلال الدين عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري الشافعي (ت٥٨٩هـ / ١١٩٣ م) من أهم هذه المؤلفات في نهجه وموضوعه من الناحيتين العلمية والتطبيقية ، والشيزري شامي الوطن شافعي المذهب ،تضمن كتابه اربعين بابا من ابواب الحسبة ، ويعد المصدر الاساسي لكل ما كتب بعده(١٤٨)، ككتاب **معالم القربة في احكام الحسبة** «لمحمد بن محمد القرشي المشهور بابن الاخوة (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م) ». وما كتبه ابن بسام في كتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** وغيرهم.

حصل المرشح على الدكتوراه من قسم التاريخ في كلية الاداب بجامعة دمشق برسالته « حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي». باشراف الدكتور سهيل زكار .

(١) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن جلال الدين الانصاري ، لسان العرب ، دار لسان العرب، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٦م ، ج١٥ ، مادة حسب . القلقشندي، صبح الاعشى في كتابة الانشا، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩١٢-١٩١٩، ج١٥، ص ٤٥١ . ابن زيدان ، العز والصولة في معالم نظم الدولة ، الرباط ، ١٩٦٢م، ج٢، ص٦١ . ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي « السلطة القضائية » بيروت ١٩٧٤م ، ص ٥٨٧ .

(٢) الزبيدي ، محب الدين ، محمد مرتضى الحسيني الواسطي ، تاج العروس في جواهر القاموس، ١٠ أجزاء ، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦هـ .

(٣) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ط٣ ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ٢٤٠ . أبو يعلى الفراء ، الاحكام السلطانية ، ط١ القاهرة ١٩٣٨ ، ص٢٦٨.

(٤) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، ١٠٤. ابن الاخوة ، معالم القربة في احكام الحسبة ، نشر روبن ليفي ، كمبريدج ، ١٩٣٨ م ، ص ٥٣.

(٥) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٤٠ . ابن خلدون، المقدمة بيروت ١٩٦١ ، ص ٤٠٥ . المقريزي ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار « الخطط المقريزية » ، مطبعة النيل القاهرة ١٣٢٦ هـ، وطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج١ ص٤٦٣ . موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشأتها وتطورها ، ط١ ، الجزائر ١٩٧١ م ص٢١.

(٦) ظافر القاسمي ، نظام الحكم ، ص٥٨٩.

(٧) المرجع السابق والصفحة .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٠٥ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٦ ، ج١ ، ص ٣٩٥. جرونبال ، حضارة الاسلام ، طبعة القاهرة، ص ١١٢ . محمد المبارك ، الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية دار الفكر ، ط١ ، ١٩٦٧-١٢٨٧هـ ، ص ٧٢.

(٩) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٥٨ . ابن الاخوة، معالم القربة ص٧ .

(١٠) القلقشندي ، ج٥ ، ص ٤٥١-٤٥٢ . الحاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، طهران ، ١٩٦٧ ج١ ، ص ١٦.

(١١) نقولا زيادة ، الحسبة والمحتسب في الاسلام، بيروت ١٩٦٢ م ، ص ٣١. موسى لقبال ، ص٢١. ظافر القاسمي ، ص ٦١٠ .

(١٢) موسى لقبال ، ص٢٢ . ظافر القاسمي ، ص ٥٩١. وانظر : الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨٥«الطبع على هامش الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني» القاهرة ، ١٩٣٩م.

(١٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، القدس ١٩٣٦م ، ج٥ ، ص٤٢ . وكيع ، محمد بن خلف ، بن حيان ٣٠٦هـ ، اخبار القضاة ، القاهرة ١٩٥٠ ج١ ، ص٣٥٣ . الشافعي الام، كتاب الشعب، القاهرة ج٤ ، ص ٢٠٥ . الاصفهاني الاغاني، طبعة الساسي ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ودار الكتاب العربي بيروت ، ج٨ ، ص ٢٧٦. عبد الحي الكتاني ، نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الادارية ، دار الكتاب العربي، بيروت ج٢، ص ٣٦ .

(١٤) صالح احمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ١٩٥٣ ، ص ٢٤٠.

عبد العزيز الدوري نشوء الاحناف في الاسلام، مجلة كلية الاداب ، العدد الاول ، حزيران ١٩٥٩ ، ص١١٨. حسام قوام السامرائي، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ، مكتبة دار الفتح بدمشق ١٩٧١، ص ٣٠٧.

(١٥) بن بشكوال ، ابو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الانصاري الاندلسي، الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم ، القاهرة ١٣٧٤هـ ١٩٥٥ م ، ص٣٠٢ ، يذكر عند ترجمته لابن المشاط الرعيني القرطبي (ت ٣٩٧هـ) انه تولى أحكام السوق المدعوة عندنا بولاية السوق، غير أن ابن فرحون في كتابه تبصرة الحكام ج٢ ، ص١١٤، يذكر ان ابن عاصم القرطبي ت٢٥٦ هـ ، كان محتسبا بالاندلس والراجح ان ابن فرحون قد استعمل هذا الاصطلاح المتأخر لشيوعه في عصره . انظر ، حسام قوام السامرائي ، المؤسسات الادارية ، ص ٣٠٧ .

(١٦) ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص ١١-١٢. الكتاني ، التراتيب ج١ ، ص ٢٨٤ . السقطي ، في اداب الحسبة ، باريس ١٩٣١ ، ص ٤ . محمد المبارك ص ٧٦، ١٤ ١. موسى لقبال ص٢٢ . الباز العريني، الحسبة والمحتسبون في مصر، المجلة التاريخية ، مجلد ٣ ، عدد ٢ ، اكتوبر ١٩٥٠ م .

(١٧) السقطي ، في اداب الحسبة ، ص ٢، ٤.

(١٨) ابن الاخوة ، ص٢ ١. لسقطي ، ص٤-٥.

(١٩) ابن الاخوة ، ص ٢٧ ينقل عن الاستيعاب ان الرسول ص، عين سعيد بن اصيحة بن العاص على سوق المدينة . موسى لقبال ، ص٢٢ . الباز العريني ، المرجع السابق .

(٢٠) ابن الاخوة ، ص ٣٦ « يورد اسمه سعيد بن أصيحة بن العاص » وانظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب ج١ ، ص ٢٨٥. الحلبي ، علي بن برهان الدين ، انسان العيون في سيرة الامين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ج٣ ، ص ٣٦٥ . موسى لقبال ، المرجع السابق ، ص٢٢ . محمد المبارك ، المرجع السابق ص ٧٦.

(٢١) الكتاني، المرجع السابق ج١ ، ص ٢٨٥ . ظافر القاسمي ، المرجع السابق ، ص٥٩١.

(٢٢) ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٣ . الطبري ، تاريخ ج٤ ، ص١٩٠ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد، القاهرة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠م ، ج٤ ، ص٤٧٠. اليعقوبي ، تاريخ ، لايدن ١٨٨٣م ، ج٢ ص١٩٥٨. ابن كثير ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ٣٤٨ ١- ١٩٢٩م ، ج٧ ص ١٢٤. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨، ص ٢٢٣ .

(٢٣) ابن الاخوة ، معالم ، ص١٣. الكتاني ، التراتيب ج٢ ص ١٨ .

(٢٤) ابن الاخوة ، معالم ، ص ٢٣ . ابن تيمية ، الحسبة في الاسلام ص٤٢. ابراهيم الشهابي ، المرجع السابق ص ١٠٤-١٠٥ موسى لقبال، المرجع السابق ص ٢٢ . مصطفى الشكعة ، معالم الحضارة العربية ، ط٢ بيروت ١٩٧٥ ، ص٨٤.

(٢٥) ابن تيمية ، الحسبة ، ص ٤٣.

(٢٦) السقطي ، في اداب الحسبة ، ص ٥. المزني، احمد ابن ادريس العلي ، مختصر كتاب المزني، القاهرة ١٩٦١ ج٤ ، ص٩٤ .

(٢٧) ابن الاخوة ، معالم ص١٣ . ابو عبيد ،الاموال ، ص٧١١ . الشافعي ، الام ، ج٢ ، ص٢٠٥. ابن تيمية ، الحسبة ، ص ٣٣ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٢٣. ابراهيم الشهابي، المرجع السابق ص ١٠٤ــ١٠٥ . حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ط ٤ ، ١٩٧٠ م .

(٢٨) ابن عبد البر ، ابو عمر بن عبد الله بن محمد ، الاستيعاب ، طبع على هامش الاصابة لابن حجر العسقلاني ، القاهرة ١٩٣٩ ، ج٢ص٦٢ عبد الرحمن زيدان ، كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة ، الرباط ١٩٦٢ ، ص ٢٣.

(٢٩) ظافر القاسمي ، نظام الحكم ، ص٥٩٢ ، نقلا عن سيرة عمر لابن الجوزي ، ص ٤١. وانظر ، الزركلي ، الاعلام ، القاهرة ١٩٥٩ ، ج٣ ص٢٤٦ . الطبري ، تاريخ ، ج٣ص ٢٨٠ . وابن الاثير، الكامل ج٣ ص ٣٢.

(٣٠) ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب، حيدر آباد ١٣٢٦ هـ، ج١٢ ص ٤٢٨ . ابن سعد ، الطبقات ، ج٨ ص ١٩٨. الزركلي ، الاعلام، ج٣ ص ٢٤٦ . الكتاني، المرجع السابق ج١، ص٢٨٦.

(٣١) الاصبهاني ، الاغاني ، ج٤،ص ٣٥٦ ..ابن تيمية ، الحسبة ص٩٣.

(٣٢) القلشندي ، صبح الاعشى ، ج٥ ص ٤٥٢.موسى لقبال ، المرجع السابق ص٢٣ .

(٣٣) البلاذري ، انساب ، ج٥ ، ص ٤٧ . الديار بكري ت ٦٨٢هـ ١٢٨٣ م . حسن بن محمد بن الحسين ، تاريخ الخميس في أحوال انفس النفيس ، جزاءن ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٣هـ ، ج ٢ص ٢٦٧ .

(٣٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٣ ص١٨. ابن سعد ، الطبقات ج٣ ص ١٨ .

(٣٥) ابن كثير ، المصدر السابق ج٨ ص ٤ .الكتاني ، التراتيب الادارية ج١ ص ٢٩٠. وكيع ، اخبار القضاة ج٢ ص ١٩٦ . موسى لقبال ،المرجع السابق ص ٢٣. عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج١ ، ص ١٦٢ .

(٣٦) ابن الاخوة ، معالم ، ص١٥ . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ،ص ١٦٣.

(٣٧) الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦م ص١٥ وما بعدها ، الماوردي ، الاحكام ص٤٦٥ . الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة، ص ٣١٦ ــ ٣٢٥ ، ط٣ ، دار المعارف بمصر١٩٦٩ ، وطبعة القاهرة ١٩٥٧م . علي مبارك، الميزان في الاقيسة والاوزان ، ص ٨٦ ــ ٨٩ ، المطبعة الاميرية بولاق مصر ، ١٣٠٩ هـ ــ ١٨٩٢ م . وانظر ، القاموس المحيط (مكة) ولسان العرب مادة « مكك » . وانظر ، محمد امين صالح ، النظم الاقتصادية في صدر الاسلام ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٢٨٠، ٢٨١ .

(٣٨) عبد الرحمن بن زيدان ، العز والصولة ، ،ص ٦٣.

(٣٩) الطبري ، تاريخ ج ٦، ص ٤٩٦. ابن عبدربه ، العقد الفريد ج٤ ص ٤٢٤ .ابن الاثير ،الكامل ج٥ ص ٩ . ابن كثير ، البداية ج٨ ص ١٦٥. ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول بيروت ١٩٥٨، ص ١١٣.

(٤٠) العلي ، المرجع السابق ص ٦٧ ٢. وانظرعن نشاة المحتسبين : رياض النفوس ، ج١ ص ٣٨١ وانساب الاشراف ، ج٤ ، ص ٧٨٦ « مخطوطة القاهرة ».

(٤١) القاسمي ، نظام الحكم ص ٥٩٢ . الزركلي، الاعلام ، ج٢ ص ٢٤٦.

(٤٢) العلي ، المرجع السابق ص ٢٦٧. الاغاني ، ج ١٧ ص ١٠٨ . مصعب الزبيدي ، نسب قريش ورقة ١٧٠ آ « مخطوطة كبودليان » .

(٤٣) العلي ،ص ٢٦٨ .. وانظر البلاذري ، انساب ج ٨ ص ٢٩٠. وكيع، اخبار القضاة ج١ ص ٣٥٣.

(٤٤) العلي ، ص ٢٦٨.

(٤٥) ابن سعد ، المصدر السابق ج٧ ق١ص ٦٥.

(٤٦) ابن سعد ، المصدر السابق ج٧ ق١ ص٧٠.المقدسي ، البدءوالتاريخ ج٦ ص ٥١-٥٢.

(٤٧) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ص ٢٠٢.

(٤٨) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ج٢ ص ٢٧٠-٢٧١ .

(٤٩) الطبري ، تاريخ الرسل ج٧ ص ٣١٤ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٢٣٢ . حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج٢ ص ٢٧٠- ٢٧١.

(٥٠) جميل نخلة المدور ، حضارة الاسلام في دارالسلام ، القاهرة ١٩٣٢ ص ١٨ ١. حسن ابراهيم حسن ، المرجع السابق ج٢ ص ٢١٨ -٢١٩.

(٥١) ابن سعد ، الطبقات ج٧ ص ٣٠-٦٥ . ابن‌حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، حيدر اباد الدكن ١٣٢٥- ١٣٢٧هـ / ١٩٠٧-١٩٠٩م،ج٥ ص ٤٣ . ويورد ابن الاخوة في معالم القربة ص ٣٧ والخطيب البغدادي في تاريخه ج١٢ ص٢٤٤ القول بان عاصم بن الاخول كان بالمدائن على الموازين والمكاييل يعني كان محتسبا ، وهذا يخالف مااورده ابن سعد وابن حجر وغيرهم ، ولكن ابن سعد يذكر بانه كان قاضيا في المدائن في خلافة المنصور . انظر : ابن سعد ، الطبقات ، ج٧ ص٦٥. وانظر كذلك ، الطبري ، تاريخ ، ج٧ ص٦٥٣ ، والخطيب البغدادي ، تاريخ‌بغداد ج١ ص٧٩-٨٠ . حاج ابراهيم الشيخلي ، الاصناف في‌العصر العباسي نشأتها وتطورها ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٥٢) سيدو ، تاريخ العرب العام ، ص ٢٠٢وبهذايكون سيدو قد تناسى‌أو أغفل المحتسبين‌الذين عينهما المنصور للاشراف على الاسواق . انظر : الشيخلي ، المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٥٣) السقطي ، اداب الحسبة ص٥.

(٥٤) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم‌من مصر ، ج١ ص ٦٣ ١، القاهرة ١٩٧٣ . حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ط٢، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٢٥ .

(٥٥) الباز العريني ، المرجع السابق ، موسى‌لقبال، المرجع السابق ص٤ ٢. سيدة اسماعيل الكاشف ، مصر في العصر الاخشيدي ط٢ ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤٠ ادم متز ، الحضارة الاسلامية ج٢ ص ٢٣٣. وانظر كذلك الشيزري ،ص١٢وما بعدها .

(٥٦) الكندي ، الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ص ٥٣٩ « تولي ابي منصور تكين امر مصر لاول مرة سنة ٢٧٧هـ من قبل‌الخليفة العباسي المقتدربالله ، وتولى الامارة على مصر للمرة الثانية سنة ٣٠٧ هـ ، وفي المرة الثالثة سنة ٣١١هـ»، انظر : الكندي ، الولادة ، بيروت ١٩٨٠ ،ص ٢٦٧-٢٧٦-٢٨٠ .

(٥٧) ابن الاخوة ، معالم ص ١٧.

(٥٨) الكندي ، الولاة ، ص ٥٢٩ . سيدة الكاشف ، المرجع السابق ص ٢٤٠.. وانظر ابن سعد، المغرب في حلى المغرب ، ليدن ١٨٩٨ – ١٨٩٩، ص ٨ ، والقسم الاول من الجزء الخاص بمصر نشره زكي محمد حسن القاهرة ١٩٥٣.

(٥٩) ابن زولاق ، اخبار سيبويه المصري ، القاهرة ط١ ١٩٣٣ م، ص ٢٩–٥٣–٥٧ . سيدة الكاشف، المرجع السابق ص ٢٤٠–٢٤١.

(٦٠) ابن زولاق ، المصدر السابق ص ٢٩. سيده كاشف ، نفس المرجع والصفحات .

(٦١) المقريزي ، الخطط عن طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ ج٣ ص ١٩٨ ، وج٢ ص ٢٢٧. القلقشندي ، الاعشى ج ٣ ص ٨٧ ٤. عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ص ١٦٣.

(٦٢) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص ٢٧٠. ابن اياس ، بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج١ ص٥٢. ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد « تحقيق فوندر » ص٤١ . وانظر : عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ص ١٦٤.

(٦٣) ماجد ، المرجع السابق ص ١٦٥.

(٦٤) ماجد ، المرجع السابق والصفحة .

(٦٥) المقريزي ، الخطط ج٢ ص١٩٩.

(٦٦) المقريزي ، الخطط ج٢ ص ٢٨٥، ٣٤١ . الشيزري نهاية الرتبة ص ١٠٦ ، ١٠٧ . ابن الاخوة، معالم ، ص ١٧. ابن الاثير، الكامل ، ج٩، ص ١١٨. السيوطي ، حسن المحاضرة طبعة القاهرة ١٣٢٧هـ ، ج٢ ، ص ١٣ .

(٦٧) المقريزي، المصدر السابق ص ٣٥٤ ، حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ص ٢٢٢ .

(٦٨) راشد البراوي ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٩٨.

(٦٩) المقريزي ، الخطط ج٢ ص ٢٢٧.

(٧٠) المقريزي ، المصدر السابق والصفحة .ماجد، نظم الفاطميين ص ١٦١–١٦٢ . حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ص ٢٢٢.

(٧١) ماجد ، المرجع السابق ص ١٦٩.

(٧٢) المقريزي ، الخطط ج٢ ص٢٢٧ . الشيزري، نهاية الرتبة ، ص ٣٦–٣٧ . ماجد ، المرجع السابق ص ١٧١.

(٧٣) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، مطبعة روضة الشام سنة ١٣٣٠هـ ،ج ٢ ص ٢٢٢.

(٧٤) ابن عساكر ، المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٧٥) ناصر خسرو ، سفر نامة ، بيروت ١٩٧٠، ص ١٠٥ . زكي حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م ، ص ١٠٣.

(٧٦) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص٨٦، ١٠١ ، ١٠٥، ١٠٦ . عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣١٨ . وانظر: كذلك ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ج٤

ص١٢٥ وما بعدها . المقريزي، اتعاظ الحنفاء، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٤٥، ٢٥٠ . زكي حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٧٧) يحيى بن عمر ، احكام السوق ((تحقيق حسن حسني عبد الوهاب تونس ١٩٧٥ ص ٣١. موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٠. وانظر ، الحبيب الجنحاني ، المغرب الاسلامي ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ١٩٧٨ ، ص ٧٠ .

(٧٨) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ١٠١. موسى لقبال ، المرجع السابق ص٢١.

(٧٩) المالكي ، المصدر السابق ج١ ص ١٠٠-١٠٨ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٢١.

(٨٠) انظر حاشية ٨٠ و٨١.

(٨١) الشيخ البكري ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، الجزائر ١٩٧٥ ، ج ١٥، ص ٧١، ٧٢ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص٣٣.

(٨٢) موسى لقبال ، المرجع السابق ص٣٣.

(٨٣) يحيى بن عمر ، احكام السوق ، ص٢٢. وانظر : ابن عذاري المراكشي ، البيان ، المغرب في اخبار المغرب ، بيروت ١٩٤٧ - ١٩٥٠ - ص٩٢ . موسى لقبال ، المرجع السابق ، ص ٣٩. ((وهناك خلاف بين يحيى بن عمر وموسى لقبال في سنة تولية يزيد بن حاتم فيذكرها الاول سنة ١٥٥هـ والثاني سنة ١٥٦ هـ ، وكلاهما ينقل عن ابن عذاري المراكشي)) .

(٨٤) يحيى بن عمر ، احكام السوق ص ٢٢.

(٨٥) ابن عذارى المراكشي ، المصدر السابق ج١ ص٩٢. يحيى بن عمر ، المصدر السابق ص٢٢.

(٨٦) موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٩ ((ويذكر ان البصرة مسقط راس يزيد)).

(٨٧) موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٩.

(٨٨) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات في الحضارة العربية في تونس ، جزءان تونس ١٩٦٥- ١٩٦٦ج١ ص٥٨-٥٩. ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة ، عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٦، ص٦٦. موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٩-٤٠.

(٨٩) انظر ، ابو بكر المالكي ، رياض النفوس، نشر وتحقيق حسين مؤنس ، ١٩٥١م ص ٢٧٢-٢٧٣. يحيى بن عمر ، أحكام السوق ص ٢٢-٢٣. ((وسحنون الذي أصبح قاضيا للقيروان هو ، ابو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، اصله من عرب الشمال وقد قدم ابوه سعيد مع الجند الشامي، من اهل مدينة حمص ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠هـ ، وتتلمذ على يد علي بن زياد القيرواني)) . انظر ، موسى لقبال ، المرجع السابق ص٤٠.

(٩٠) يحيى بن عمر ، المصدر السابق ، ص ٢٣-٢٤، ٣١ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص٤٠-٤١.

(٩١) يحيى بن عمر ، المصدر السابق ، ص ٢٣-٢٤ ، ٢١-٢٢ . موسى لقبال ، المرجع السابق والصفحة .

(٩٢) يحيى بن عمر ، المصدر السابق ، ص ٢١-٢٢.

(٩٣) عثمان الكعاك ، مراكز الثقافة في المغرب ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٣. حسن حسني عبد الوهاب المرجع السابق ، ج٢ ص ١٢٩. موسى لقبال ، المرجع السابق ص٤٥.

(٩٤) انظر : ابن الاخوة ، معالم ، ص ٣٦. المقري ، نفح الطيب في غصن الاندلس الطيب ، «القاهرة، ج١ ، ص ٢٠٤» . موسى لقبال ، المرجع السابق ، ص ٣٥-٣٦ . وانظر : السقطي ، في اداب الحسبة ص١-٢ . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩، ص ٦٣٩.

(٩٥) المقري ، نفح الطيب ج١ ص ٢٠٢-٢٠٤. موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٥.

(٩٦) موسى لقبال ، المرجع السابق ص٣٥-٣٦.« ربما تدل نسبة الجرسيفي الى جرسيف اوكرسيف على كونه من المغرب الاقصى وهاجر الى الاندلس ، وقد ورد ذكره في فهرس مخطوطات الرباط وله منظومة من الفرائض » فهرس ص ٢٩٥.

(٩٧) ابن الابار ، محمد بن عبد الله البلنسي ، تكملة الصلة، القسم المفقود من طبعة قديرة ، الجزائر ١٩١٩-١٩٢١ ـ نشر الفرنديل . ومحمد بن شنبا ، الحلة السمراء دراسة وتحقيق الطباع بيروت ص١٨ . وانظر : موسى لقبال ، المرجع لسابق ص ٣٦.

(٩٨) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٢٧-٢٤٥. ابـن تيمية ، الحسبة في الاسلام ، ص ٢،٤،٦، ١٠ . الغزالي ، احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٥٢م ج٢، ص ٢٧٤.

(٩٩) انظـر كتب الحسبة التـي وردت في هـذا البحث ، وانظر ، الماوردي ، الاحكام ص ٢٢٧-٢٣٠. بن بسام المحتسب ، نهاية الرتبة ص ١٧ومابعد . ابـن خلدون ، المقدمـة ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ . و ٢٠١ طبعة دار الشعب . الشيزري ، نهاية الرتبة ص٣. وابن الاخوة ، معالم ص٧ . نقولا زيادة، الحسبة ص ٣٢-٣٤-٣٨. حسام السامرائي، المؤسسات الادارية ص ٣١٦.

(١٠٠) ابـن خلدون ، المقدمـة ص ٢٠١ ، ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(١٠١) المصدر السابق والصفحات .

(١٠٢) يحيى بن عمر ، احكام السوق ، ص ١٠٣-١٠٤ . الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص ١١ ـ ١٢ . ابن بسام ، نهاية الرتبة ص ٢٧-١٠٥ . نقولازيادة ، الحسبة ، ص ٣٨-٣٩.

(١٠٣) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص ١٦٢-١٦٧. يحيى بن عمر ، احكام السوق ، ص ١٠٣ . ابـن بسام ، نهاية الرتبة ، ص٥،٢٢،٧٥. ابن الاخوة ، معالم ص٨٣-٨٤. ابن سعد ، الطبقـات، ج٣ ، ص ٣٠ . ابن الجوزي ، المنتظم، ج٥ص ١٢٩-١٣٠ . الدوري ، المرجع السابق ص١٤١.

(١٠٤) الشيزري ، نهاية ص ١٢ . الناظر الاطروشي ، الاحتساب ، ص١٤ . ابن الاخوة ، معالم، ص ٦٤. حسام السامرائي ، المرجع السابق ص٢١٧-٢١٨.

(١٠٥) الشيزري ، نهاية ص ١٢ . ابن الاخوة ، معالم ، ص٦٥-٦٦ ابن ماجة، كتاب التجارات حديث رقم ٦ ـ الغزالي ، احياء علوم الدين ج٢، ص ٦٦-٦٧ . حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية ص٢١٧-٢١٨.

(١٠٦) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٧ ٢وما بعدها. ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠١-٢١٤ . ابن قيـم الجوزية ، الطرق الحكيمة ص ٢٤٠ . حسـن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطميـة ص ٢٢٢. نقولا زيادة ، الحسبة ، ص٣٩. موسى لقبال ، ص٢٣-٢٤.

(١٠٧) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص٨. ادم متز، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ص٢٧٥ . موسى لقبال ص ٧٠-٧٢ . نقولا زيادة ، الحسبة ص ٣٨ومابعدها .

(١٠٨) ابن تيمية ، الحسبة ص٩.

(١٠٩) الشيزري ، نهاية الرتبة ص ١٤، ٢٩، ٣٧، ٤٢ وما بعدها . ابن الاخوة ، معالم ، ص ٧٩، ٩٩.

(١١٠) ابن الاخوة ، معالم ، ص٣٠ .

(١١١) ابن الاخوة ، معالم ، ص٣٠، ٣١ . القفطي، اخبار الحكماء ص ٩٨ ٢ .القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ص ٢٥٩. ياقوت ، معجم ج٢ص ٦ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص٢٤.

(١١٢) الناظر الاطروشي ، الاحتساب ، ص١٧، ٢٩، ٣٠ . السامرائي ، المرجع السابق ص ٣٢٤.

(١١٣) ابن بسام ، نهاية الرتبة ص١٦١ – ١٦٢ . السامرائي ، المرجع السابق ص ٣٢٤ .

(١١٤) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٤١ . ابن الاخوة،معالم، ص ٢١.السامرائي ، المرجع السابق ص٣٢٥.

(١١٥) الشيزري ، نهاية ص١٥ ١. ابن بسام، المصدر السابق ص ٢١٥–٢١٦ السامرائي ، المرجع السابق ص ٢٢٥–٢٢٦

(١١٦) ابن بسام ، نهاية ص ١٢–١٣ . الشيزري،نهاية ص٨. النسائي ، كتاب الزينة ، حديث ،رقم ٤ . الترمزي ، باب اللباب، حديث رقم١.

(١١٧) ابن كثير ، البداية ج١ اص ٨٩. ابن الاخوة،معالم ، ص ١٩، ٢٠ . السامرائي ، المرجع السابق ص ٢٥ ٣.

(١١٨) الشيزري ، نهاية ص ٧–٨ . ابو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ، ج١ ص ٢٤. المقريزي ، السلوك ، ج١ ،ص٤٩ ٤. نقولا زيادة ، المرجع السابق ص ٢٢ . موسى لقبال ، ص ٢٤–٢٥.

(١١٩) الشيزري ، نهاية ص١١٥ .ابن بسام ،المصدر السابق ص ٢١٣–٢١٥.

(١٢٠) المصادر السابقة والصفحات .

(١٢١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج١ ،ص٧٨، ٧٩ . السامرائي المرجع السابق ، ص٣١٧.

(١٢٢) ابن بسام ، نهاية الرتبة ص١٥.

(١٢٣) محمد المبارك ، المرجع السابق ص ٧٥–٧٦.

(١٢٤) الماوردي ، الاحكام ص ٢٤٠ – ٢٤١ . «وقدميز بدقة بين المتطوع والمكلف واثبت تسع اوجه بينهما » . وانظر، الغزالي ، احياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٠٨ حيث اشترط ثلاثة شروط في المحتسب ، التكليف ، والاسلام ، والقدرة. وانظر الاطروشي ، الاحتساب ص١١ . حيث عكس الناصر الاطروشي الزيدي اراء الزيدية في ان ياخذ المحتسب شعار اهل البيت ولا يولى منصب المحتسب الا عالم مجرب . وانظر ،الشيزري، نهاية الرتبة ص٦ . ابن بسام ، المصدر السابق ص١٠ . نقولا زيادة ، المرجع السابق ص٤١، ٤٢ . موسى لقبال، المرجع السابق ص٢٤، ٢٥.

(١٢٥) ابن الاخوة ، معالم ص ٧. الشيزري ،نهاية ص٦ . ابن بسام ، نهاية ص١٠ . موسى لقبال، المرجع السابق ص ٢٤، ٢٥ . نقولا زيادة ،المرجع السابق ص ٤١، ٤٢.

(١٢٦) الاطروشي ، المصدر السابق ص ١٢.

(١٢٧) الشيزري ، نهاية ص٦، ٨ . ابن الاخوة، معالم ص٨، ٩ .نقولا زيادة ، المرجع السابق ص ٤١–٤٢ .

(١٢٨) الشيزري ، نهاية ص ٦. ابن الاخوة ،المصدر السابق ص٩، ١١ .

(١٢٩) الشيزري ، نهاية ص ٦، ٧ . ابن بسام نهاية ص ١٠، ١١ .

(١٣٠) المصادر السابقة والصفحات .

(١٣١) الشيزري ، نهاية ص ١٠. ابن بسام ، المصدر السابق ص١٦ . وانظر ، ابو داوود ،كتاب الاقضية ، حديث رقم ٤. والترمزي ،كتاب،الاحكام ، حديث رقم ٩. وابن ماجة ، الاحكام، حديث ، رقم ٢. ابن الاخوة ، معالم ص١٥.ابن عبدون رسالته ص ٢٠ . سيدة الكاشف،ص٢٤١

(١٣٢) ابن الاخوة ، معالم ص ١٨٤٨ . ابو سالم،محمد بن طلحة الوزير ، ت٦٥٢ هـ ، العقدالفريد للملك السعيد ، ص ١٧٩.

(١٣٣) الشيزري ، المصدر السابق ص ٧ . ابن بسام ، نهاية الرتبة ص ١٣،١٢ . ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٣. الاطروشي ، الاحتساب،ص١١ .

(١٣٤) الشيزري ، نهاية ص٩ . ابن بسام ،المصدر السابق ص ١٠،١١،١٢. ابن الاخوة، معالم ص٤٤.

(١٣٥) ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٣ . الشيزري،نهاية ص٨ . الاطروشي، الاحتساب ، ص١٥.

(١٣٦) الشيزري ، نهاية ص ٨ ابن بسام ، نهاية ص ١٣،١٢.

(١٣٧) نقولا زيادة ، الحسبة ، ص٥٥. وانظر ، حبيب الزيات ، الخزانة الشرقية ، بيروت ١٩٣٧. ج٢ ، ص ١٢٧،١٢٨.

(١٣٨) الشيزري ، نهاية ص١٥ ١ .دائرة المعارف الاسلامية ج٣ ص٧٥١.

(١٣٩) القلقشندي ، الاعشى ، ج٣ ص ٤٨٧ .عبدالمنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ص ١٧١، ١٧٢.

(١٤٠) المصادر والمراجع السابقة .

(١٤١) الشيزري ، نهاية ص ١٠، ابن الاخوة ، معالم ص ٢٠ ٢. ابن بسام ، نهاية الرتبة ص ١٥. القلقشندي ، الاعشى ، ج١٢ ص ٤٧١.

(١٤٢) الشيزري ، المصدر السابق ص ١٢. وكيع،اخبار القضاة ج١ ص ٢٤٧ . حسام السامرائي ، المرجع السابق ص٣٢٩–٣٣٠ .

(١٤٣) الشيزري ، المصدر السابق ص١٠ . ابن بسام ، المصدر السابق ص ١٥.

(١٤٤) الشيزري ، المصدر السابق ص ٣٨. ابن الاخوة ، معالم ، ص ٩٤. المقريزي ، السلوك ،ج٢ ص ٤١٤ ، ص ٤١٥. نقولا زيادة ، الحسبة،ص٣٧ .

(١٤٥) ابن الاخوة معالم ، ص ٢٢٠ . القلقشندي،الاعشى ، ج١٢، ص ٤٧١ .

(١٤٦) الشيزري ، نهاية الرتبة ص ١٠٩،٧ .وابن الاخوة ، معالم ص ١٩٥،٣٠ . الماوردي ، الاحكام، ص ٢٢٧، ٢٣١ . ابن تيمية ، الحسبة ص٢٨، حسام السامرائي ، المرجع السابق ص٣٣١.

(١٤٧) ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .نقولا زيادة ، المرجع السابق ص ٣٧ ، ٣٨ .

(١٤٨) انظر ، عبد الرحمن بن نصر الشيزري ،نهاية الرتبة من طلب الحسبة نشر الوني ، القاهرة ، ١٩٤٦ .نقولا زيادة ، الحسبة والمحتسب في الاسلام ، ص٥٠ وما بعدها . اماكتاب احكام السوق ليحيى بن عمر فيعود الى اواخر العصر الاغلبي اي قرب نهاية القرن الثالث الهجري وهو كتاب نظري يعد افضل ما كتب في الحسبة، انظر،احكام السوق ليحيى بن عمر ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٧٥ .

لمن يرغب في المعرفة والاطلاع على معظم ماكتب عن الحسبة عليه العودة الى مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٨، ١٩٤٣–١٣٦٢هـ،ص ٤١٧ ، بحث عن الحسبة في خزانة الكتب العربية لكوركيس عواد ، وانظر ، مجلة المقتبس ،دمشق ١٩٠٨ – مجلد ٣، ج٩ . ومحمد المبارك ، الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية ، ص٧٨ وما بعدها . موسى لقبال الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ص ٢٥ ، ٦١ وما بعدها نقولازيادة ، الحسبة والمحتسب في الاسلام ص ٤٥،٥٠. ليفي بروفنسال ،الاسلام في المغرب والاندلس، ترجمة لطفي عبد البديع، القاهرة ١٩٥٦.

مؤسسة الطلبة في دولة الموحدين

فارس بوز
مرشح للدكتوراه

من ابرز السمات في التاريخ السياسي للمغرب ان معظم الدول التي نشأت به ، قامت على اساس اصلاح ديني ، زرع علماء الدين بذوره ، ثم جعلوا طلب الحكم ديدنا لهم لتحقيق خطة الدعوة التي اضطلعوا بها .

والدولة الموحدية التي عاشت فيما بين عامي ٥١٥هـ/١١٢١م(١) ٦٦٨هـ/١٢٦٩م ابرز مثال على ذلك .

والذي بذر بذرة هذه الدولة هو محمد بن تومرت عالم الدين الطموح، الذي تسمى بالمهدي واتخذ من عقيدة التوحيد اساسا لحركته الثورية ، فاصطبغت نتيجة لذلك الدولة الناشئة بالصبغة الدينية في مختلف المجالات ، وظهر عدد من المؤسسات الاجتماعية ـ السياسية التي تلبي المطالب الاساسية للدولة ، ومنها :

مجلس العشرة : وهو التنظيم الاجتماعي ـ السياسي الاول، ويشتمل على عشرة أشخاص عينهم المهدي بن تومرت من صحبه الاوائل .

مجلس الخمسين : ويشتمل على خمسين شخصا يمثلون القبائل المختلفة .

مجلس السبعين : وهو اوسع التنظيمات الاجتماعية السياسية شمولا .

كذلك اقام المهدي بن تومرت عددا آخر من المؤسسات التعليمية كان من أبرزها وأهمها شأنا مؤسسة الطلبة التي نحن بصدد الحديث عنها .

والمؤسسة هذه عبارة عن جهاز تربوي يحفظ المبادىء والاسس التي قام عليها صرح الدولة ويعمقها ويعمل على تهيئة الجو لتقبل الدعوة والدفاع عنها ونشرها داخل حدود الدولة وخارجها .

ويجب أن لا نفهم من اصطلاح (الطلبة) ما تعنيه هذه الكلمة في أيامنا المعاصرة(٢) من انهم صغار السن وفي مطلع حياتهم الدراسية ، لان جميع النصوص الموحدية اكدت انهم كانوا طبقة من الطبقات العليا في الدولة الموحدية ، وورد ترتيبهم في المكان الرابع بعد مجلس العشرة ومجلس الخمسين ومجلس السبعين ، وهم عند بعض المؤرخين الذين شكوا بوجود ما يسمى بمجلس السبعين في المرتبة الثالثة في ترتيب الطبقات(٣).

كان هؤلاء الطلبة ، بموقعهم في قمة مراتب الدولة بعد اصحاب ابن تومرت وخاصة الذين بايعوه منذ الايام الاولى لمسيرته الطويلة ، عمدة الدعوة الموحدية ، والمبشرين بمبادئها ، وكان ابن تومرت يهتم بتعليمهم ويلقنهم بنفسه عقيدة التوحيد ، وما ينبغي عليهم ان يتبعوه في اعمال الدعاية ،وربما كان يقوم بتدريبهم على استخدام اساليب المنطق والجدل والحجاج التي اطلع عليها في المشرق وبرع فيها حتى فاق فيها اهل زمانه على حد زعم البعض ، وبعد أن يتموا دراستهم وتدريبهم كان ابن تومرت يرسلهم في كثير من الاحيان الى قبائلهم لكي يوطدوا أسس الدعوة وينشروا تعاليمها في كل مكان يحلون فيه(٤) . وقد روى المؤرخون اسماء بعض هؤلاء الطلبة الذين اسدوا الى الدولة في عهد ابن تومرت خدمات جلى ، ومنهم ابو محمد عطية المنجصي الذي أوفده ابن تومرت لنشر الدعوة في غجدامة ، ولكن أهلها لم يتقبلوا فكر ابن تومرت وقتلوا مبعوثه ، فاعتبره ابن تومرت من الشهداء وصمم على الاخذ بثأره ، فأصدر أوامره باستباحة دماء هذه القبيلة واموالها(٥) .

انقلبت حركة الموحدين في عهد عبد المؤمن بن علي الى سلطة سياسية جمع زعيمها السلطات كلها بين يديه فأصبحت سلطته شبه مطلقة قريبة من سلطة الملوك(٦) ، وخضعت سلطات المجالس التي اقيمت في عهد سلفه والتي كانت قبلا اقرب ما تكون الى الشكل الديمقراطي ، وتحولت الى مجالس استشارية . وعلى الرغم من ذلك ظل عبد المؤمن وفيا لمبادىء استاذه المهدي بن تومرت ، فلم تفقد الدولة نتيجة لذلك صبغتها الدينية ، واستمرت على النهج الذي خطه المهدي لها . كما تابع سياسته التعليمية وبذل جهدا مشكورا لتقدم مؤسسة الطلبة ، فأمر باقامة أبنية خاصة بها أطلق عليها اسم (السقائف) ، وربما اقيمت هذه المنشآت العمرانية بعد استقرار عبد المؤمن في مراكش ، ومن المحتمل كذلك ان تلك السقائف جددت في عهد خليفتيه يوسف والمنصور ، وربما أضيف اليها عدد آخر من السقائف(٧) . ذكر ابن القطان(٨) أن السقائف المخصصة للطلبة والحفاظ اقيمت الى جانب سقائف اهل الخمسين وأهل الجماعة واهل الدار ، ومن المرجح أنها احتوت قاعات عديدة واسعة لتدريس الطلبة الذين جلبوا من مختلف أرجاء الدولة وتجاوز عددهم ثلاثة آلاف(٩) كما احتوت قاعات مخصصة للمكتبة وللمطالعة ، واماكن للنوم . ومن غير المستبعد كذلك أن يلحق بها ديوان خاص يرتبط بالبلاط ، اضافة الى الامكنة المخصصة لرئيس الطلبة والمدرسين وللعلماء المحاضرين فيها وغيرهم .

ان اقامة هذه المؤسسة قريبا من البلاط ومن سقائف اهل الجماعة واهل الخمسين(١٠) وغيرهم يدل على الاهتمام الكبير الذي أولاه لها الخلفاء ، ويروى أن عبد المؤمن بن علي كان يشرف بنفسه على شؤون مؤسسة الطلبة ، وكان يدخل الطلبة الدارسين الى قصره لتدريبهم وارشادهم ، ويحرص على أن تكون مواد الدراسة منوعة تجمع بين التدريس العلمي النظري والعملي(١١) ، ولنا أن نفترض ان أبناء الطبقات العليا في المجتمع الموحدي كان لهم أفضلية الانتساب الى هذه المؤسسة .

اهداف مؤسسة الطلبة :

كان هدف عبد المؤمن من الاهتمام بهذه المؤسسة الدينية السياسية التي بدأ بانشائها ابن تومرت تأسيس حزب مثقف ناضج يدين أعضاؤه بالولاء والطاعة لشخصه، نظرا لارتباطهم به اقتصاديا واجتماعيا ، ولتخريج موظفين يستعين بهم ويأتمرون بأمره شخصيا ويعترفون بفضله فيندبهم للقيام بمهام ادارية وعسكرية وثقافية ، ولعله في ذلك قد اتبع سياسة ابن تومرت في جلب الاتباع وربطهم بشخصه ، فيعينهم في مناصب حكومية رفيعة بدلا من أشياخ المصامدة أصحاب النفوذ القوي الذين قد يحدون من سلطته الواسعة وينازعونه الحكم .. قال صاحب الحلل : « لما كمل المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الاعمال والرياسة وقال: العلماء أولى منكم فسلموا لهم الامر وأبقاهم للمشورة(١٢) .

أما الخدمات التي قدمتها المؤسسة للدولة فقد كانت كثيرة جدا ، فالى جانب اعدادها الموظفين المتعلمين الاكفاء ، قامت بدور كبير في نشر الفكر الديني السياسي(١٣) الذي رسمه عبد المؤمن في ارجاء الدولة الواسعة .

ذكر المؤرخون ان عبد المؤمن عندما توجه لفتح افريقية جاءه والي صفاقص عمر ابن الحسين مع جماعة من أشياخ المدينة فقدموا له الطاعة ، فعين لهم حافظا من الموحدين ، وترك الشؤون المخزنية لعمر(١٤) وذكر ابن صاحب الصلاة : انه بعد فتح المهدية ارسل عبد المؤمن كتبه بالفتح ، وأمر ان يكتبه الناس وان يحفظه الطلبة(١٥).. لكي يتلوه من فوق المنابر ويعلموه للناس وينفذوا ما جاء فيه . فيساهموا بذلك في تحقيق الاهداف التي رسمها ، ويتبين ذلك بوضوح من الرسائل الموحدية(١٦) .

وساهمت المؤسسة في الاعمال العمرانية التي اقيمت في المغرب والاندلس، فعندما قرر الخليفة عبد المؤمن انشاء مدينة كبرى في جبل طارق لتكون منزلا له عند اجازته بالعساكر الى الاندلس ، ارسل كتابا الى والده ابي سعيد عثمان والي غرناطة ، بأن يسير بنفسه من المدينة مع صحبه وبعض عسكره الى جبل طارق ، وان يجتمع فيه بالطلبة الوافدين من اشبيلية وغيرها ، وان يدرس الجميع خطط المدينة الجديدة(١٧).

كذلك قدمت مؤسسة الطلبة خدمات جليلة للدولة في المجال العسكري بما وفرته للطلبة الدارسين من علوم عسكرية في مناهجها وتدريبات ميدانية برية وبحرية(١٨) ،وفي غالب الاحيان كانت تسند اليهم مهمات قتالية بعد تخرجهم ، كما حصل عندما استناب السيد ابو يعقوب بأشبيلية من طلبة الموحدين من ينوب عنه لمحاربة أهل قرمونة أصحاب ابن همشك الثائر عليهم(١٩) .

كذلك كلف الطلبة بمهمات قتاليةخاصة ،كالتي قام بها طلبة سبتة حين شنوا هجوما بحريا على مدينة المرية بقيادة احدهم (ابو محمد عبد الله بن سليمان) وتمكنوا من الحاق الهزيمة بالاسبان (النصارى) واسروا بعض السفن الحربية واضرموا النار في منشآت الميناء وعددا من السفن الاخرى، وغنموا عددا من الآلات الحربية التي يستخدمها الاسطول الاسباني(٢٠) .

ومن الطلبة الذين اسند اليهم قيادة الاعمال العسكرية الحافظ ابو علي بن تمصيلت الذي كان من كبار قادة الموحدين وظل متنقلا بين الاندلس والمغرب في خدمة الدولة ، ثم عينه الخليفة واليا على مدينة باجه عام ٥٧٠هـ/١١٧٣ بعد أن رممت المدينة،وقد أسر فيما بعد بصحبة ابن وزير(٢١)واستشهد وهو يرسف في قيوده واغلاله عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م(٢٢) .

وقام الطلبة أحيانا بدور المستشارين العسكريين للخليفة ، يساهمون في وضع الخطط القتالية ويبدون الآراء ويقدمون المعلومات التي يجمعونها عن الاعداء واستعداداتهم ، وربما كانوا يتولون في بعض الاحيان قيادة طلائع الجيش فيمناطقهم . ذكر ابن صاحب الصلاة انه في شهر ذي القعدة عام ٥٥٥هـ/نوفمبر١١٦٠م . عبر الخليفة من مدينة سبتة الى الاندلس ونزل في جبل طارق ليجتمع بالطلبة الموحدين الذين فيها وينظر كيف يكون غزو الروم والمحاربين في نواحيها(٢٢) .

وهكذا قدمت المؤسسة خدمات بالغة الاهمية للدولة وحققت جميع المهمات التي نيطت بها .

مكانة الطلبة :

نال الطلبة في عهد عبد المؤمن مكاسب كثيرة غبطهم عليها اشياخ الموحدين اصحاب النفوذ الذين قامت الدولة على اكتافهم ، وبخاصة بعد أن عزم على التخلص من الاشياخ بطريقة شرعية مبرورة ، وحرص على اعلاء مكانتهم الاجتماعية بتعيينهم في مراكز مرموقة في الدولة ، وعن طريق استشارتهم في جليل الاعمال وتوجيه الرسائل اليهم حيثما وجدوا . ذكر ابن صاحب الصلاة انه عندما وصلت أنباء الانتصار الذي حققه الجيش الموحدي على ابن مردنيش الى مراكش امر الخليفة بادخال الطلبة الى القصر لسماع الكتاب الواصل بالبشرى والفتح ، وقد قراه الفقيه ابو محمد المالقي شيخ الطلبة على جميع من حضر، ثم قرىء فيما بعد في جميع مساجد المغرب والاندلس(٢٤) .

وكانت الرسائل توجه عادة اليهم مباشرة دون الولاة والشيوخ او قبلهم في كثير من الاحيان ، كما في الرسالة التي وجهها الخليفة عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م الى الطلبة

الموحدين في جزيرة الاندلس يحثهم فيها على التمسك بمبادىء التوحيد والعمل بتوجيهاته في السلم والحرب والاستعداد للجهاد ضد الاعداء(٢٥) .

وقد ارتفعت مكانة الطلبة في عهد خلفاء عبد المؤمن وازداد نفوذهم ، ولعبوا ،مع الايام ، دورا كبيرا في سياسة الدولة الدينية والسياسية والثقافية، حتى ظن المؤرخون انهم كادوا يسببون للدولة هزيمة نكراء بسبب انشغال الخليفة يوسف اثناء القتال بالاجتماع بهم ومناقشتهم ، وتفصيل ذلك : انه في المعركة التي دارت بالقرب من مدينة وبذة كان القائد الاندلسي ابو العلاء بن عزون على رأس القوة الاندلسية، يحاول الثبات أمام القوات القشتاليةفيالجهة الغربية منالمدينة، وعندما عجز عنذلك قدم على الخليفة طالبا منه المدد والعون، فأعرض الخليفة يوسف عنه ولم ينهض من مجلسه يقود حرسه الخاص ليحسم المعركة ، لانشغاله في قبته بالمناقشة مع الطلبة – مع ان الهدف من عبوره الى الاندلس كان من اجل الاشتراك في هذه المعركة ، وقد أعد لها العدة وحشد الجنود والمؤمن في المغرب والاندلس – وبقي في المجلس الذي ضم كما ذكر ابن صاحب الصلاة(٢٦) ، الى جانب الطلبة العديد من الشخصيات « فعلاوة على اخيه ابي حفص يوجد ابن الجد وعبد الله المالقي وجده لامه عيسى بن عمران والقاضي ابن الصقار والفيلسوف الكبير ابن رشد»(٢٧) .

وهذه الرواية لا تقدم الدليل على ان تلك المؤسسة كادت أن تؤدي الى هزيمة الدولة في تلك المعركة ، ولكنها تثبت فقط حب يوسف للعلم من جهة وتفضيله للمجالس العلمية على الامور العسكرية ، والشيء الوحيد الذي يمكن أن تثبته الرواية هو عدم تقدير الخليفة يوسف للاوضاع العسكرية في جبهة القتال حق قدرها ، أو لثقتهالمطلقة بالقائد الاندلسي ابن عزون الذي اشتهر في المعارك التي قادها ضد الاسبان في شبه الجزيرة وعرف بصدق عزيمته وثباته في القتال ، وهذا لا ينفي مسؤولية الخليفة عما وقع .

وقد بلغ نفوذ الطلبة شأوا عظيما في عهد المنصور ونالوا على يديه ما لم ينالوهأيام ابيه وجده ، حتى تبرم الناس بهم ونقموا عليهم حظوتهم ونفوذهم لدى الخليفة .ولما بلغ المنصور موقف الموحدين منهم قال « يا معشر الموحدين ، انتم قبائل ، فمن نابه منكم امر فزع الى قبيلة ، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سواي ، فمهما نابهم أمر ، فأنا ملجؤهم ، والي فزعهم ، والي ينتسبون »(٢٨). قال المراكشي : ومنذ ذلك اليوم عظم أمر الطلبة وبالغ الموحدون في التقرب اليهم واكرامهم اسوة بالمنصور الذي كان (يجزل صلتهم ويجري المرتبات على الفقهاء والطلبة وفقا لمرتباتهم وطبقاتهم ..) بل ان تلك المرتبات فاقت ما كان يقدمه الخليفة للاطباء والمهندسين والكتاب عن خدماتهم الجليلة للدولة في الميادين المختلفة(٢٩) . فشعر الطلبة أنهم اصحبوا طبقة لها مكانتها وتأثيرها على الخليفة والخلافة ، وأن لهم مصالح ومكتسبات يجب المحافظة عليها

فحرصوا ان يقفوا صفا واحدا متضامنا للحفاظ على امتيازاتهم ونفوذهم في الدولة ، وجابهوا بحزم كل من لم يكن على رأيهم من المفكرين ، بل انهم لجؤوا احيانا الى اثارة العامة على الفلاسفة ونظروا اليهم كزنادقة وملحدين ، ولم يحجموا عن أن يطلبوا من الخليفة نفسه ان يمعن في التضييق على رجال الفكر وعلى راسهم ابن رشد الذي لمع نجمه في العالم الاسلامي والاوربي وأصبح مقربا من الخليفة ومستشاره في كثير من الامور الهامة ، فارادوا تصفيته لانهم اعتبروا وجوده في البلاط من اكبر الاخطار التي تواجههم .

بقي ان نذكر ان المقدم على طلبة الحضر في عاصمة الدولة مراكش ، كان يختاره الخليفة من كبار العلماء في العدوتين المغربية والاندلسية ، وقد تولى هذا المنصب علماء أجلاء أمثال عبد الله بن محمد بن عيسى الانصاري المالقي الذي تمتع بمكانة مرموقة في البلاط الموحدي وأسند اليه الخليفة عبد المؤمن منصب شيخ طلبة الحضر(٢٠) ، وابو الحسن الاشبيلي الذي قلد هذا المنصب بعد أبيه ، وكان قد درس في اشبيلية وغيرها من المدن في الاندلس ثم عبر العدوة الى المغرب واستقر في مراكش ، فندبه الخليفة يوسف لرئاسة طلبة الحضر ونال في ظل رعايته الجاه والثروة وكان أمينه ووزيره حتى وفاته عام ٥٧٤هـ / ١١٧٨م(٢١) وابن القطان ابو الحسن علي بن عبد الملك بن يحيى الكتامي(٢٢) ، والد ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان ، من اهالي مدينة فاس وأصله من الاندلس من مدينة قرطبة ، وكان من أبرز الشخصيات العلمية والسياسية التي تولت رئاسة الطلبة في الحضرة مراكش وأحد اكبر دعاة الموحدين ، ومن أشهر رجال الدولة الذين اسند اليهم الخلفاء أكبر وأرفع المناصب الدعائية في الدولة .

وقد تعرض ابن القطان للاحقة واضطهاد المأمون الذي نسف الاسس التي قامت عليها دعوة ابن تومرت من جذورها واعلن بدء ثورته الدينية ـ السياسية ، التي هدفت الى تجديد الدولة بحقنها بدماء فتية شابة بعد أن هرمت ودب الفساد في اوصالها، لذلك غادر ابن القطان مراكش خوفا من بطش المأمون الذي لا حق جميع رجالات العهد البائد الذين جعلوا من انفسهم ابواق دعاية ونشر لمبادىء التوحيد متخذين من حماستهم للدعوة سلما الى الجاه والسلطان ، وقد عرف اصحاب التراجم عنه هذه الوصولية، وعبروا عنها بقولهم : (ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة .).

وقد التجأ ابن القطان بعد مغادرته مراكش الى سجلماسة وعمل في خدمة يحيى ابن الناصر الذي نازع المامون الحكم وتوفي وهو يتولى قضاء المدينة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. وتجدر الاشارة كذلك الى ان ابن القطان كان ، الى جانب شهرته في ميدان السياسة ، من العلماء الثقات الذين لمع نجمهم في علوم مختلفة فقد « كان من ابصر الناس بصناعة الحديث ، واحفظهم لاسماء رجاله ، واشدهم عناية بالرواية . » . من مؤلفاته كتاب شرح الاحكام لعبد الحق ومقالة في الاوزان وبرنامج شيوخه وغير ذلك من المؤلفات .

ومن الاعمال التي كان يقوم بها شيخ طلبة الحضر ، الى جانب الاشراف على المؤسسة من كل النواحي ، تقديم الطلبة النابهين الذين يقدمون خدمات جليلة للدولة الى مجلس الخليفة ، ليقوم بالانعام عليهم باصدار مراسيم خاصة تقديرا لجهودهم وولائهم . من هؤلاء ابن صاحب الصلاة الذي أرخ للدولة الموحدية في كتابه « المن بالامامة » ، وابي العباس المجريطي القرطبي ، وأبي الاصبغ عبد العزيز بن عبد العزيز الاشبيلي(٢٣) .

شروط الانتساب للمؤسسة :

١ ـ تقارب السن : وهو احد الشروط الاساسية لانجاح العملية التربوية .وقد طبق الموحدون هذا المبدأ التربوي الذي يقضي باختيار الطلبة المتقاربين في الاعمار لوضعهم في شعب خاصة وضمن مستويات متعددة في جميع المعاهد التي قاموا بانشائها . وهذا ما أكده ابن القطان في معرض حديثه عن اهتمام عبد المؤمن بالطلبة « كانهم أبناء ليلة من المصامدة »(٢٤) . وهذا المبدأ يأتي اليوم على رأس قائمة الاسس التربوية التي تعتمدها الدول الحديثة في ميدان التربية والتعليم .

٢ ـ الاهلية العلمية والاجتماعية : ويقصد بها التأكد من قدرات الطلبة العلمية والجسدية ، بامتحانهم من قبل العلماء والولاة في الاقاليم المختلفة قبل ارسالهم الى العاصمة لمتابعة دراساتهم العليا . وهذه الشروط كان يلح عليها دائما الخليفة عبد المؤمن في الرسائل التي كان يوجهها الى عماله في المغرب والاندلس وذلك بأن يختاروا « طلبة امناء وان يكونوا من الذين يراقبون ويحافظون ولا يراعون في حقوق الله ولا يداهنون »(٢٥) .

اساليب التدريس : ومنها :

١ ـ التدرج بتعليم الطلبة من المستوى الادنى الى الاعلى(٢٦) ، وهذا ما يمكن ان نستنتجه من النص الذي أورده ابن ابي أصيبعة عن أساليب التدريس في الجوامع والمعاهد العلمية في عهد الموحدين ، « كان الحفيد ابو بكر بن زهر قد اتى اليه من الطلبة اثنان ليشتغلا عليه بصناعة الطب، فترددا اليه ولازماه مدة ، وقرءا عليه شيئا من كتب الطب ، ثم انهما اتياه يوما وبيد احدهما كتاب صغير في المنطق . .وكان غرضهما ان يشتغلا فيه ، فلما نظر ابن زهر الى ذلك الكتاب قال : ما هذا ؟ ثم اخذه ينظر فيه . فلما وجده في علم المنطق رمى به ناحية ، ثم نهض اليهما حافيا ليضربهما ، فبقيا منقطعين عنه أياما لا يجسرون ان يأتوا اليه . ثم انهم توسلوا الى أن حضروا عنده واعتذروا . . وقبل معذرتهم واستمروا في قراءتهم عليه صناعة الطب .ولما كان بعد مدة مديدة أمرهم أن يجيدوا حفظ القرآن ،وان يشتغلوا بقراءة التفسير والحديث والفقه ، وان يواظبوا على مراعاة الامور الشرعية والاقتداء بها ولا يخلوا بشيء من ذلك . فلما امتثلوا امره

واتقنوا معرفة ما أشار اليه عليهم ، وصارت لهم مراعاة الامور الشرعية سجية وعادة قد ألفوها ، كانوا يوما عنده واذا به قد أخرج لهم الكتاب الذي كان رآه معهم في المنطق وقال لهم : الآن صلحتم لان تقرؤوا هذا الكتاب وأمثاله عليّ وأشغلهم فيه »(٢٧) .

وهذه الرواية على غاية من الاهمية وان صح العمل بها في جميع المعاهد العليا فان الموحدين يكونون بذلك قد سبقوا في الاخذ بهذا المبدأ بالتدريج بالتعليم من المستوى الادنى الى المستوى الاعلى ، لانه لا يجوز تقديم المعلومات التي يتطلب فهمها جهدا فكريا كبيرا ، وبخاصة الفلسفية منها ، الا بعد تهيئة أذهان الطلبة واعدادهم اعدادا مناسبا.

٢ ـ حرية اختيار الاستاذ الذي يقرؤون عليه : وهو الاسلوب المتبع في الجامعات الحديثة المخصصة للدراسات العليا في عصرنا الحاضر ، الا أن هذا الامر قد طبق في العصر الموحدي في المعاهد المختلفة الرسمية منها والشعبية ، وهذا ما نستنتجه من كتب التراجم العديدة التي أشارت الى حرية الطالب في أخذ العلم عن الاساتذة والشيوخ الذين هم في رأيه اقدر من غيرهم على الفائدة(٢٨). ذكر صاحب صلة الصلة أن طلبة مدينة سبتة كانوا يتلقون العلم على استاذها ابي علي الرندي حتى ورد الى المدينة الاستاذ أبو علي ابن عاشر ، « فمال اليه الطلبة ورغبوا به ، لانه على حد زعمهم أبسط عبارة من الرندي ،واسهل القاء »(٢٩) .

٣ ـ حرية المناقشة والتعبير عن الرأي : كان الطلبة يتمتعون بحرية المناقشة مع الاساتذة في الامور الدينية والعامة . كما كان لهم الحق بأن يطرحوا بعض المسائل العلمية وأن يطلبوا الاجابة عليها . وقد سمح لهم بالتبسط بالاسئلة لتشمل المواضيع العلمية كافة. وكان الاساتذة يناقشون الطلبة ويستمعون الى وجهات نظرهم المختلفة . الا ان بعض الاساتذة كان يتبرم بالطلبة وبأسئلتهم التي لا تنقطع .

٤ ـ ربط الرياضة بالتعليم :ولعلهم في هذا المبدأ استلهموا قول الرسول (ص) بأن لبدن الانسان عليه حقا ، أو ربما اقتبسوه عن المفكر الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) الذي لقي انتشارا واسعا في المغرب والاندلس في عصر الموحدين . ومن القضايا التربوية التي عالجها الغزالي في كتابه ضرورة تعويد الطلبة الدارسين على ممارسة التمارين الرياضية وذلك لاهميتها في مجال التعليم ، فقال ان الطالب « يجب ان يعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل .. وان يؤذن له بعد الانصراف ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب الكتب .. فان ارهاقه الى التعليم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه (٤٠) . وقد عمل الموحدون بروح هذا النص في مؤسستهم التربوية هذه وذلك بتخصيص اوقات لممارسة التمارين الرياضية والمهارات البدنية المختلفة كرياضة السباحة والرمي والتجديف وركوب الخيل وغيرها(٤١) .

٥ ـ مبدأ المكافأة والعقوبة : ادرك المربون الذين أشرفوا على هذه المؤسسة أهمية المكافأة كحافز يدفع الطلبة للاقبال على التعلم والتفوق في المواد الدرسية المختلفة، فكانوا يقدمون الهدايا والجوائز التشجيعية للمتفوقين من الطلبة(٤٢) اضافة الى التقدير المعنوي كالثناء عليهم امام الخليفة والامراء(٤٣) وهو امر لا يقل أهمية عن سابقه . كذلك ادركوا ان استخدام العقوبة في غير مكانها المناسب قد يؤدي الى الحاق الضرر البالغ بالطلبة واحباط هممهم ودفعهم الى اتباع سلوك خاطىء ، لذلك كانوا يأخذونهم بالاساليب التربوية كالتنبيه على انفراد او العتاب الرقيق قبل ان يتدرجوا معهم في العقوبة. ذكر ابن القطان(٤٤) هذه المبادرة التربوية عند حديثه عن الحفاظ الذين استقدمهم عبد المؤمن الى مراكش وأشرف على تربيتهم وفق الاسس التي أشرنا اليها بقوله : (فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء ، وتارة بالادب).

مناهج الدراسة :

كانت الدراسة في هذه المؤسسة تقوم على دراسة العلوم المختلفة ، واهمها :

١ ـ العلوم الدينية(٤٥) : وتشمل علم الاصول بما فيه الناسخ والمنسوخ وعلوم القراءات وعلوم الحديث ، وعلم الفقه اضافة الى ما يسمى بعلوم الامام المهدي. واشهر الكتب التي كان يدرسها المختصون في هذه العلوم :

في الحديث والسيرة : صحيح البخاري ومسلم ، ومسند البزار الكبير ، وسنن الترمذي ، وسنن النسائي ، وسنن أبي داوود ، والشهاب للقضاعي المسمى بشهاب الاخبار في الحكم والامثال والاداب من الاحاديث النبوية للقاضي ابي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ، وكتاب الموطأ للامام مالك ، وسيرة ابن اسحاق وغيرها(٤٦) .

وفي الفقه والتصوف : الاحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة(٤٧)، واحاديث الصلاة التي أمر يعقوب(٤٨) بجمعها، والاحكام الصغرى لعبد الحق، وتآليف عباد بن برجان في الفرائض والبرهان لامام الحرمين ، وكتاب ابن يونس ، وتهذيب البراذعي للمدونة ، ورجز ابن الكتاني وغيرها . ومن كتب التصوف كتاب «الاحياء» للغزالي وغيره(٤٩) .

ومن الكتب التي اعتبرت تابعة لعلوم المهدي بن تومرت : عقيدة التوحيد (المرشدة)(٥٠) التي الفها ابن تومرت باللغة العربية ، وكتاب أعز ما يطلب ، الذي ضم عددا كبيرا من مؤلفات ابن تومرت التي ألفها باللسانين العربي والغربي(٥١) .

٢ ـ **علوم اللغة العربية وآدابها :** وتشمل علوم النحو والصرف والعروض، وكل ما يمت لهذه العلوم بصلة . وقد اعتبرها الموحدون المفتاح الحقيقي لمعرفة اسرار كتاب الله ، ومنها : كتاب سيبويه ، ومقدمة الجزولي المسماة بالقانون ، ومقصورة ابن دريد بشرح ابن هشام السبتي، وغيرها ، كما أنه لا يستبعد تدريس مؤلفات ابن السيد

البطليوسي النحوي وابن الباذش وابن الطراوة وغيرهم من النحويين الذين نبغوا في العصر المرابطي وغيره . ومن كتب الادب : مقامات الحريري ، وكتاب الاغاني ، وديوان صفوة الاداب المعروف « بحماسة الجراوي » للشاعر المغربي الجراوي وغيرها من كتب الادب ودواوين شعراء العرب التي الفها المشارقة وغيرهم .

٣ ـ العلوم الرياضية : وتشمل الحساب والجبر والهندسة . ومن الكتب المخصصة لدراسة تلك العلوم : لب اللباب في مسائل الحساب لابن الحسن بن ابي فرحون القيسي ، ومنظومة ابن الياسمين في الجبر وغيرها(٥٢) . ولا يستبعد كذلك أن يتم تدريس بعض المؤلفات التي تعنى بعلم الهندسة والفلك لان كثيرا من النصوص الموحدية أوردت لنا الكثير عن معرفة الطلبة بأمور الهندسة المعمارية واختيار المواقع التي تنفذ عليها خطط المدن الجديدة وغير ذلك(٥٢) .

٤ ـ العلوم العسكرية : على الرغم من ان المصادر العائدة للعصر الموحدي والعصور التي تلته لم تشر الى المؤلفات العسكرية والجغرافية التي كان يتدراسها الطلبة ، الاانه من غير المعقول ان يتلقى الطلبة تدريبات عسكرية ميدانية دون اعطائهم معلومات نظرية كافية تتعلق بالعلوم العسكرية وفن القتال الذي اشتهر به الجيش الموحدي(٥٤)، خاصة وأن من بين المهمات التي ستلقى على عاتق هؤلاء الطلبة بعد تخرجهم مهمة قيادة الجيوش واختيار المواقع والطرق الحربية التي يسيرون عليها الجيوش وغير ذلك(٥٥). وهي بهذا اهتمت بتدريب الطلبة على كل المهارات الضرورية مثل: التدريب على ركوب الخيل ، التدريب على الرمي بالاسلحة المختلفة ، التدريب على السباحة في كافة الظروف ، والتجديف وقيادة القطائع البحرية والنهرية المختلفة .

وتجدر الاشارة الى أن جميع مواد الدراسة كانت بالعربية لانها لغة التعليم الرسمية في مؤسسة الطلبة وفي جميع المدارس والمساجد التي اقامها الموحدون في المغرب والاندلس .

وقد أورد ابن القطان في معرض حديثه عن اهتمام عبد المؤمن بالطلبة نصا يلقي الضوء على مناهج هذه المؤسسة : « وكان يدخلهم (عبد المؤمن) داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة الاف كانهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد ، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه، مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع، ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة ، فتادبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء ، وتارة بالادب »(٥٦).

وكان الخليفة عبد المؤمن يشرف على هذه المدرسة ويقوم احيانا بالتدريس والقاء التوجيهات المناسبة وشرح بعض المسائل المشكلة ، ويامر الطلبة ان يحفظوا القرآن وكتب

التوحيد ، وأن يطلعوا على الكتب المختلفة في شتى أنواع المعرفة(٥٧) . كما كانت الشعائر الدينية تقام في وقتها المحدد ، لا يمنع من اقامتها سفر أو غزوة ، واعتادوا في الايام الاولى ان يوزعوا القرآن الكريم أحزابا ليقرؤوا منه يوميا حصة معينة(٥٨) .

تطور مؤسسة الطلبة :

تطورت هذه المؤسسة مع الايام نتيجة لاهتمام الخلفاء بها من ناحية ، ولتعدد المهمات التي نيط تحقيقها بها ، نتيجة لتوسع الدولة وتطورها في جميع الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية من ناحية اخرى . ولم يعد الاهتمام مقتصرا على القضايا المتعلقة باقامة هؤلاء الطلبة وتأمين العيش الكريم لهم داخل المؤسسة ، بل أصبح يتناول احوالهم المعاشية خارج المؤسسة،اي تأمين فرص العمل لهم بعد تخرجهم بايجاد العمل المناسب لكل منهم وفق امكاناته وقدرته الشخصية . بل ان عبد المؤمن، الخليفة الاول ، ذهب الى أبعد من ذلك فدفع لكل منهم قرضا من مال المخزن يتجر به، فتاجروا واثروا . ولم يسترد منهم القروض(٥٩) .

ذكر ابن عذاري أن عبد المؤمن بعد ان استقر في مدينة مراكش « وفد اليه من كان يواليه من الطلبة الحضر واستقروا عنده ، فدخل عليه يوما محمد المالقي (شيخ طلبة الحضر) فرآه دون ثياب ترضيه فقال لاشياخ طلبة الموحدين : هؤلاء الطلبة عرايا ضعفاء ، فنرى أن تدفع لهم مالا تقارضهم به ويتجرون فيه ، فقالوا : نعم ، فأسلف من مال المخزن لكل واحد منهم ألف مثقال ، فاكتسوا منها وأصلحوا بها على انفسهم، ولم يأخذها منهم ابدا »(٦٠) .

واستمر الاهتمام بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للطلبة في عهد خلفاء عبد المؤمن فعمل ابو يعقوب يوسف وأبو سعيد أبناه على اكرام الطلبة وتحسين اوضاعهم المادية بتسجيل اسمائهم في لوائح الجند من أجل الحصول على الرواتب والمنح التي تقدم لافراد الجيش ، وخاصة أثناء فراغهم من الغزوات أو بعد فتحهم للمدن المحاصرة ، أو بعد استعادتهم المدن التي كانت بحوزة الاسبان في الاندلس . ذكر ابن صاحب الصلاة(٦١) أن ابني عبد المؤمن « قد أحسنا للطلبة من أهل قرطبة فأثبتا أسماءهم في زمام العسكرية للمواساة » . ومن المعلوم ان خلفاء الموحدين كانوا قد اسقطوا السلاح عن الطلبة أثناء اقامتهم في المؤسسة المذكورة كي يتموا دراستهم ويكملوا تدريباتهم العسكرية المختلفة في الوقت الذي يحصلون فيه على الاعطيات والهدايا العديدة التي كان الخلفاء يقدمونها لهم في المناسبات المختلفة . ذكر البيدق : « ان الطلبة ـ أعزهم الله ـ أسقط عنهم السلاح كذلك ، وانعم عليهم بالتحف من المخزن والاعشار وغيرها من العطايا والكسوات في كل عام حيث كانوا ، وكان ذلك رايه (أي الخليفة) وعادته معهم دون غيرهم .. وعرف ذلك في امراء الموحدين »(٦٢) .

وكان عبد المؤمن قد قسم الطلبة الى طائفتين : طلبة الموحدين وطلبة الحضر . والطائفة الاولى هي طلبة المصامدة ، وهي تسمية أطلقها المهدي على من اهتم بالعلم من المصامدة لخوضهم في علم الاصول الذي لم يكن احد من أهل هذه الانحاء يخوض فيه قبل عصر(٦٣) الموحدين . اما الطائفة الثانية فهم طلاب العلم من القبائل الاخرى والمناطق المختلفة ،وخاصة أهل علم النظر(٦٤) الذين يستقدمون من سائر البلاد لحضور مجلس الخليفة(٦٥) .

وبالرغم من أن المصادر لم تذكر ما يلقي الضوء على أسباب هذا التقسيم الذي أورده المراكشي ، الا انه في الواقع كان يكتسب اهمية سياسية ، لانه كان يوضح مكانة قبيلة مصمودة لدى خلفاء الموحدين وخاصة في فترة تأسيس الدولة في عهد عبد المؤمن ابن علي ، الا أن هذا التقسيم القائم على أساس العصبية لم يبق على ما يبدو ثابتا طوال العهود المختلفة للدولة ،وفقد بمرور الايام أهميته نتيجة للتقدم الحضاري الذي شهدته الفترات اللاحقة من جهة ولان قبيلة مصمودة التي كانت عماد القوة العسكرية للدولة (٦٦) فقدت دورها القيادي في الدولة الموحدية(٦٧) تدريجيا ، واحتلت مكانها قبائل اخرى ترتبط بالخليفة وما يقدمه لها من مال كقبيلة (كومية)(٦٨) التي يتنسب اليها عبد المؤمن وغيرها من جهة ثانية . فأصبح ذلك التقسيم نظريا فقط للتمييز بين طلاب المؤسسة من المصامدة وزملائهم من بقية الاقطار ، وهذا ما ظهر جليا في عهد المنصور الذي ازدهرت الثقافة في ظل حكمه ووصلت أوج عصرها الذهبي ، وكان على المنصور ، وهو الرجل القوي ذو الثقافة الواسعة ، ان يعيد النظر في بعض المفاهيم والاسس التي قامت عليها مؤسسات الدولة المختلفة ، ومنها بالطبع مؤسسة الطلبة ، فقام بالغاء الميزات التي ربما تمتع بها طلبة المصامدة قبل عهده واعتبر الجميع سواسية في الحقوق والواجبات (٦٩).

نتبين من هذا النص مدى ما طرا على تلك المؤسسة من تغيير ، وربما كان نتيجة لازدياد نفوذ طلبة الحضر في الدولة بعد أن زادت اعدادهم داخل المؤسسة ، وخاصة بعد ان ضمت أفرادا كابن رشد وابن طفيل وابن زهر وغيرهم من العظماء الذين لا ينتسبون الى مصمودة وتمتعوا بالحظوة والنفوذ لدى الخليفة(٧٠) .

وهكذا لعبت مؤسسة الطلبة دور الحزب المؤيد للدولة الى جانب دورها كوزارة للاعلام والثقافة في الدول الحديثة ، واتيح لمؤسسيها من الخلفاء ان ينشروا أفكارهم الدينية ومبادئهم السياسية بوساطتها وان يوجهوا الفكر الوجهة التي يريدونها في أرجاء امبراطوريتهم الواسعة ، وان يحصلوا على طبقة من الموظفين الاكفاء تاتمر بأمرهم وتنفذ رغباتهم في المجالات المختلفة . وقد وقف هؤلاء الطلبة في بعض الاحيان في وجه الخلفاء، وقدموا بعض المطالب الخاصة حفاظا على مكانتهم في الدولة .

واخيرا يجدر القول ان هذه المؤسسة لم تعمم التعليم لخصوصيتها ، واضيف اليها مؤسسات ثقافية اخرى جعلت العلم الزاميا للجميع ، وخاصة ما يتعلق منه بعقيدة الموحدين(٧١) .

(١) وهو تاريخ اعلان المهدية الذي اعتبره بعض المؤرخين اهم عمل سياسي قام به ابن تومرت وهدف الى تحطيم دولة المرابطين واقامة صرح الدولة الجديدة .

وفكرة المهدية هذه لم تكن غريبة على أهل المغرب ، نشرها دعاة الشيعة الذين وصلوا الى اطراف المغرب حيث روجوا بعض الاحاديث المنسوبة الى الرسول تتنبأ بظهور المهدي المنتظر من آل البيت في أرض المغرب ، وقد استغل ابن تومرت هذه الاحاديث لربط المهدية بشخصه وتم له ما اراد في العام المذكور ، حيث بايعه اصحابه على ما بايع عليه اصحاب رسول الله (ص).

(٢) المعجب ، ص ٢٠١ .

(٣) انظر : نظم الجمان : ص ٢٨-٢٩ و ص١٣٢، الحلل الموشية ، ص ١٠٧ - ١٠٨ و ١٢٥ ، وانظر كذلك تعليق د. احمد مختار العبادي في مقاله : دراسة حول كتاب الحلل الموشية واهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان، العدد الخامس ، سنة ١٩٦٠ ، ص١٠٧ .

(٤) انظر اشارة البيدق (أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٣٢) الى ارسال ابن تومرت طلبة الموحدين الى قبائلهم في سنة ٥٢٢هـ /١١٢٨م.

(٥) نظم الجمان ، ص ٩٣ ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٣٢ ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٢٨.

(٦) انظر حاشية رقم (٥) .

(٧) ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ، القسم الموحدي ، ج٣ ، ص ٢٠٨-٢٠٩) ان الخليفة المنصور اوصى قبل وفاته بالطلبة وخص منهم طلبة الحضر بقوله : (وهؤلاء الطلبة تجعلون لهم موضعا يكون لخاصتهم يشتغلون فيه بالمذاكرة) . مما يحملنا على الاعتقادان خلفاء الموحدين بعد المنصور قاموا باضافة منشآت جديدة للمؤسسة شملت غرفا للسكن وقاعات للمطالعة وغير ذلك .

(٨) نظم الجمان ، ص ١٢٧-١٢٨.

(٩) نظم الجمان ، ص ١٢٩ وكذلك الحلل الموشية ، ص ١٥٠-١٥١ .

(١٠) انظر : المن بالامامة ، ص ١٢٧-١٢٨.

(١١) انظر : نظم الجمان ، ص ١٢٩ ، الحلل الموشية ، ١٥٠-١٥١ .وكذلك المعجب ، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(١٢) الحلل الموشية ، ص ١٥١ .

(١٣) انظر مجموع رسائل موحدية ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(١٤) انظر تفاصيل فتح افريقية : الكامل ،جـ١١ ص ٢٤١-٢٤٥ .

(١٥) المن بالامامة ، ص ١٢٨-١٢٩ و ٢٢٧-٢٢٨.

(١٦) جاء في ص ٢٢ ما يلي : من عبد المؤمن الى الطلبة في تلمسان في ١٠ شعبان ٥٤٧هـ يعلمهم فيها بفتح قسنطينة ودخول يحيى ابن عبد العزيز صاحب بجاية في التوحيد . وجاء في ص ٤٧ من الرسائل المذكورة : من عبد المؤمن الى طلبة تلمسان يخبرهم باعادة تنظيم طبقات الموحدين. وفي ص ٥ ٥يخبرهم بتوليه ابنه محمد ولاية العهد ، وجاء في ص ١٥٨ من المنصور الى الطلبة في غرناطة يعلمهم ببيعته ويدعوهم الى اشتراكهم فيها . وجاء في ص ١٢٦: من عبد المؤمن الى الطلبة في بجاية يطلب منهم تنفيذ سياسته الدينية والسياسية .

(١٧) المن بالامامة ، ص ١٣٧ ، عصر المرابطين والموحدين ،جـ١ ، ص ٣٧٩ـ٣٨٠ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ١٣٩

(١٩) المصدر السابق ، ص ٢٢.

(٢٠) انظر مجموع رسائل موحدية ، ص١١ـ١٢ وكذلك ص ٩٣.

(٢١) ابن وزير هذا ، صاحب باجة والبيرة في الاندلس . انظر عصر المرابطين والموحدين ،جـ١ ، ص ٣٤٠ .

(٢٢) المن بالامامة ، ص ٢٣١.

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٢٨ـ١٢٩.

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ـ٢٢٨ وانظر مجموع رسائل موحدية ص١، ١٠، ٢٢، ٤٧، ٥٥.

(٢٦) المن بالامامة ، ص ٤٩٦.

(٢٧) على الرغم من المكانة التي تمتع بها الطلبة في عهد الخليفة يوسف ، الا انهم لم يبلغوا من القوة والنفوذ درجة يستطيعون فيها ان يملوا على الخليفة رغباتهم ، وخاصة فيما يتعلق بابعاد المفكرين والفلاسفة ، لانهم على ما يبدو لم يكونوا قد شكلوا بعد قوة سياسية واقتصادية واجتماعية ـ بحسب حسابها ـ وتستطيع ان تؤثر في مجرى الاحداث عن طريق اثارة العامة وتوجيهها بما يخدم مصالح الطلبة ويزيد من نفوذهم وامتيازاتهم في الدولة .

(٢٨) المعجب ، ص ٢٧٩ـ٢٨٠.

(ﻫ) روض القرطاس ، ص ٢١٧

(٢٩) المعجب ، ص ١٣٤

(٣٠) المعجب ، ص ٢٠٠ـ٢٤٥ ، التكملة ترجمته رقم ١٨٧٩ .

(٣١) التكملة ، ص ٦٦٨ـ٦٦٩ ترجمة رقم ١٨٦٢ ، المن بالامامة ص ٢٢٨ـ٢٣٠ .

(٣٢) انظر ترجمته في التكملة رقم ١٩٢٠ ، صلة الصلة (نشر بروفنسال ، ط الرباط ١٩٣٩) ، ص١٣١ ـ١٣٢ ، وجذوة الاقتباس ، ط فاس الحجرية ١٣٠٩ هـ ، ص ٢٩٨ـ٢٩٩.

(٣٣) المن بالامامة ، ص ٤٢٨ـ٤٢٩ .

(٣٤) نظم الجمان ، ص ١٣٩ ، الحلل الوشية ، ص١٥٠ـ١٥١ .

(٣٥) مجموع رسائل موحدية ، ص ١٣٧ .

(٣٦) وهذا ما اشار اليه ابن خلدون (المقدمة ص٥٣٣ وما بعدها) بان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا يلقي عليه مسائل من كل باب في الفن هي اصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى اخر الفن.

(٣٧) طبقات الاطباء ، جـ٢ ، ص ٦٩ـ٧٠.

(٣٨) صلة الصلة لابن الزبير ، ترجمة رقم١٢٦.

(٣٩) المصدر السابق والصفحة ذاتها .

(٤٠) احياء علوم الدين للغزالي (ط الحلبي) ، جـ٣ ، ص٦٣ .

(٤١) المن بالامامة ، ص ١٢٩، الحلل الموشية ،ص ١٥٠.

(٤٢) المن بالامامة ، ص ٤٢٩.

(٤٣) المصدر السباق والصفحة ذاتها .

(٤٤) نظم الجمان ، ص ١٣٩ والحلل الموشية ،ص ١٥٠ - ١٥١ وانظر كذلك ما قاله ابن خلدون (المقدمة ، ص ٥٤٠ـ٥٤١) في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم ولا سيما في أصاغر الولد .

(٤٥) انظر ما قاله ابن خلدون (المقدمة ص ٥٣٨ـ٥٤١) عن ضرورة تعليم هذه العلوم والطرق المتبعة في ذلك . وليس من شك في ان ابن خلدون كان يتحدث عن الطرق المتبعة في عهده والعهودالتي سبقته وخاصة العهد الموحدي.

(٤٦) انظر : نظم الجمان ، ص ١٣٩.

(٤٧) اعز ما يطلب ، ص ٢٧٥ وما بعدها .

(٤٨) المصدر السابق ، ص٢٥ وحاشية رقم (١)والمعجب ، ٢٧٨ .

(٤٩) انظر المن بالامامة ، ص ٨٥،٨٨ـ٩٩ ، ١٥٢،١٥٩ .

(٥٠) اعز ما يطلب ، ص ٢٢٦.

(٥١) نظم الجمان ، ص ١٧٨ .

(٥٢) حول هذه الكتب التي كانت تدرس في جميع معاهد للموحدين الثقافية انظر على سبيل المثال: ابن بشكوال ، الصلة ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، ص ٢٠٨،١٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠٠، والتكملة لابن الابار ، ط مجريط رقم ١٢٢، ٨٦٨ ، ٩٦٢ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١١٥٢ ، ١٤٩٢ ، ١٦٠٨، ١٦٦٧ ، ١٦٧٤ ، ٢٠٠٦ ، والمعجب ، ص١٦٧، ١٨٤ ، ١٨٥ ، الحلل الموشية ، ص ١١٤. والجزنائي : زهرة الاس ، ط تلمسان ، ١٩٢٢ ، ص ٤٨ .

(٥٣) انظر على سبيل المثال ، المن بالامامة ،ص١٢٧

(٥٤) انظر التفاصيل في عصر المرابطين والموحدين، جـ٢ ، ص ٦٢٣ - ٦٤٠.

(٥٥) انظر على سبيل المثال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١١ـ١٢ ، و ٩٣ والمن بالامامة ، ص٢٢ ٢٣١ .
يوسف اشباخ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، تحقيق عنان ، جـ٢،ص٥١.

(٥٦) نظم الجمان ، ص ١٣٩، الحلل الموشية،ص ١٥٠ـ١٥١.

(٥٧) نظم الجمان ، ص ١٣٩، الحلل الموشية ، ص ١٥٠ والمعجب ص ٢٤٢ـ٢٤٣ .

(٥٨) المعجب ، ص ٢٤١ – ٢٤٣ .

(٥٩) عصر المرابطين والموحدين ، جـ١ ، ص ٤٠٣ نقلا عن نظم الجمان (المخطوطة لوحة ٥٢ب) .

(٦٠) المن بالامامة ، ص ٦٧.

(٦١) البيان المغرب (القسم الموحدي) جـ٣، ص٥٧.

(٦٢) اخبار المهدي بن تومرت ، ص ٤٨.

(٦٣) المعجب ، ص ٢٠١ .

(٦٤) المقصود بأهل علم النظر كما يفهم من قول المراكشي (المعجب ، ص٢٠١) ، هم : العلماء الذين يهتمون بدراسة العلوم القديمة كالفلسفة والمنطق والطب والفلك وغير ذلك او بتعبير اخر كل العلوم الاخرى غير العلوم الدينية .

(٦٥) المصدر السابق ، والصفحة ذاتها .

(٦٦) انظر المعجب ، ص ٣٣٩ وما بعدها .

(٦٧) انظر التفاصيل في تاريخ المغرب والاندلس ، د. احمد بدر ، مطبعة الروضة بدمشق ١٩٨٢ ، ص ٢٧٣ وما بعدها . وعصر المرابطين والموحدين، جـ٢ ، ص ٥٧٨ وما بعدها .

(٦٨) انظر : روض القرطاس ، ص ٢٠١–٢٠٢ وكذلك المعجب ، ص ٣٣٩ وما بعدهاه .

(٦٩) المعجب ، ص ٢٧٩–٢٨٠ .

(٧٠) المعجب ، ص ٢٣٩–٢٤٠ وطبقات الاطباء ، القاهرة جـ٢ ، ص ٥٧ .

(٧١) من رسالة ضمن كتاب أخبار المهدي بن تومرت (ط بروفنسال ، باريس ١٩٢٨) ص ١٥ وانظر مجموع رسائل موحدية ، ص ١٣٢.

المصادر والمراجع

– ابن الابار : (محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي ، ت ٦٥٨ هـ) التكملة لكتاب الصلة ، طبعة مجريط ، بلا تاريخ .

– ابن الاثير : (أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ، ت ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٧٩ .

– ابن ابي اصيبعة : (موفق الدين ابو العباس أحمد بن القاسم ، ت ٦٧٧هـ) عيون الابناء في طبقات الاطباء ، القاهرة ١٨٨٢ .

– احمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب الحلل الموشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، سنة ١٩٦٠ .

– ابن بشكوال : (ابو القاسم خلف بن عبد الملك ، ت ٥٧٨ هـ الصلة في أئمة الاندلس ، تحقيق عزت العطار الحسيني، ١٩٥٥ .

– البيذق : (أبو بكر بن علي الصنهاجي ، ت ٥٥٥ هـ)

أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، طبعة بروفنسال ، باريس ١٩٢٨ .

- الجزنائي : (أبو الحسن علي)
زهرة الآس في أنباء مدينة فاس ، طبعة الجزائر .

- ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ)
المقدمة ، طبعة مؤسسة الاعلمي ، بيروت ١٩٧١ .

- ابن صاحب الصلاة : (عبد الملك ، ت ٥٩٤ هـ)
تاريخ المن بالامامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت.

- ابن الزبير :

- ابن أبي زرع الفاسي : (علي بن عبد الله ، ت ٧٢٦ هـ)
الانيس المطرب بعض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٣ .

- ابن عذارى المراكشي : (أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، ت بعد ٧١٢هـ)
البيان المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، القسم الموحدي ، تحقيق امبروسي هويسي ميراندا ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد الكتاني ، منشورات جامعة محمد الخامس ، الرباط ١٩٦٠ .

- عنان : (محمد عبد الله)
عصر المرابطين والموحدين ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٤ .

- الغزالي : (محمد بن محمد بن أحمد ، ت ٥٠٥ هـ)
احياء علوم الدين ، طبعة الحلبي ، ١٩٣٩ .

- ابن القاضي : (أحمد بن محمد أبي العافية ، ت ١٠٢٥ هـ)
جذوة الاقتباس في أخبار مدينة فاس ، طبعة المغرب.

- ابن القطان : (أبو علي حسين بن القطان ت بعد عام ٦٦٥ هـ)
نظم الجمان في أخبار الزمان ، تحقيق محمود علي مكي ، طبعة جامعة محمد الخامس ، الرباط .

- مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق د. سهيل زكار والاستاذ عبد القادر زمامة ، طبعة دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٧٩ .
مجموعة من كتاب الدولة الموحدية
مجموع رسائل موحدية ، اعتنى باصدارها بروفنسال، طبعة رباط الفتح ١٩٤١ .

- المراكشي : (عبد الواحد بن علي ، ت بعد ٦٢١ هـ)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة دار الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٩ .

- يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، تحقيق عبد الله عنان ، طبعة لجنة التاليف والترجمة ، القاهرة ١٩٥٨ .

من تاريخ حلب
حكم قسيم الدولة آق سنقر
٤٧٩_٤٨٧هـ/١٠٨٦_١٠٩٤م

محمد ضامن
مرشح للماجستير

خضعت امارة حلب لحكم القبائل العربية قبل الاحتلال السلجوقي لها وقد تمثل حكم هذه القبائل بالحمدانيين ومن بعدهم المرداسيين والعقيليين وقد تمكن البيزنطيون خلال هذه الفترة من احتلال مناطق متعددة من الامارة واخضعوها لسلطانهم وكذلك حاول الفاطميون فرض سيطرتهم عليها ونافسهم في ذلك العباسيون ومع ذلك بقي المرداسيون هم الحكام الفعليون للامارة حتى وصول السلاجقة اليها .

كان الحكم ايام المرداسيين حكما قبليا بدويا ، فالقبيلة هي الحاكمة والمسيطرة على مقدرات البلاد ، وقد اعتمد الامير المرداسي على رجال قبيلته بشكل رئيسي وكان شيوخ القبيلة في هذه الفترة هم الشخصيات البارزة في الدولة . وشغلوا أدوارا سياسية هامة في حياة الامارة . .

وحين انتقل الحكم الى العقيليين في شخص الامير مسلم بن قريش صاحب الموصل، اصبحت رئاسة حلب بيد شيوخها وطاعتهم لمسلم الذي غادرها الى مركزه في الموصل. وكان الحكم الفعلي لحلب بيد لجنة من شيوخها كانوا مسؤولين عن شؤون الامارة .

لم تعرف امارة حلب الاستقرار السياسي ايام المرداسيين حيث عاشت فترة منازعات على السلطة وصلت في بعض الاحيان حد الاقتتال بين الاخ واخيه او ابن عمه أو قريبه والالتجاء احيانا اخرى الى الغرباء لتحقيق مصالحهم الذاتية ، وقد ادى ذلك الى اهمال شؤون الدولة وضعف قدراتها الدفاعية وتدهورت الحياة الاقتصادية مما جعلها عاجزة عن الوقوف بوجه القوى الاجنبية الطامعة بها ، كالتركمان الذين بدأوا بالوصول اليها منذ سنة ٤٥٧ هـ وعملوا جاهدين للسيطرة عليها حتى سنحت لهم الفرصة اثر النزاع الذي نشب بين كل من تاج الدولة تتش وسليمان بن قتلمش الذين كان يعمل كل منهما لضمها الى أملاكه، وقد دفع الخلاف على حكمها بين تتش وسليمان

بالسلطان ملكشاه الى التدخل وانهاء هذه المنافسة المدمرة بتعيين آق سنقر واليا عليها وبذلك دخلت حلب تحت الحكم السلجوقي المباشر .

فمن هو آق سنقر ؟ ولماذا اختاره السلطان ، وما هو اسلوبه في الحكم . .الخ.

١ ـ آق سنقر ووصوله الى السلطة :

آق سنقر بن عبد الله(١) المعروف بقسيم الدولة ، ويقال عن اسم ابيه آل ترغان(٢) وأنه من قبيلة ساب يو(٣) وانه كان مملوكا للسلطان أبي الفتح ملكشاه وملازما له(٤) وأنه كان حاجبه(٥) وذا حظوة عنده ، ولا يعرف عن صباه الا انه تزوج من داية السلطان ادريس بن طغان شاه(٦) قال عنه ابن الاثير « كان قسيم الدولة تركيا من أصحاب السلطان جلال الدولة ركن الدين ملكشاه بن ألب ارسلان واترابه ، وممن ربى معه في صفره وصحبه حتى كبره ، فلما أفضت اليه السلطنة بعد ابيه ، وافاضت تاجها عليه رعى لآق سنقر صحبته ، فجعله من أعيان امرائه واخص اوليائه، فصادف الاحسان أهله ، فرفع قدره ، وأعلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وأفضى اليه باسراره في خلواته وجلواته ،ووثق به وثوقا حسده عليه سائر امرائه واجناده لما راى من شجاعته وحزمه وسداد رأيه ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والايناس» (٧) .

اما ما أورده ابن الاثير في تعريفه لآق سنقر فيدل على أنه كان مملوكا للسطان ألب أرسلان ، وعاش في كنفه مع ابنه ملكشاه ، ثم أصبح مملوكه وحاجبه ، ومن أخلص المخلصين له حتى أن السلطان ملكشاه صدق شكايته ضد أخيه تتش عندما وفد عليه في بغداد(٨) .

ان من أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سنقر عند السلطان هو منحه لقب قسيم الدولة(٩)، وكانت الالقاب في تلك الفترة مصونة، لا تعطى الا لمستحقيها حتى أن السلطان لم يكن يعرف الا بجلال الدولة ، ومن الدلائل الاخرى على الحظوة التي حازها آق سنقر أنه كان يقف الى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد (١٠) .

ان منح هذا اللقب لآق سنقر يدعو للتساؤل حول أسباب منحه اذا علمنا أن قسيم تعني شريك ، فهل أعطي له هذا اللقب لمجرد انه حاز ثقة السلطان ومحبته ودعمه ؟ أم ان هذا المنح كان بسبب أنه ينتسب لقبيلة لها مكانتها واهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة ، وهي قبيلة ساب يو ، وانه كان ذا مكانة رفيعة فيها ، او انه أدى لملكشاه اعمالا جليلة استحقت اعطاءه هذا اللقب ؟. ويبدو أن هذا اللقب اعطي له لهذه الاسباب جميعا اضافة الى ان المكانة التي حازها لدى ملكشاه تدل دلالة واضحة على انه تربى وعاش معه فعرف ذكاءه وشجاعته وحسن معاشرته(١١) .

وصلت مكانة آق سنقر ورفعته عند السلطان ملكشاه الى الحد الذي اخاف كبار رجال الدولة امثال الوزير نظام الملك ، بالرغم من تحكمه بأمور الدولة والسلطنة وكثرة اتباعه وأعوانه ، مما دفعه لتقديم المشورة للسلطان ، لتعيين آق سنقر حاكما على امارة حلب مع غيرها من بلاد الشام ، وقد أراد نظام الملك من هذه المشورة تحقيق عدة امور منها :

١ ـ كسب ثقة ومحبة آق سنقر قسيم الدولة .

٢ ـ ابعاده عن مرافقة السلطان وخدمته وبالتالي ابعاده عن طريقه ومنافسته.

٣ ـ عدم المساس بثقة السلطان بآق سنقر .

والسؤال الذي يرد هنا هل تم تعيين آق سنقر واليا على حلب بسبب مشورة او نصيحة الوزير نظام الملك أم أن ملكشاه كان يرى في ولاية آق سنقر لحلب امورا اخرى ؟..

ان المصادر لا تجيب على هذا التساؤل حتى الان ، ولكن الاحداث تدل على أن ملكشاه وجد أن نصيحة نظام الملك موافقة للظروف التي كانت تمر بها منطقة شمال بلاد الشام وحاجتها الى شخص قادر على فرض الحكم السلجوقي في حينه ، ولعله أراد كذلك أن يكون قسيم الدولة حاجزا بينه وبين أخيه تتش صاحب المطامح السياسية ليس في بلاد الشام وحدها بل وبالسلطنة ايضا ، ويؤيد هذا الافتراض الصراع الذي نشب بين تتش وآق سنقر في حياة السلطان ملكشاه ، وكذلك بعد وفاته(١٢) .

اعتمد السلطان على آق سنقر في كثير من الحروب ، ففي سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ ـ ١٠٨١ عينه قائدا لجيش الموصل بصحبة عميد الدولة ابن صهير ، فاستطاع بما عرف عنه من سداد الرأي ورجاحة العقل وقوة السياسة ، الى جانب معرفته بأمور الحرب والحصار ، اقناع أهل الموصل بترك العصيان واطاعة السلطان وسلموا البلد لعميد الدولة الذي أخذ ما كان لشرف الدولة وأهله من مال وذخائر(١٣) .

تشير جميع المصادر الى وجود آق سنقر على رأس حملة عميد الدولة او عميد الملك الى الموصل ولكنها لم تشر الى رحيله عن الموصل مع السلطان الذي غادرها لقتال اخيه تكش الذي أظهر العصيان عليه في شعبان سنة ٤٧٣هـ(١٤) كانون الثاني ـ شباط ١٠٨١م . كما انها لم تؤكد بقاءه في الموصل بانتظار عودة السلطان الى الغرب ليرافقه أثناء توجهه الى حلب ، وعلى الرغم من ذلك فان ابن الاثير يغفل ذكر اسمه مع جيوش السلطان التي دخلت حلب معان السلطان ولاه امارتها قبل رحيله ، ولكنه يكمل روايته في موضع آخر ، فيقول ان السلطان عندما ملك حلب سلمها الى قسيم الدولة آق

سنقر(١٥) وكذلك يشير ابن كثير الى ان السلطان استناب على حلب قسيم الدولة آق سنقر(١٦) .

كان اهل حلب قد كاتبوا السلطان ملكشاه لتسليمه حلب التي دخلها تتش سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧م وحاصر قلعتها ، وقدوصلت الاخبارالى تتش تعلمه بوصول طلائع حملة أخية السلطان الى حلب فرحل عنها في الوقت الذي عبر فيه السلطان ملكشاه الفرات ووصل مدينة حلب فتسلمها(١٧) وتسلم القلعة ، وفي اثناء وجوده بحلب أرسل اليه نصر بن علي بن المقلد أمير شيزر يعلمه بدخوله في طاعته وتسليمه اللاذقية وافامية وكفر طاب ، فقبل السلطان العرض ولم يزحف على بلاده وأقره اميرا على شيزر ، بعدها تابع السلطان مسيره الى انطاكية فضمها الى املاكه وحط رحاله على ساحل البحر أياما ، ثم عاد الى حلب وعيد بها عيد الفطر ثم رحل عنها بعد أن اقطع حلب ومناطقها ، وحماةومنبج واللاذقية وما معها الى قسيم الدولة آق سنقر ، واقطع مدينة انطاكية للامير ياغي سيان وذلك سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧م(١٨) . وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تعيين آق سنقر واليا على حلب ، ويبدو أن هذا الاختلاف مرده الى أن رحيل السلطان عن حلب لم يذكر بالشهر ، فمنهم من قدر ذلك بانه أواخر سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧ م ، وبعضهم قدر ذلك انه اول سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧ - ١٠٨٨(١٩) .

مع تولي آق سنقر حكم حلب بدات مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لامارة حلب وشمال الشام ، وانتهى معه حكم القبائل العربية لهذه الامارة وازيحت عن مسرح السياسة والحرب والحكم والدفاع ، واصبح كل ذلك شأنا من شؤون التركمان وسيستمر ذلك في شمالي الشام حتى قيام حكم الزنكيين عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م .

حكم آق سنقر في حلب :

آ - **سياسته الداخلية :** عاشت امارة حلب فترة من المنازعات القبلية والسياسية ، قبل دخول السلطان ملكشاه اليها ، وبالرغم من أن مسلم بن قريش كان أميرا عليها وحاول ايجاد نوع من الوحدة السياسية في بلاد الشام ، الا أن اخفاقه بذلك وانكفاءه عن دمشق الى حران للقضاء على التمرد الذي حصل بها ، وتصميم تتش على انتزاع حلب وممتلكاتها وضمها الى سلطانه ؛ ومقاومة اهلها لهذا الضم ، دفع بهم الى استدعاء السلطان ملكشاه الذي اهتبل هذه الفرصة الثمينة ودخلها دون مقاومة ، والحقها بسلطنته وولى عليها قسيم الدولة آق سنقر .

كان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لامارة حلب ، بعدما عانت سنوات طويلة من التمزق والتفكك والحروب الطويلة التي كانت تدور اولا بين القبائل العربية فيما بينها ،

ومن ثم بين القبائل العربية وقبائل بدوية قادمة من الشرق هم البدو التركمان(٢٠). فمنذ عام ٤٥٦ هـ/١٠٦٣-١٠٦٤م وقبله تعرض شمال بلاد الشام لابشع انواع التدمير والقتل ونهب القرى وتهديم الحصون واتلاف المحصولات والمزروعات ، واسر الرجال ، وسبي النساء وقد تناوب هذه الاعمال التخريبية الغز التركمان تارة والبدو العرب تارة اخرى(٢١) .

ولم يشغل الامراء والحكام في المنطقة الا العمل على تثبيت أقدامهم في مواقع السلطة بالتآمر والمؤامرات ، او باللجوء الى القوى الكبرى المحيطة بهم كالخلافة العباسية ومن ورائها السلاجقة تارة ، او البيزنطيين او الفاطميين تارة اخرى ، وهدفهم الوحيد هو المحافظة على دولتهم (٢٢) ، وكانت سياستهم في استنجادهم بالقوى المحيطة متوازنة ، حتى لا يتمكن اي منها من القضاء على دولتهم ، فيستنجدون بالاقوى عندما يتعرضون للخطر ، كما فعل عطية ومحمود ومسلم بن قريش ، وفي خضم هذه الصراعات نسوا مسؤولياتهم تجاه مواطنيهم وبلدهم كما لم يعملوا على تطوير اقتصاد البلاد بما يزيد من وارداتها ، بل كانو اذا احتاجوا الى الاموال ، وكثيرا ما احتاجوا اليها ، لجأوا الى فرض الضرائب والاتاوات التي اثقلت كاهل المواطنين وافقرتهم ووصلت بهم الى حد التذمر والشكوى(٢٢) ، وقد أدى كل ذلك الى كثرة اللصوص وقطاع الطرق ومخيفي السبيل ، فانعدم الامن داخل البلاد وعلى الطرق التجارية ، فأقفرت الاسواق وقلت البضائع فيها لان التاجر لا يضحي بأمواله في حال وجود من يسلبه ما حمل ، وكذلك ضعفت موارد الزراعة لعدم تمكن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول ، وفي هذه الظروف أيضا برزت وقويت منظمة الاحداث(٢٤) التي كانت تعمل على الحفاظ على مصالح افرادها والوقوف بوجه التحديات التي تأتي من الخارج .

تسلم آق سنقر السلطة في حلب في شوال سنة ٤٧٩هـ/ كانون الثاني ١٠٨٧ م والبلاد في حالة فوضى تامة كان عليه ازالتها ، اضافة الى ان السلطان ملكشاه اعتمد عليه في تنفيذ سياسة السلاجقة في بلاد الشام ، والتي تسير ضمن اتجاهين : الاول اخضاع بلاد الشام لسطانهم ، والثاني مقاومة الفاطميين والقضاء على سطانهم في بلاد الشام ومصر ، فكانت أول اعماله اقامة الحدود الشرعية وازالة حالة الفوضى التي كانت تعيشها البلاد ، والتخلص من المتطرفين في الفساد واستئصال شأفتهم(٢٥) وملاحقتهم في كل مكان . ونتيجة لذلك فان أهالي البلاد اخذوا يشعرون بالامن والاستقرار ، وتابع آق سنقر عمله بملاحقة اللصوص وقطاع الطرق ومخيفي السبيل، فأوقع بهم وتابعهم حتى قضى عليهم قتلا واسر(٢٦) ، فاطمأن القادمون والمسافرون ، وبدأ الاستقرار يعرف طريقه الى حلب من جديد ، ونشطت التجارة ، ولم يكتفبذلك بل كتب واعطى الاوامر الى عماله في سائر المدن والقرى التي خضعت لحكمه بتتبع المفسدين ، وحماية المسافرين ، وتابع ذلك بنفسه ، ففي سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩ —

١٠٩٠ م تعرض اللصوص وقطاع الطرق لقافلة كبيرة بولاية حلب ، فتجهز آق سنقر على رأس جماعة من عسكره وسار بأثرهم ، ولم يرجع الا بعد ان قتل قسما منهم وأسر القسم الباقي(٢٧) وقد بالغ في مسلكه هذا حتى قال ابن القلانسي انه « بالغ في ذلك مبالغة حسن ذكره بها ، وعظمت هيبته بسببها. وشاع له الصيت باعتمادها»(٢٨).

الى جانب الشدة والقسوة التي عامل بها الخارجين عن القانون ، فقد أقر مبدأ المسؤولية الجماعية عندما فرض على اهل كل قرية او مدينة في بلاده أذا سرق عندهم تاجر أو قافلة أن يدفعوا قيمة ما سرق عندهم ، قليلا كان أم كثيرا ، وطبق قراره هذا بحزم ، فنهض الاهالي لمساعدته في فرض الامن من جهة ، ولئلا يدفعوا قيمة ما يسرق في أرضهم ، حتى وصل الامر انه اذا وصل تاجر الى بلد من البلاد وضع أمتعته وبضاعته الى جانبه ونام قرير العين هانيها يحرسه أهل القرية ويحمونه حتى يغادر حدود بلدهم(٢٩) ، وبذلك شارك الاهالي في تحمل المسؤولية وحفظ الامن ، حتى تحدث الناس بحسن سيرته وكفايته .

ولثقة آق سنقر بنفسه وقدرته على نشر الامن والاطمئنان ، نادى في انحاء الامارة بأن لا يرفع احد متاعه ولا يحفظه في طريق . ويروي ابن العديم في بغية الطلب قصة قضائه على دابة ابن آوى التي تأكل جلد المحراث ، والتي تدل بصورة قاطعة على اهتمام آق سنقر بمتابعة تنفيذ الاوامر التي يصدرها قال : « فخرج يوما يتصيد فمر على قرية من قرى حلب ، فوجد بعض الفلاحين ، وقد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله الى القرية ، فقال له: الم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعا ولا شيئا من موضعه ؟ فقال له : حفظ الله قسيم الدولة قد أمنا في أيامه ، ومارفع هذه الالة خوفا عليها أن تسرق ، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي الى هذا النير فتأكل الجلد الذي عليه ، فنحن نحفظه منها لذلك . قال : فعاد قسيم الدولة من الصيد وامر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في حلب ، فصادوها حتى أفنوها من بلد حلب . قلت : وهي الى الان لا يوجد في حلب منها الا في النادر دون غيرها من البلاد »(٣٠) .

دفع الامان الذي شهدته البلاد في عهد آق سنقر ، بعد ان حرمت منه مدة طويلة، الى عودة الناس للتجارات في كل الارجاء بعد امتناعهم عن ذلك مدة طويلة ، وادى الاستقرار ونشاط التجارة الى اغراق اسواق حلب بالبضائع الواردة اليها من جميع الجهات والاقطار ، فرخصت الاسعار وتداعى الناس اليها للسكن فيها ليحظوا وينعموا بالامن والاستقرار ويعيشو حياة رغيدة رخيصة(٣١) وقد أثبتت تصرفاته واعماله بأنه آمن بأن العدل والامن والاستقرار هي الاسس الكفيلة في بقاء اي حكم واستمراريته، وان المتابعة والمحاسبة هما الضمانة الاكيدة لاستمرار حكمه .

وقد شهد اغلب المؤرخين بحسن سياسة آق سنقر الداخلية والامنية ، ولم يجمعوا على مدح او طراء امير أو حاكم أو زعيم بمثل ما أجمعوا به على آق سنقر ، فقال عنه ابن القلانسي « .. واحسن فيها السيرة وبسط العدل في أهلها ، وحمى السابلة المترددين فيها ، وأقام الهيبة وأنصف الرعية ، وتتبع المفسدين فأبادهم ، وقصد أهل الشر فأبعدهم ، وحصل له بذلك من الصيت وحسن الذكر ، وتضاعف الثناء والشكر ، واحترز كل من كان في ضيعة أو معقل من ان يتم على احد من المجتازين به ، أمر يؤخذ به ويهلك بسببه »(٢٢) . وقال ابن الاثير « وكان قسيم الدولة أحسن الامراء سياسة لرعيته وحفظا لهم ، وكانت بلاده بين رخص وعدل شامل وأمن واسع »(٢٣) .

اما ابن العديم في بغية الطالب ، فقد نقل اراء عدد من المؤرخين فقدت كتبهم ، في سياسة آق سنقر الداخلية ، ومما جاء في كتابه ما نقله عن تاريخ أبي غالب الشيباني فقال : « وكان آق سنقر من احسن الناس سياسة وآمنهم رعية وسابلة » وعن كتاب عنوان السير للهمذاني قال « ..واحسن السيرة ، وظهر منه عدل لم يعرف بمثله »(٢٤) ، وقال عنه ابن كثير « .. بأنه كان من احسن الملوك سيرة ، وأجودهم سريرة ، وكانت الرعية في أمن ورخص و عدل »(٢٥) ، وقال عنه الغزي « ثم ظهرت كفايته ، وعظمت هيبته في جميع بلاده .. ورخصت الاسعار في أيامه ، وأمنت السبل واقيمت الحدود الشرعية »(٢٦) .

ان السياسة التي اتبعها آق سنقر والاعمال التي قام بها والتي مدحه بها أكثر المؤرخين جعلت ذكراه طيبة لدى اهل حلب ، مما جعلهم يمدحونه ويثنون على سيرته ، وقد شجعهم ذلك فيما بعد على التعاون مع ابنه عماد الدين ومن بعده حفيده نور الدين اللذين اتخذا من حلب قاعدة لحكمهما ، ومستقرا للملك الأيوبيين بعدهما .

ب ـ صراعه مع تتش ، وتوسعه في الشام وسياسته الخارجية :

كان آق سنقر رجل دولة استطاع بحنكته ان يوفر الامن والاستقرار لامارة حلب ، ولم تكن سياسته الخارجية وانجازاته فيها بأقل مما قام به في الداخل ، وقد نفذ سياسته معتمدا على قوة عسكرية منظمة ومدربة تدريبا جيدا ، أنفق عليها انفاقا باهظا ، وهيأ لها ما مكنها من التحرك السريع على جميع المستويات الداخلية والخارجية وكانت نواتها تلك القوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل . وقد اثبت للسلطان مقدرة قواته وحسن تنظيمها عندما قدم الى بغداد مع الامراء الاخرين سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧ ـ ١٠٨٨ م بناء على دعوة السلطان ، فوصل اليه « في تجمل عظيم لم يكن في عساكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن منه ذلك وعظم محله عنده ، ثم امره بالعودة الى حلب فعاد »(٢٧) بعد أن اطمأن السلطان على قدرته في تحقيق الدور الذي اسنده اليه .

اعتمد آق سنقر تسيم الدولة على نوعين من القوات العسكرية ، النوع الاول : هو القوات النظامية المدربة المنتمية بمجموعها للتركمان السلاجقة وكان عددها ستة آلاف أو يزيد عن ذلك(٣٨) ، وهو عدد مقبول لقوات نظامية في ذلك الوقت ، وبخاصة ان ما تركه السلطان ملكشاه عنده هو قرابة أربعة آلاف فارس . والنوع الثاني : هو القوات الاحتياطية التي جمعها حين احتاج اليها ، وكانت خليطا من العرب والتركمان وغيرهم . وقد وصل عددها في معركته مع تتش الى عشرين الفا، وعن ذلك يقول المؤرخون « فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل ، وكان قد أطلقهما من الاعتقال ، ومحمد بن زائدة وجماعة من احداث حلب والديلم والخراسانية ، في أحسن زي وأكمل عدة وقيل أنه قدر عسكره بعشرين الف فارس ، وقيل كان يزيد عن ستة آلاف »(٣٩) .

كان تنظيمه للقوات العسكرية يعتمد على تقسيمها الى ثلاثة أقسام رئيسة هي: الميمنة والميسرة والقلب، وكان هو يتقدم هذه القوات وأول من ينزل القتال(٤٠) أما سلاح الجيش فكان القوس للخيالة المشهورين بسرعة الحركة والمرونة ، والرماح والسيوف وغيرها من الاسلحة الفردية(٤١) للمشاة .

أخذ آق سنقر بعد أن نظم امور المنطقة الداخلية ، يتطلع الى ضم المناطق المجاورة لها أو فرض هيبته عليها ، أو ابقاء حكامها تابعين له ، مستغلا الخلافات التي كانت تنشب بين حكام هذه المناطق ، او دفاعا عن مناطق تابعة له . ومن ذلك انه في سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨-١٠٨٩م حاصر شيزر وقاتل جيشها ونهبها ، انتصارا لاهل لطمين التابعة لامارته ، وعاد الى حلب بعد ان تصالح مع أمير شيزر نصر بن منقذ(٤٢) ويبدو ان هذا العمل كان استعراضا وفرض هيبة وانذارا للمجاورين له بعدم التعرض للمناطق التابعة لحلب وكي لا يجرؤ احد منهم على معاداته أو عصيانه ، كما أنه اراد اثبات وجوده امام البيزنطيين واستعادة بعض المناطق التي كانت بايديهم من بلاد الشام ، ولذلك سير جيوشه الى حصن برزويه(٤٢) وهو آخر حصن بقي في ايدي البيزنطيين من أعمال انطاكية المحررة وضمه اليه سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩-١٠٩٠م(٤٤) .

حين نهض آق سنقر لتوسيع أملاكه باتجاه الجنوب ، اصطدم بمنافس خطير كان يعمل على مد سلطانه ايضا في هذه المنطقة ، هو تاج الدولة تتش حاكم دمشق واخو السلطان ملكشاه . وكان تتش قد طلب من اخيه السلطان سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ - ١٠٨٨ م تزويده بجيوش ومعدات تمكنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام واخضاعها لسلطان السلاجقة ، وقد لبى السلطان طلب اخيه تتش فأصدر أوامره الى آق سنقر والي حلب ، وبوزان حاكم الرها ان يكونا مع تتش ويقدما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر ومعدات(٤٥) . ومن الامور التي كانت تستدعي الاسراع في طرد الفاطميين من المنطقة ، وجود حكام في بلاد الشام يقدمون الولاء للفاطميين ويعملون على

الاعتداء على الاراضي التابعة لتتش ومن هؤلاء خلف بن ملاعب امير حمص الذي قام في سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩ ـ ١٠٩٠م بالاعتداء على الاراضي التابعة لتتش بايحاء من الفاطميين ، وقد ضج ولاة الشام السلاجقة من تصرفات ابن ملاعب فشكو امرهم للسلطان ملكشاه(٤٦) الذي أمر أخاه تتش بالمسير لتأديبه ، ومن ثم الاستيلاء على المناطق التي ما زالت تخضع للفاطميين في الشام ، وكذلك طلب السلطان ملكشاه من آق سنقر وباغي سيان وبوزان مساعدة تتش في مهمته تلك ، وبالرغم من أن آق سنقر وبوزان كانا غير قانعين بمساعدة تتش ، الا أنهما وصلا اليه بجيشيهما تحقيقا لرغبة السلطان وتنفيذا لاوامره .

نزلت القوات المتحالفة على حمص سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠ـ١٠٩١ م وحاصرتها وضيقت عليها حتى استسلمت بالامان ، ويقول ابن العديم ان آق سنقر تسلم حمص حتى وصله أمر السلطان بتسليمها لتتش(٤٧) ، الذي أرسل اميرها خلف بن ملاعب مقيدا الى السلطان .

بعد الاستيلاء على حمص تابعت القوات المتجمعة الزحف باتجاه عرقة التي كانت تحت سيطرة بني عمار حكام طرابلس ، ومنها توجهت الى طرابلس وحاصرتها ، وكان يحكمها جلال الملك بن عمار ، وقد وجد ابن عمار أنه لا يستطيع مقاومة هذا الجيش الكبير الا بالحيلة والسياسة ، فاتصل سرا بأمراء تتش محاولا عقد صفقات صلح منفردة وابعادهم عن تتش بغية اضعافه فلم يصل الى مبتغاه ، لكن ابن عمار لم ييأس من المحاولة واتصل ثانية بوزير آق سنقر « رزين كمر » فوجد عنده لينا ، فتابع مراسلته وبعث اليه بالهدايا والتحف مما أرضاه ، فسعى هذا بالوساطة بين ابن عمار وقسيم الدولة آق سنقر ليبعده عن تتش. وقد قبل آق سنقر وساطة وزيره مما دفع ابن عمار الى حمل ثلاثين الف دينار وتحفا بمثلها وقدمها لآق سنقر ، وكذلك عرض عليه التفويض الذي بيده من السلطان ملكشاه باقراره على طرابلس وولايته عليها(٤٨)» فقبل آق سنقر حجج ابن عمار مما ادى الى اختلاف آق سنقر مع تتش ، وحدثت مشادة بينهما فقال آق سنقر لا اقاتل من هذه المناشير بيده ، فاغلظ له تاج الدولة وقال :هل انت الا تابع لي !! فقال آق سنقر : انا تابعك الا في معصية السلطان ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة الى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد بوزان الى بلاده فانتقض الامر »(٤٩) .

فهل قبل آق سنقر حجج ابن عمار عن قناعة أم بسبب ما قدم له من الاموال والهدايا ؟ أم لاسباب اخرى ؟. يبدو أن موقف آق سنقر كانت وراءه دوافع سياسية، وليست قناعته بعدالة قضية ابن عمار ، اضافة لما قدم له من الاموال هو بحاجة اليها لانفاقها على سياسته المناهضة لتتش وتطلعاته . وهكذا فان آق سنقر لم يساعد تتش في تحقيق هدفه في ضم طرابلس الى املاكه وهذا مايثبت وجود تنافس بينهما ، وان

آق سنقر كان يطمع بما كان يطمع به تتش من بلاد الشام وانه كان يخرج معه تنفيذا لاوامر السلطان فقط ، وحين يجد ثغرة ينفذ منها للتملص والتهرب من مساعدته كان يفعل ، وهذا ما تم على ابواب طرابلس .

الى جانب ذلك فان آق سنقر كان يدرك ان احتلال أي مدينة او موقع سيكون من نصيب تتش كما حدث في حمص . وهذا بحد ذاته دعم وتقوية لمركز تتش ، واضعاف واستنزاف لقدراته وامكاناته هو ، وهو ما كان يحاول تحاشيه والابتعادعنه.

حين ترك قسيم الدولة طرابلس ورفض مساعدة تتش ، بدأ بتنفيذ جزء من مخططه في التوسع ، فتوجه الى افامية واستولى عليها ، وكانت تابعة لخلف بن ملاعب ويتولى شؤونها نائب عنه ، وذلك في الثالث من رجب ٤٨٤ هـ / ١٠٩١-١٠٩٢ م وسلمها الى ابن منقذ وعاد الى حلب(٥٠) .

وهنا يمكن التساؤل لماذا سلم قسيم الدولة أفامية لابن منقذ ولم يعين نائباعليها من قبله ؟ وتبرز هنا عدة احتمالات كانت وراء ذلك ، أولاها انه كان يريد ايجاد حليف قوي ، وقد وجد هذا الحليف في الاسرة المنقذية ، ثانيها ان هذا العمل كان تشجيعامنه لاقامة دولة تحجز بينه وبين تتش وتحمي حدوده الجنوبية ، وثالثهما حرمان تتش من الاستيلاء عليها وبالتالي ابعاده عن حلب ، وقد تكون هذه الدوافع مجتمعة هي التي حملت آق سنقر قسيم الدولة على تسليم أفامية لابن منقذ .

بعد عودة آق سنقر الى حلب اعتقل شبل بن جامع مع أمير بني كلاب وولده مبارك بالقلعة(٥١) ، لكن المصادر لا تورد أسباب اعتقالهما . ويبدو انه فعل ذلك لاحد امرين : فاما ان يكون قد اكتشف انهما حاولا القيام بفتنة أثناء غيابه ، أو أنه خاف من قيامها مع قبيلة كلاب بعمل ما للعودة الى حكم حلب كالسابق .

في شهر رمضان من سنة ٤٨٤هـ / ايلول ــ تشرين أول ١٠٩١م ، وصل السلطان ملكشاه الى بغداد كما وصل اليها تتش وآق سنقر وغيرهما من زعماء الاطراف(٥٢) للسلام عليه ولمشاركته في الاحتفال بعيد المولد ، وحاول كل منهمان يظهر أمام السلطان بأفضل ما لديه للظهور لكسب وده وثقته ، ويبدو ان تتش عرض قضية خلافه مع آق سنقر وعدم تعاون هذا الاخير معه أثناء حصار طرابلس لكنه خسر هذه القضية بسبب اتهام آق سنقر له بالكذب،ثم فضحه لنواياه السيئة وخططهتجاه السلطان(٥٣)، ثم عادوا الى بلادهم(٥٤) ثم تذكر المصادر عودة تتش مرة ثانية للقاء أخيه السلطان ملكشاه للخدمة والتقرب ، وانه علم بخبر موته(٥٥) وهو في طريقه اليه وذلكليلة الجمعة النصف من شوال . فاستولى على هيت ثم وصل الى الرحبة فتركها دون الاستيلاء عليها(٥٦) . وعاد الى دمشق يتجهز لطلب السلطنة(٥٧) . فهل كان تحرك تتش قبل

وفاة اخيه للخدمة والتقرب فقط ، فاذا كان كذلك فهذا يعني وجود جفاء بينهما ، ويبدو أن هذا الجفاء ظهر أثناء المقابلة التي تمت في بلاط السلطان بين تتش وآق سنقر قبل أشهر في بغداد ، ولذلك فانه اراد من قدومه الى بغداد ازالة الاثار التي تركتها تلك المقابلة لدى السلطان وتوضيح موقفه مما اتهمه به آق سنقر ، وقد يكون هذا التحرك الى بغداد لهدف أبعد من ذلك ، كأن يطالب اخيه بولاية العهد بعد وفاته . ان المصادر لا توضح ذلك الاأن تصرفات تتش لمجرد سماعه بنبأ وفاة اخيه كانت تؤكد ذلك . ويذكر ابن العديم ان آق سنقر كان في طريقه الى السلطان ملكشاه ، فلما سمع بوفاته عاد الى حلب(٥٨) ، وهذا يعني أن تتش لم يكن وحده الذي ذهب لمقابلة ملكشاه، وانما آق سنقر أيضا ، وقد يكون فعل ذلك كي لا يترك فرصة لتتش يوغز فيها صدر ملكشاه ضده(٥٩) .

أكمل تتش استعداداته بغية التوجه شرقا لاخضاع البلاد لسلطانه ، وكاتب آق سنقر وبوزان يطلب مساعدتهما(٦٠) ، وكان موقف آق سنقر من هذا الطلب صعبا للاسباب التالية :

١ ــ ان السلطان ملكشاه الذي كان يؤيده ويدعمه قد توفي .

٢ ــ ان عدوه اللدود ، والذي يريد ابعاده عن الشام، يطالب بالسلطنة لنفسه،ويطلب منه المساعدة .

٣ ــ انه اذا رفض طلب تتش في المساعدة فليس لديه القدرة على دفعه(٦١) وحماية امارته منه .

٤ ــ ان الامر لم يتضح بعد في خراسان ، والخلاف قائم بين اولاد ملكشاه وخاصة محمود وبركياروق من أجل الحصول على السلطنة .

درس آق سنقر الموقف واحتمالاته ، فوجد انه لا مفر من اجابة تتش لطلبه، وقبل مكرها الاعتراف به واضعا نفسه وقواته تحت تصرفه ، كما ارسل الى ياغي سيان في انطاكية وبوزان في الرها ،يشرح لهما موقفه ، ويشير عليهما بمسايرة تاج الدولة والمسير معه حتى يعرفوا مايكون من امر اولاد السلطان ملكشاه، فامتثلا لنصيحة آق سنقر وصار الثلاثة مع تتش وخطبوا له في بلادهم(٦٢) .

عندما مر تتش بأراضي حلب متوجها الى الرحبة سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣ م التحق به كل من آق سنقر وياغي سيان وبوزان ، وتابع الجميع تحركهم الى الرحبة فاستولوا عليها في المحرم من سنة ٤٨٦هـ/شباط ١٠٩٣م حيث خطب تتش لنفسه بالسلطنة(٦٣)،

ثم القوا الحصار على نصيبين فخرج واليها يقدم الطاعة لتتش ويعرض عليه ان يكون معه ، الا ان اهلها كانوا من جماعةابراهيم بن قريش العقيلي فقاوموه ورفضوا تسليم البلد له مما اضطره الى اعطاء الاوامر لاستخدام القوة فقتل بها اناس كثيرون. وارتكبت معهم ابشع الاعمال واعتدي على حرمة النساء وافتعلت الكبائر(٦٤) فلما تم الاستيلاء عليها جعل نائبه فيها محمد بن شرف الدولة العقيلي(٦٥) .

قام تتش باخضاع المناطق التي كان يمر بها قبل وصوله الى خراسان . وقد استعصت عليه الموصل التي تخضع لحكم بني عقيل برئاسة ابراهيم بن قريش العقيلي فاضطر الى قتالها وقتل العديد من أهلها حتى خضعت له ، ولم يشاهد أبشع مما فعله السلاجقة بالعرب ونسائهم في هذه المعركة حتى ان بعض النساء عمدن الى القاء انفسهم في نهر الفرات خشية مما قد يلحقهن من العار على ايدي تتش ، بينما ترك بنو عقيل منازلهم بعد هذه الهزيمة وتوجهواالى السلطان بركياروق الذي استقرت له السلطنة بعد أبيه ملكشاه(٦٦) .

بعد أن استولى تتش وقواته المتحالفة على الموصل والمناطق التابعة لها قصد مع حلفائه ديار بكر ، فنزل على آمد فملكها مع الجزيرة واستولى على ميافارقين واعمالها وقرر أمر هذه البلاد ورتب حكامها(٦٧) ، ثم سار منها الى أذربيجان(٦٨) .

قوي مركز تتش بما ضمه من البلاد والمواضع فارسل الى الخليفة العباسي يطلب منه جعله سلطانا على البلاد والخطبة له على منابر بغداد وبلدان الخلافة العباسية ، فكان رد الخليفة بعدم الايجاب والمماطلة(٦٩) .

في هذه الاثناء كانت امور سلطنة السلاجقة قد استقرت وانتهى الاقتتال الذي جرى بين ابناء ملكشاه محمود وبركياروق لصالح الاخير الذي اصبح سلطانا وتمت له البيعة ودعي على المنابر باسمه واستقام له الامر(٧٠) . ووصلت الانباء الى تتش فقرر التوجه مباشرة الى خراسان ، وعندما وصل الى مدينة تبريز ، انفصل عنه قسيم الدولة آق سنقر حاكم حلب ، وعماد الدولة بوزان حاكم الرها والتحقا ببروكياروق عند مدينةالري، وقد سر بركياروق بقدومهما وتقوىبهما وبمن وفد عليه من بني عقيل بعد سقوط الموصل(٧١) .

ويمكن ان نجد أسبابا كثيرة لانفصال آق سنقر وبوزان عن تتش وانحيازهما الى بركياروق ، فقد كان تتش منافسا خطيرا لآق سنقر ، وتأييده ومسيره معه كان تحت ضغط الظروف(٧٢) لا انتصارا له ورغبة بحكمه . ثم انه كان يرى ان تبقى السلطنة في في ابناء سيده ملكشاه وفاء منه له ، فما ان سمع بانتصار بركياروق والخطبة له حتى ترك تتش وانحاز الى ابن سيده. يضاف الى ذلك شعوره بانه لن يكون له من الامر

شيء اذا تسلم تتش السلطنة .وهناك سبب ضعيف آخر يورده ابن العديم وهو أن آق سنقر شعر بأن تتش يقرب ياغي سيان ويميل اليه وقد يعتمد عليه في حكم الشام .

عند وصول آق سنقر وبوزان الى معسكر بركياروق اخذا يحذرانه من تتش وينصحانه بعدم اهمال أمره ، ويحرضانه على استعجال قتاله وانهاء خطبه واوضحا له طمعه في السلطنة وعمله لتحقيق حلمه فيها ، وانه استولى على بلاد كثيرة واشارا عليه بالمسير معهما للقضاء عليه(٧٣) .

في هذا الموقف اخذت قوات تتش بالضعف حتى انه اتخذ قراره بالعودة الى الرحبة(٧٤) . وبالفعل فقد تحرك كل من بركياروق وآق سنقر وبوزان باتجاه الرحبة، فلما علم تتش بذلك تركها واجتاز الفرات قاصدا انطاكية التي بقي بها مدة ثم عاد الى دمشق في اواخر ذي الحجة من سنة ٤٨٦هـ/ كانون أول ١٠٩٣م ومعه وثاب ابن محمود وبنو كامل وجماعة من العرب لم يجسروا على الاقامة بشمال الشام لخشيتهم من قسيم الدولة أمير حلب(٧٥) .

توقف بركياروق في الرحبة واشرف على عقد تحالف بين آق سنقر وبوزان من جهة ، وبين من بقي من قبيلة بني عقيل بزعامة علي بن مسلم بن قريش العقيلي من جهة ثانية ، للوقوف بوجه تتش، ثم عاد الى بغداد(٧٦) ليخطب له على منابرها ، وذلك يوم الجمعة في الرابع عشر من المحرم سنة ٤٧٨هـ/الرابع من شباط ١٠٩٤م. بينما عاد بوزان الى الرها وقسيم الدولة آق سنقر الى حلب ، ويرفقته بعضا من عساكر بركياروق وبني عقيل وغيرهم ، وكان وصوله اليها في ذي القعدة سنة ٤٨٦هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٣م(٧٧) .

وهكذا قام آق سنقر بالدور الاكبر في افشال خصمه الاول تتش ومنعه من الحصول على السلطنة وساعد بركياروق ابن صديقه وولي نعمته ملكشاه بابقاء السلطنة له ، وهذا دليل آخر على صدقه واخلاصه ووفائه لسيده ، ثم انه ادرك بأن تاج الدولة تتش سينتقم للضربة التي وجهت اليه(٧٨) ، فأخذ بالاستعداد وتجهيز الجيوش للتصدي له ومنعه من الخروج من دمشق ثانية لطلب السلطنة ، ومن ثم انتزاع دمشق نفسها منه ، وطلب المساعدة والدعم من السلطان بركياروق ، وكذلك أرسل الى كربوقا الذي صار اميرا على الموصل(٧٩) وبوزان حاكم الرها ، ويوسف بن آبق أمير الرحبة يطلب منهم القدوم اليه ومساعدته على الوقوف بوجه تتش . وفي الوقت الذي كان فيه آق سنقر يجمع حوله الانصار والحلفاء ، كان تتش يستعد أيضا لقتاله فضم اليه ياغي سيان وجعل منه حليفا له ، بعد ان صاهره وزوج ابنه رضوان من ابنته .

تحرك تتش باتجاه حلب لقتال آق سنقر واحتلالها في شهر ربيع الاخر سنة ٤٨٧هـ/ نيسان ١٠٩٤ م ومعه عساكر كثيرة من العرب والتركمان ، كما أنجده ياغي

سيان بعسكره والتقى به قرب حماه(٨٠) . وعندما وصل الخبر الى قسيم الدولة في حلب شرع في الجمع والاحتشاد واستعد للقائه ورده على اعقابه ، فتحرك بقواته ومعه حلفاؤه الذي وصلوا اليه ، وجماعة كثيرة من العرب الكلابيين وعلى رأسهم شبل بن جامع وولده مبارك بعد ان اطلقهما من الاعتقال ، وكذلك محمد بن زائدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية ، وقدر عدد القوات التي تجمعت تحت قيادته بنحو من عشرين الفا ، وكانوا في أحسن زي وهيئة ، وأتم آلة وعدة(٨١) .

تحرك آق سنقر بقواته المتجمعة يوم الجمعة الثامن من جمادى الاولى ٤٨٧هـ/ السابع والعشرين من ايار ١٠٩٤م . وقد قطع هذا الجيش الجرار سواقي نهر سبعين(٨٢) قاصدا عسكر تتش بينما لم يتمكن عساكر كربوقا وبوزان من قطع السواقي فظلوا في أماكنهم(٨٣) .

التقى الجيشان يوم السبت التاسع من جمادي الاولى ٤٨٧هـ/٢٨ أيار ١٠٩٤م، ويبدو أن آق سنقر كان قليل الثقة بمن معه من العرب فنقلهم اثناء المعركة من الميمنة الى الميسرة ، ثم نقلهم الى القلب فلم يغنوا شيئا . وانقض جيش تتش على جيش آق سنقر ، ودارت الدائرة على آق سنقر وعساكره ، وانتصر تتش وأصحابه وانهزم العرب وكربوقا وبوزان وعساكرهما فارين الى حلب ، ووقع القتل فيهم وتحكمت السيوف بهم ، وأسر قسيم الدولة وأكثر أصحابه وجماعة من خواصه ووزيره ابو القاسم بن بديع(٨٤) ، كما اسر شبل بن جامع امير بني كلاب فوهبه تتش لابن اخيه وثاب بن محمود ، ويبدو ان الخيانة لعبت دورا في انتصار تتش وهزيمة آق سنقر وعساكره(٨٥) .

حين أحضر آق سنقر الى تتش قال له لو ظفرت بي ما كنت صانعا فيّ! قال : اقتلك ، قال فاني أحكم عليك بحكمك في ، واعدمه تاج الدولة بيده وقطع رأسه وذلك في جمادى الاولى سنة ٤٨٧هـ/مايس ـ حزيران ١٠٩٤م ودفن بمشهد قرنبيا مدة ، ثم نقله ابنه الاتابك زنكي الى المدرسة الزجاجية بحلب(٨٦) .

توجه تتش في الحال الى حلب بينما كان كربوقا وبوزان الهاربين من المعركة قد اجتمعا بأهل حلب والاحداث وتقرر بينهم الاعتصام بالمدينة والاستنجاد بالسلطان بركياروق(٨٧) الا ان « سرعة وصول تتش الى اسوار حلب أحدث ارتباكا بين اهلها واحداثها وتركمانها ، وفي اثناء ذلك قفز جماعة من الاحداث وفتحوا احد ابواب حلب ونادوا بشعار تاج الدولة(٨٨) » فتسلمها يوم الاثنين الحادي عشر من جمادى الاولى ٤٨٧هـ/٣٠ أيار ١٠٩٤، وتسلم ايضا قلعة الشريف وبات فيها كما ان نوحا والي القلعة الكبيرة منذ أيام ملكشاه سلمها الى تتش بعد أن وثق به ، كما سلمت اليه جميع الحصون في الشام ، بعد ذلك قتل بوزان حاكم الرها واعتقل كربوقا حاكم الموصل في

حمص(٨٩) ، ثم استناب على حلب ابا القاسم حسن بن علي الخوارزمي وعين المستحفظين فيها ، وسار بقواته الى ناحية الفرات لطلب السلطنة(٩٠) .

بمقتل قسيم الدولة آق سنقر انتهت فترة من فترات حكم السلاجقة المباشر في حلب ، نعمت فيها بالاستقرار والامان اللذين لم تعرفهما منذ قرن ونيف كما نشطت الحياة الاقتصادية فيها ورخصت الاسعار بالرغم من المتاعب التي تحملها أهلها بسبب الضرائب والاتاوات التي كان يتطلبها حكم آق سنقر لصرفها على جنوده وأتباعه ومظاهره ، وبالرغم من الخلاف الذي كان بينه وبين تتش وما تطلبه من قيام أهل حلب بمساعدته .

المصادر والمراجع

- ابن الاثير : ابو الحسن عز الدين علي بن محمد عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ).
١ – الكامل في التاريخ – ١٢ جزءا – طبعة صادر – دار بيروت ١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦م.
٢ – الباهر في الدولة الاتابكية – تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣ .

- ابن ايبك الدواداري : عبد الله (ت بعد سنة ٧٣٦هـ)
٣ – الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية – وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر تحقيق صلاح الدين المنجد – طبعة القاهرة ١٩٦١ .

- ابن تغري بردى : جمال الدين ابي المحاسن بن تغري بردى الاتابكي (ت ٨٧٤هـ)
٤ – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – القاهرة ١٩٢٥ – ١٩٣٦ .

- ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ)
٥ – المنتظم في تاريخ الملوك والامم – طبعة حيدر اباد ١٣٥٩ هـ .

- الحسيني : صدر الدين ابو الحسن بن ابي الفوارس ناصر بن علي (ت ٦٢٢هـ).
٦ – اخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ) تحقيق محمد اقبال – لاهور ١٩٢٣ م.

- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)
٧ – وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان – تحقيق احسان عباس بيروت – لبنان .

- الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ).
٨ ـ العبر في خبر من غبر ـ تحقيق فؤاد السيد ـ الكويت ١٩٦١ .
٩ ـ دول الاسلام (طبعة ثانية) حيدر اباد ١٣٦٥ هـ.

- سبط بن الجوزي : شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ) .
١٠ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان القسم المطبوع ـ انقرة ١٩٦٨ .
١١ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ـ مخطوطة احمد الثالث ـ رقم ٢٩٠٧س .

- ابن العديم : كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت.٦٦٠هـ) .
١٢ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ مخطوطة أحمد الثالث رقم ٢٩٢٥ .
١٣ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب تحقيق سامي الدهان ثلاثة أجزاء ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ ـ ١٩٦٥ م .

- العظيمي : محمد بن علي (ت٥٥٦هـ).
١٤ـ تاريخ العظيمي ـ تحقيق ابراهيم زعرور ـ دمشق ١٩٨٤ م .

- ابن العماد الحنبلي : إبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩).
١٥ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ طبعة مصورة ـ بيروت .

- ابن العميد : جرجس (ت ٦٧٢ هـ) .
١٦ـ تاريخ المسلمين ـ ليدن ١٦٢٥م .

- الغزي : كامل بن حسين بن مصطفى بالي (ت ١٢٧١ هـ).
١٧ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ طبعة المطبعة المارونية في حلب ـ ثلاثة أجزاء .

- الفارقي : احمد بن يوسف بن علي بن الازرق (ت٧٥٢هـ).
١٨ـ تاريخ الفارقي (الدولة المروانية) حققه بدوي عبد اللطيف عوض ـ دار الكتاب اللبناني .

- ابو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ).
١٩ ـ المختصر في اخبار البشر ـ استامبول ١٨٦٩م .

- ابن القلانسي : حمزة ابن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت٥٥٥هـ).
٢٠- تاريخ دمشق - تحقيق سهيل زكار - الطبعة الاولى - دار حسان - دمشق ١٩٨٣ .

- ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ) .
٢١- البداية والنهاية - ١٤ جزءا - ٧ مجلدات - بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .

- ابن واصل الحموي : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب - تحقيق جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٥٣ .

- اسماعيل : علي احمد :
١ - تاريخ السلاجقة دمشق ١٤٠٣هـ١٩٨٣م

- بيتشوف الجرامني : ٢ - تحف الانباء بتاريخ حلب الشهباء - طبعة بيروت ١٨٨٠ م

- التدمري : عبد السلام
٣ - الحياة الثقافية في طرابلس الشام - بيروت دار فلسطين - ط١ ١٣٩٢ - ١٩٧٢.

- الجندي : محمد سليم
٤ تاريخ معرة النعمان - تحقيق عمر رضا كحالة دمشق - وزارة الثقافة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣م .

- زكار : سهيل
٥ - المدخل الى تاريخ الحروب الصليبية - الطبعة الثانية - دمشق - دار الفكر ١٩٧٣.

- سالم : عبد العزيز
٦ - طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي - الاسكندرية طبعة ١٩٦٧.

- مصطفى : شاكر
٧ - مقال في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الاول - عمان - ١٩٧٥ م.

- المعاضيدي : خاشع
٨ - دولة بني عقيل في الموصل - بغداد ١٩٦٨ ا.

الحواشـــي :

(١) هكذا ورد في بغية الطلب وهذا يدل على عدم معرفة اسم ابيـه ولذلك قيل ابن عبد الله لان كل انسان يعتبر عبداً من عبيد الله .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مخطوطة احمد الثالث ، المجلد الثالث .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص١٠٣ « اسم ابيه النعمان » .

ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠، ص ١٦٢ يقول انه كان زوج دادة السلطان ملكشاه التي تربيه دتحضنه.

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ١٠٣ «كان مملوكا للسلطان ملكشاه وقيل انه لصيق به » . ابن خلكان ، وفيات الاعيان، ج١ ، ص ٢٤١ ، «كان مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان » .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١، ص١١ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان، ج١، ص ٢٤١. الذهبي، ج٣، ص ٣١٥. ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٤٧.

(٦) ابن العديم ، بغية الطلب (مخطوط) .

(٧) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص٤.

(٨) انظر مايلي

(٩) سهيل زكار ، المدخل ، ص ٢٧١ .

(١٠) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص٨.

(١١) ابن الاثير المصدر السابق ص ٨.

(١٢) انظر الفقرة التالية .

(١٣) ابن الاثير ، الكامل ج١٠ ، ص ١٣٦ ، الباهر ص ٥ . الدواداري ، الدرة المضية ، ص ٧٠. ابن كثير ، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٢٦.

(١٤) ابن الاثير ، الكامل ،ج١٠، ص ١٣٦.

(١٥) ابن الاثير الكامل ، ج١٠، ص ١٤٨ ، اما في الباهر فيقول المؤرخ ان السلطان كان في الرها عندما كاتبه اهل حلب ، ص٧.

(١٦) ابن كثير ج١٢، ص١٣٠.

(١٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠،ص١٤٨ . الدواداري ، ص١٢٤ . بيتشوف ، تحف الانباء ، ص ٤٦.

(١٨) انظر اجتياز ملكشاه الفرات واحتلاله منبج في طريقه ، ثم تسلمه حلب وقلعتها في الغزي . نهـر الذهب ، ج٣ ، ص٧٦ ، ويجعـل تحـرك السلطان من اصبهان .

(١٩) ابن القلانسي، ، تاريخ دمشق ، ص ١٩٦، يجعل تقرير ولاية آق سنقر على حلب سنة ٤٨٠هـ /١٠٨٧ ـ ١٠٨٨ ورغم ذلك فانـه يذكر ان السلطان عيد في حلب ثم رحل عنها سـنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦-١٠٨٧ وقبل رحيله اقر آق سنقر على حلب وهو الصواب ، ابن الاثير ، الكامـل ،ج١٠، ص١٥٠ سبط بن الجـوزي ، مرآة الزمان ص٢٤٤ ، ويجعل ذلك سنة ٤٨٠ هـ . ابن العبـري، تاريخ الزمان ، ص ١٢٠ . ابن العديم، بغية الطلب (مخطوط)، الذهبي ، ج٢ ، ص٩ . ابن كثير، ج٢ ، ص١٣٠ .

(٢٠) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج٣، ص٣٨٠، الدواداري ، ص ٣٠٤ ، الغزي ، نهر الذهب، ص ٧٧، بيتشوف ص٧.

(٢١) زكار ، المدخل ، ص ٧٣.

(٢٢) شاكر مصطفى ، دخول الترك الغزالي الى بلاد الشام ، ص ٣٠٧ .

(٢٣) مصطفى ، ص٣١٤.
(٢٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ٤٣٧.
(٢٥) مصطفى ص ٣١٥.
(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص١٨٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ٤٦٧، ٤٦٨ ، الغزي ج٣ ، ص٧٧.
(٢٧) ابن القلانسي ، ص ١٩٧، ابن الاثير ،الكامل، ج١٠، ص ١٨٠ ، ابن العديم ، المصدر السابق، ج٢ ، ص ٤٦٧ ، ٤٦٨.
(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠، ص ١٨٠.
(٢٩) ابن القلانسي ، ص ١٩٧.
(٣٠) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ ، الكامل ،ج١٠ ، ص ٢٣٣، ابن واصل، ج١، ص ٢٧.
(٣١) ابن العديم ، بغية الطلب (مخطوط).
(٣٢) ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، القسم المطبوع، ص ٢٤٤.
(٣٣) ابن القلانسي ، ص١٩٦ ، ومثل هذا القول اورده كل من ابن الجوزي في مرآة الزمان (القسم المطبوع) ص ٢٤٤ وابن واصل في كتابه مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٧ .
(٣٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٣٣ ، الباهر ، ص ١٥.
(٣٥) زكار ، المدخل ، ص ٢٧١ (ترجمة آق سنقر من بغية الطلب).
(٣٦) ابن كثير ، ج ١٢ ، ص ١٤٧.
(٣٧) الغزي ، ج٣، ص ٧٧.
(٣٨) كان آق سنقر قد زاد عدد جيشه بما جنده من التركمان الموجودين في المنطقة .
(٣٩) ابن الاثير ، الباهر ، ص٥ ، ابن العديم،زبدة الحلب ، ج٢، ص ٤٧٢، الذهبي ، دول الاسلام ج٢، ص ١٢.
(٤٠) زكار ، المدخل ، ص ٢٧٢ .
(٤١) احمد اسماعيل علي ، تاريخ السلاجقة ،ص٢٣٦.
(٤٢) ابن القلانسي ، ص١٩٧، ابن الاثير ،الكامل، ج١٠ ، ص ١٦٨، ابن العديم، زبدة الحلب ، ج٢، ص٤٦٥، ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر، ص ١٩٩، الدواداري ، ص ٤٣١،والغزي ،ج٣،ص٧٧.
(٤٣) برزية ، حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب به المثل لحصانته ، ياقوت، ج١ ، ص ٣٨٣.
(٤٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص٤٦٧-٤٦٨.
(٤٥) ابن الجوزي ، (القسم المطبوع) ، ص٢٤٤، الحسيني، زبدة التواريخ ، ص ١٤٣ - ١٤٤، زكار ، ص ٢١٦.
(٤٦) التدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٢٦٥.
(٤٧) زكار ،ص ٢١٦.
(٤٨) العظيمي ، تاريخ ، ص ٢٣٦، ابن القلانسي ص ١٩٨ ، الغزي ص ٧٧ .
(٤٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠،ص ٤٠٨. ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ص٤٦٧-٤٦٨.
(٥٠) التدمري ص٢٦٥. عبد العزيز سالم ،طرابلس الشام ص ٧١.
(٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٢، الدواداري ، ص٤٣١-٤٣٢ . سالم ، ص٧٢.
(٥٢) العظيمي ، ص ٢٥٥ . ابن القلانسي ،ص١٩٨، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢،ص٤٦٧-٤٦٨، الدواداري ص ٤١٣ ، الجندي ،تاريخ المعرة ، ص ١٤٢.
(٥٣) العظيمي ، ص ٢٥٥ . ابن القلانسي ،ص١٩٨ . ابن العديم ، المصدر السابق والصفحة. الدواداري ، المصدر السابق والصفحة ، الجندي، المصدر السابق والصفحة .

(٥٤) ابن الاثير، الكامـل ، ج١٠ ، ص ١٩٩ ،بيشوف ، ص ٤٦.
(٥٥) زكار ،ص٢٢٠.
(٥٦) ابن الاثير ، المصدر السابق، ج١٠، ص٢١٧.
(٥٧) العظيمي ، ص ٣٥٦، ابن الاثير ، المصدرالسابق ، ج ١٠، ص ٢١٩ .
(٥٨) ابن القلانسي ، ص٢٠٠-٢٠١ .
(٥٩) ابن الاثير ، المصدر السابق ،ج١٠ ص ٢١٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ١٣٧ .
(٦٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٤٧٠-٤٧١.
(٦١) ابن الاثير ، الباهر ، ص٨.
(٦٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ص٢٢٠.
(٦٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ص ٢٢١.
(٦٤) ابن الاثير الكامل ، ج١٠ ص ٢٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج٢ ص ٤٧١-٤٧٢، مختار باشا ، التوفيقات الالهامية ، تحقيق محمد عمار، المؤسسة العربية للدراسـات والنشر ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ج١ ص ٥١٨.
(٦٥) ابن الجوزي ، ج٩ ص ٢٩ . ابن الاثير ، الكامل ج١ ص٢٢١ ،الباهر ، ص١٢ ، ابن العديم ، المصدر السـابق ، ج٢ص ٤٧١-٤٧٢ .الدواداري ، ص ٣٢. ابن كثير، ج١٢ص٤٤ ١. الغزي، ج٣ص٧٧. بيتشوف ص ٤٧. مختار باشا،المصدر السابق ، ج١ص٥١٨ .
(٦٦) العظيمي ص ٣٥٦ .يقول ان آق سنقر هو الذي فتح نصيبين بالسيف. ابن القلانسي ،ص٢٠١، ابن الاثير ، الكامل ،ج١٠ ص ٢٢٠، الباهرص ١٢ ، الدواداري ، ص ٣٢، الذهبي ،العبر ، ج٣ ص٣١٠ ، دول الاسلام ، ج٢ص ١٤. بيشوف ص ٤٦.
(٦٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٠.
(٦٨) ابن القلانسي ، ص٢٠٢-٢٠٣ . ابن الجوزي، ج٩ ص ٢٩. ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص٢٢١. ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ص٤٧٢. الذهبي ، دول الاسلام ج٢ ص١٤ ، ابن كثير ، ج١٢ ص ١٤٤ . ابن تغري بردي، ج٥ص١٣٧ . بيشوف ص ٤٧. زكار ص ٢٢٣، العاضيدي ، دولـة بني عقيل ص ١٣٩.
(٦٩) ابن القلانسي ، ص ٢٠٢ . ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٢، الباهر ص ١٢ .ابن كثير، ج١٢ ص ١٤٤. الغزي ، ج٣ ص٧٧. بيشوف ص٤٧ .العاضيدي ص ١٤٠ .زكار ص ٢٢٣.
(٧٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٢. الفارقي، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣. ابن كثير ، ج ١٢ص ١٤٤. الذهبي ، دول الاسلام ج٢ ،ص٢٠ .
(٧١) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٢ . ابن الجوزي ،ج٩ ص٢٩ . الذهبي، دول الاسلام ج٢ ص ٢٩، مختار باشا ، ج١ ص٥١٨.
(٧٢) ابن القلانسي ، ص٢٠٠ ابن الاثير، الكامل،ج١٠ ص ٢١٤ - ٢١٥ ، ٢٢٢.
(٧٣) العظيمي ص ٣٥٦ ، ابن القلانسي ص ٢٠٣، ابن الجوزي ج٨ ، ص٢٩، ابن الاثير، الكامل ج١٠ ص٢٢٢، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ص٤٧٢ ، الدواداري ص ٣٣.
(٧٤) الذهبي ، دول الاسلام، ج٢ ص١٤. العبر،ج٣ص ٣١٠-٣١١. ابن كثير ، ج١٢ ص ١٤٤-١٤٥، الفارقي ص ٢٤٣ . ابن العميد ، المصـدرالسابق ، ص ١٧٤، الغزي ص ٧٨، زكار ص ٢٢٤.
(٧٥) انظر ما سبق .
(٧٦) ابن القلانسي ص ٢٠٤.
(٧٧) ابن القلانسي ص ٢٠٣ ، بيتشوف ص٤٧.
(٧٨) العظيمي ص ٣٥٦ . ابن القلانسي ص٢٠٤،زكار ص ٢٢٥.
(٧٩) العظيمي ص٣٥٧. مختار باشا ، ج١ ص٥١٩ . زكار ص ٢٢٤ .

(٨٠) العظيمي ص ٣٥٦ . ابن القلانسي ص٢٠٤ .

(٨١) ابن القلانسي ، ج١٠ ص ٢٠٢.

(٨٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٣٢.

(٨٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥.ابن الجوزي، مخطوط احمد الثالث رقم ٢٩٠٧ . الذهبي ،دول الاسلام ، ج٢ ص ١٢ . بيتشوف ، ص ٤٧.

(٨٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٥ . ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٧٢؟ ، يقدر عدد جيش آق سنقر بستة آلاف فارس وراجل. الذهبي ، دول الاسلام ، ج٢ ص ١٢. ابن الجوزي، مخطوطة احمد الثالث رقم ٢٩٠٧س .

(٨٥) ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ ، يجعل التقاء الجيش على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان. ابو الفداء ج١ ص ٢١٢-٢١٣.

(٨٦) ابن القلانسي ص ٢٠٥.

(٨٧) العظيمي ، ص ٥٧ ٣. ابن القلانسي ص٢٠٦-٢٠٧ . ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص٤٧٦. ابن كثير، ج١٢ ص ١٤٤-١٤٥ . الغزي،ج٣ص ٧٧.

(٨٨) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٥، بيتشوف ص٢٧ ، ويقول انه عندما اقتتلوا تحاصر بعض عسكر آق سنقر وسار مع تتش .

(٨٩) ابن القلانسي ص ٢٠٨ .ابن الاثير، الكامل،ج١٠، ص ٢٣٢، الباهر ص١٥ . ابن العديم ، المصدر السابق ، ج٢ ص ٤٧٦ . ابو الفداءج١ ص ٢١٤-٢١٥ . الذهبي ، دول الاسلام ، ج٢، ص٢١٦ ، العبر ، ج٣ ص ٣١٤ - ٣١٥ .ابن تغري بردي ، ج٥ ص ١٤١ . الفارقي ص ٢٢٤. ابن العماد ج٣ ص ٣٨٠. زكار ص ٢٢٧ .

(٩٠) ابن القلانسي ، ص ٢٠٨ . زكار ص٢٢٧.

الإقطاع العسكري في العهد الأيوبي

أمين أبو دمعة

مرشح للماجستير

القدمــــة :

من المعلوم ان العرب خرجوا للفتوح تحت راية الاســلام . فاحدثت هذه تبدلات كبيرة في حياتهم ، وتمثلت هذه التبدلات في كافة النواحي وبخاصة الاقتصادية منها ، وقد ادرك العرب المسلمون اهمية الارض فاتجهوا الى الملكية الزراعية واستحواذ الارض الموات . كذلك كانت الفتوح عاملا هامــا في القضاء علــى الاقطــاع القديم في البــلاد المفتوحة ، في بلاد الشام وغيرها .

واعتبرت الارض التي كانت تحت الحكم البيزنطي ملكا للامة تعود لبيت المال . يتصرف بها الخليفة حسب تقديره وعوملت ، عمومــا ، معاملة الاراضي الخراجية . الا ما اقتطع بالتمليك للعرب فتدفع العشر . ويبدو أن الملكيات الزراعية الكبيرة كثرت لدى المسلمين في اواخر أيام الامويين وصارت اقرب الى نوع مــن الاقطاع الزراعــي . وتحددت الارض في زمن العباسيين بثلاثة اصناف : الصنــف الاول : ارض الصــوافي وتعود ملكيتها لبيت المــال وللخليفة ان يتصرف بها عــن طريق الهبــة او الاقطــاع أو الاستغلال . والصنف الثاني : اراضي الخراج أو جل اراضي البــلاد المفتوحة وتزرع مقابل دفع الخراج عنها ، اما الصنف الثالث م نالارض فهي الموات التي تستصلح ، وقد اعتبرت عشرية ، اي انها ملك خالص لمــن يستصلحها . وكانت هذه هي البــذور الاولى للاقطاع الذي تطور مع الزمــن . وبتسلط الاعاجم على الدولة والخلافة وفقدان الخليفة لهيبته ، توسع الو الامر في اقطاع الاراضي فنشــا نوع جديد من الاقطاع لــه وجهــان ، مدني وعســكري .

فالاقطاع الذي هو أن يقطع السلطان أرضا لشخص ما فتصير رقبتها له(١) اي تصبح ملكا لصاحب الاقطاع . او بتعبير آخر هو تقسيم الاراضي الزراعية أقساما او اقطاعات يختص السلطان نفسه بنسبة منها ويمنح البقية لامرائه ، والمقطع يستغل اقطاعه لفائدته(٢) . وكان لهذا الاقطاع في الدولة الاسلامية معنيان ، الاول منح الاراضي

التي لا مالك لها مقابل الخراج أو العشور(٣) . والثاني : منح غلة الارض مقابل اعطاء شيء أو ضمانة لبيت المال ، وعليه فالاقطاع قد يكون اقطاع اقليم بكامله . نظير ضريبة تدفع ، أو اقطاع جزء من الارض مقابل العشر او الخراج ، أو توزيع دخل قطعة من الارض كأجر أو معاش(٤) .

وقد أورد الماوردي(٥) في كتابه الاحكام السلطانية فصلا خاصا للاقطاع وأصنافه من حيث ما يصيبها من الحقوق ، فجعلها في صنفين : اقطاع تمليك، واقطاع استغلال، وعرف الاقطاع المدني بقوله : « ان تكون لصاحبه ملكية تامة وقد تكون وراثية أيضا، وعلى صاحبه دفع العشر .ويعطى من الارض الموات لاحيائها ،أو من أرض توفي صاحبها دون وارث » .

ولا بد هنا من التفريق بين كلمتي القطيعة والاقطاع ، فهما من نفس الاشتقاق ولكنهما يختلفان في الدلالة . فالقطيعة بمعناها الاساسي : أرض تقتطعها الدولة من املاكها وتمنحها دونما تحديد للمدة في غالب الاحيان الى رجل مسلم يمارس فيها عمليا جميع امتيازات المالك ولكنه يتحمل أيضا جميع أعباء المالك المسلم . أي ان له فيها حقوق المالك ، وليس له فيها أي حق من حقوق السيادة ، وهو ملزم باستثمار الارض أو احياء الارض الموات والا نزعت منه الارض ومنحت لمنتفع آخر يحسن استثمارها(٦).

وكان الهدف من الاقطاع في صدر الاسلام التعمير والاسكان(٧) ويرجع لعهد رسول الله (ص) فقد روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه بسنده الى ابن سيرين عن تميم الداري انه قال : « استقطعت رسول الله (ص) أرضا بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها ، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه ، فأتيته فقلت : « ان رسول الله (ص) اعطاني أرضا من كذا والى كذا. فجعل عمر ثلثها لابن السبيل وثلثا لعمارتها وثلثا لنا(٨). وقال ابو يوسف(٩) أقطع الرسول أقواما ، وأقطع الخلفاء من بعده ، من رأوا في اقطاعه صلاحا لعمارة الارض ونفعا للمسلمين » .

ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب رفض اقطاع السواد من أرض العراق واستطاب نفوس الفاتحين علاجا لما قد يطرأ على المجتمع الاسلامي من ازدياد السكان ، وتجنبا لما قد يؤديه التقسيم الاقطاعي من بذر بذور التفرقة ، فضلا عن الفوارق الطبقية، ومما قاله بهذا الصدد أخاف ان قسمته ان تتفاسدوا بينكم في الحياة(١٠) . ويقصد بذلك الفتن والحروب . وكذلك رفض علي بن أبي طالب اقطاع الارض لاسباب اوضحها قائلا : « لولا ان يضرب بعضكم رقاب بعض لقسمت السواد بينكم »(١١). واقطع عثمان ابن عفان أرض السواد اقطاع اجارة لا اقطاع تمليك(١٢) ولعل عثمان توسع أكثر من غيره في منح الاقطاعات .

ومنذ الايام الاولى لمعاوية بن ابي سفيان اقدم على اقطاع اناس من قريش وأشراف العرب من أرض الصوافي(١٣). وبعد أن نفذت هذه الاراضي أخذ معاوية ومن جاء بعده

من الخلفاء الامويين يقطعون من أرض الخراج ، واستمر ذلك في الدور الاول للحكم العباسي ثم بدأ ظهور نظام اقطاعي جديد هو :

الاقطاع العسكري : وقد اعتبر مصدر دخل سنوي للامير او الجندي تبعا لرتبته العسكرية وبلائه في الحرب(١٤) . ولذلك اعتبرت الخدمة العسكرية الاساس الاولى في الحصول على الاقطاع(١٥) ويدخل في نطاقها اعمال حفظ الامن في الداخل والخارج(١٦). ويحصل على الاقطاع من السلطان وديوان الجيش(١٧) . فمنذ عهد المعتصم الخليفة العباسي ٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م أخذ الاعتماد على الجند المرتزقة الذين كان يغلب عليهم العنصر التركي ، حتى كان عهد المستكفي ٣٣٤هـ/٩٤٤م الذي خلع بعد استيلاء معز الدولة البويهي بأربعين يوما(١٨) . فانفرد هذا بالسلطة واقطع قواده وخواصه من الاتراك ضياع السلطان وضياع الفارين والمستترين (١٩) ، وغيرها . وهذه الاقطاعات لم تكن وراثية كما أنها لا تدوم مدى الحياة ولا تعد تمليكا لصاحبها . لان الامير البويهي احتفظ بحق الغائها متى أراد(٢٠) ، وانما تمنح ليعوض واردها عن الراتب الذي لا تستطيع الخزينة المركزية البويهية المرتبكة دفعه ، فكان يصحب المنح اتفاق يفرض على صاحب الاقطاع دفع كمية من النقود او ما يعادلها من الغلة مع تسهيلات ، كأن يتم الدفع على اقساط(٢١) وكان عليه العناية بالقنوات المارة بأرضه ، وان تكون للادارة المركزية سلطة داخل الاقطاع . ولكن الاقطاعين من الجند لم يتقيدوا بهذه الشروط وتصرفوا حسب اهوائهم (٢٢) .

ومع انتقال السلطة الى السلاجقة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ظل الاقطاع محافظا على طابعه السابق(٢٣) . ويبدو ان ما قام به البويهيون أدى الى خراب البلاد ، مما حدا بنظام الملك الفارسي وزير ألب ارسلان ٤٥٧-٤٦٥هـ/١٠٦٥-١٠٧٢م أن يعالج الامر كما تراءى له(٢٤) اذ جعل الاقطاع الحربي عاما في الدولة السلجوقية(٢٥) . ففرق البلاد على الاجناد اقطاعا كل قدر طاقته وجعل واردها لهم على أن يقدم المقطع عددا من الجنود للجيش السلطاني . كما حرص على عدم تركيز الاقطاع في جهة واحدة(٢٦) خيفة الاستقلال والثورة . واشار المقريزي الى ذلك « .. وذلك ان مملكته اتسعت فرأى أن يسلم كل مقطع قرية او اكثر على قدر طاقته»(٢٧) . وفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م ابقى نور الدين اولاد الجندي المتوفى على اقطاع أبيهم ، فان لم يكن له ولد جعله لبعض أهله للمحافظة على تعداد العسكريين . وصار ذلك مبدأ . فاذا توفي احد الجنود وخلف ولدا ذكرا اقر السلطان اقطاعه عليه ، فان كان الولد كبيرا تولى اقطاعه وواجباته بنفسه ، وان كان صغيرا رتب السلطان معه رجلا وصيا يتولى امره حتى يكبر ». وصار الاجناد يقولون : « هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها(٢٨)»،ومن المعروف ان الدولة النورية كانت دولة عسكرية جهادية ضمن الدولة السلجوقية الكبرى ، اي انها قامت على نظام اقطاعي حربي جانح الى الوراثة في بعض الاحيان ،

وشهد ابناء البيت الايوبي ذلك كله ، وتربوا فيه وعاشوا في مدارجه ثم تولى صلاح الدين شحنة دمشق . وتملك اقطاعات مناسبة كما ذكر ابو شامة(٢٩) . ومن المعروف ايضا أن الدولة الفاطمية عمرت اكثر من قرنين من الزمان ، وكانت القاهرة مركز هذه الدولة ممتلئة بدور الحكومة ذات الانظمة المعقدة والتقاليد الطويلة المبنية على خبرة واسعة . وشهد ابناء البيت الايوبي ومارسوا تلك النظم وبخاصة صلاح الدين الذي تولى الوزارة فيها لاكثر من سنتين .

ولما انفرد صلاح الدين بالحكم عدل بعضا منها ، وفي هذا المعنى قال المقريزي: « ولما انقضت دولة الفاطميين ، واستولى صلاح الدين يوسف بن ايوب على مملكة مصر تغير الحال بعض التغيير لا كله »(٣٠) . ولذلك فان اقامة صلاح الدين للنظام الاقطاعي لم يكن خروجا عن النظام الاجتماعي القائم . غير ان اعتلاءه العرش اعطى هذا التطور دفعة قوية الى الامام .

الاقطاع العسكري في العصر الايوبي :

الجيش الايوبي : تكونت النواة الاولى للجيش الايوبي بمصر من القوات التي اصطحبها اسد الدين شيركوه في حملته الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩ م وعدتها خمسمائة فارس من الاكراد والمماليك ، وهم المعروفون باسم « الاسدية » وستة الاف فارس من القبائل التركمانية بأمرة عين الدولة الياروقي(٣١) فضلا عن عدد غير معروف من الجند(٣٢) .

ولما تقلد صلاح الدين الوزارة المصرية ٢٥ جمادى الاخرة ٥٦٤هـ/ ٢٣ اذار ١١٦٩م انسحب التركمان وعدد من الامراء الاتراك ورجعوا الى الشام(٣٣) بمن معهم من الفرسان لان اختيار صلاح الدين للوزارة من دونهم اساءهم وحز في نفوسهم ، فاضطر لاحاطة نفسه بطائفة من المماليك الخاصة بقيادة الامير ابي الهيجاء(٣٤) اطلق عليهم اسم « الصلاحية » (٣٥) . ومن الطبيعي ان يتخذ صلاح الدين من هاتين الطائفتين (الاسدية والصلاحية) نواة جيشه وان يخصهم بانعامه لانهم عماد قوته ، فشرع باسترجاع اقطاع الجند الفاطميين واستطاع بفترة وجيزة ان يكون قوة كبيرة كادت تستنفذ موارد مصر .

في الحملة الاولى على الشام والاستيلاء على دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥-١١٧٦م كان عدد فرسان صلاح الدين ستة الاف فارس بمن فيهم عسكر دمشق وخواصه من الصلاحية(٣٦) وكان عدد الجيش المصري لا يزيد على اربعة الاف مقاتل(٣٧) . وقبل المسير الى حطين كان تعداد جيش صلاح الدين اثني عشر الف مقاتل . الف من اجناد الحلقة . واربعة آلاف من العساكر المصرية والف من عساكر دمشق والف من حلب

وخمسة الاف من الجزيرة والموصل وديار بكر . ولسد نفقات هذا الجيش لم يكن امام صلاح الدين خيار الا اتباع نظام الاقطاع العسكري الذي استوحاه من الانظمة السلجوقية . وادخل عليه بعض التعديلات التي اقتضتها الظروف المستجدة في ايامه، من حيث الادارة والنظم المالية وغيرها ، فتحددت الضرائب والرسوم ، ونظمت الواردات والنفقات وخصصت لها الدواوين والموظفين . ويقول الدكتور سهيل زكار : « وعندما يتفحص المرء دولة صلاح الدين في أواخر ايامه يجدها قد اصبحت اشبه بامبراطورية تضم عددا من الدول يربطها بالسلطان نظام الاقطاع العسكري. هذا النظام الذي تطور ايام السلاجقة وادخلت عليه تعديلات كبيرة وقد ورث صلاح الدين هذا النظام »(٣٨) وترجع اهمية عصر صلاح الدين لموضوعنا الى أنه العصر الذي تأسست فيه قواعد النظم الايوبية ، الادارية والمالية والاقطاعية .

اسس حيازة الاقطاع :

اتبع صلاح الدين نهج سيده نور الدين محمود بن زنكي الذي كانت له نظرته الخاصة الى الاقطاع . يقول زنكي : « اذا كانت البلاد لنا فاي حاجة بكم الى الاملاك؟ فان الاقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها. ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها املاكها »(٣٩). وذكرت الاخبار ان العادل اخا صلاح الدين طلب ذات مرة ان يملكه اخوه صلاح الدين نواحي حلب ويكتب له بها كتابا كأنه بيع وشراء ، فامتنع صلاح الدين وقال : « انما تكون اقطاعا والبلاد لاهلها والمرابطين فيها ونحن خزنة المسلمين دعاة الدين(٤٠) .

وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم املاك دولته بين ابنائه واهل بيته جعل التقسيم على اسس اقطاعية(٤١) وكذلك حصر الملك العادل ابو بكر اخو صلاح الدين الاقطاعات في اولاده ، وغدت البلاد المصرية كلها اقطاعات عسكرية . يذكر المقريزي : « ومنذ كانت ايام صلاح الدين الى يومنا هذا (ايام المقريزي ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) فان اراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » وبالقياس فان اراضي الشام ايضا اصبحت كلها اقطاعات . ومن هذه الاقطاعات ما هو خاص بأفراد البيت الايوبي من امراء وموظفين وكتاب ويقتصر على وحدة اقليمية ادارية(٤٢) كدمشق وحلب وحمص وحماة وبعلبك والكرك والشوبك ، واقاليم الجزيرة وديار بكر وغيرها ، وتسمى بالاقطاع الاداري ، ومنها ما اقترن بخدمات حربية يؤديها المقطع ، وبخضوعه للحكومة المركزية ، ولم تكن وراثية ومن النادر ان تعطى مدى الحياة وتسمى اقطاعات حربية(٤٢). ومنها ما يعطى نظير تأدية خدمات تتعلق بالامن الخارجي والداخلي واعمال القتال مثل التعبئة العامة والتنظيم والتأمين واستمالة المجاورين وتثبيط الاعداء وخداعهم قبل المسير للحرب ، وتسمى اقطاعات شخصية(٤٢) .

افاد صلاح الدين من كل قوة تخدم دولته فقرب الامراء الذين خضعوا له وساعدوه في فتوحاته فأقطعهم ، كما اقر كثيرا من الامراء النورية على ما بأيديهم وزادهم اقطاعات جديدة لانحيازهم له منذ ٥٦٧هـ/١١٧١ م ومساعدتهم في فتوحه زمن توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين(٤٥) . وقد سار خلفاء صلاح الدين على سنته في التوزيع الاقطاعي الحربي ولم يكن لديهم مايحول دون منح الاقطاع لامير مغامر أجنبي عن البلاد طرأ على الدولة وطلب الدخول في خدمتها ما دام يؤدي الخدمة الحربية وهناك نسخة توقيع لامير من هذا النوع ليس فيها ما يدل الا على اهمية الجهاد الحربي(٤٦).

توزيع الاقطاعات :

بدأ صلاح الدين بتوزيع الاقطاعات مذ كان نائبا عن سيده نور الدين في الديار المصرية . فقد استقدم والده نجم الدين ايوب من دمشق(٤٧) فأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة وذلك في سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠ م وقدر دخلها بـ (٤٠٠) الف دينار(٤٨) وفي الوقت نفسه اقطع أخاه شمس الدولة محمد تورانشاه ، الذي نشأ في كفالته وكنفه قوص واسوان وعيذاب(٤٩) . وتقع جنوب الصعيد ، ثم اضيفت اليه بوش ودخلها مع ملحقاتها ٧٠ ألف دينار والجيزة وسمنود ودخلها ٦٠ الف دينار ، واعتمد عليه في فتوح اليمن والنوبة وليبيا وأطلق يده في اقطاع ما يفتح من البلاد لمن يشاء من امرائه وخواصه (٥٠) .

ولما حضر الى مصر ابن اخيه تقي الدين عمر بعساكره وعدتهم خمسمائة جندي في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م ، اقطعهم اقليم البحيرة لسد نفقاتهم(٥١) ، وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م تفرقت كلمة الامراء النوريين في الشام ، فاستولى صلاح الدين على دمشق ثم زحف على حمص فضمها اليه واقطعها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، بالاضافة الى اقطاع الرحبة الذي كان بيده(٥٢). وبعد الاستيلاء على حماه اقطعها لخاله شهاب الدين محمود الحارمي(٥٣) ، وبقي عليها حتى وفاته فتسلمها من بعده الامير ناصر الدين منكورس ابن الامير خمارتكين صاحب حصن ابي قبيس ومتولي عسكره(٥٤) .وفي سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م اقطعت لتقي الدين عمر الذي جند العساكر وأعد العدة لمواجهة اي خطر صليبي ، ولما حضر الى الشام أخوه تورانشاه قادما من اليمن طلب من أخيه صلاح الدين في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ان يقطعه بعلبك، فأمر صلاح الدين صاحبها ابن المقدم ان ينزل عنها فابى فأرسل اليه قوة ارغمته على التنازل فاشترط التعويض عنها فأجابه صلاح الدين وتسلم تورانشاه بعلبك(٥٥) وفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م كلف تورانشاه بالذهاب الى الاسكندرية بمهمة فحل مكانه عز الدين فروخشاه ابن اخ صلاح الدين . ولبث في اقطاعه حتى وفاته سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢م فعين صلاح الدين ابنه الامجد بهرامشاه مكانه واستمر حتى وفاته ٦٢٧هـ/١٢٣٠م اي قرابة خمسين سنة(٥٦) . وفي عام ٥٨١هـ/١١٨٥ م وبعد وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه . اقر صلاح الدين ابنه على جميع اقطاعات ابيه .

وفي سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م اقطع صلاح الدين دمشق لابنه الافضل علي(٥٧) وفي نفس السنة استرد صلاح الدين حلب من اخيه العادل ابي بكر وعوضه عنها حران وميا فارقين ، ثم طلب منه التنازل عن كل اقطاعاته في الشام ما عدا الكرك والشوبك والبلقاء ، وعوضه عن ذلك باقطاعه البلاد الشرقية(٥٨). (الجزيرة واطراف دجلة)، واعطى ابنه الملك الظاهر غازي حلب بعد ان استردها من أخيه العادل. وعقب انتصاره في حطين في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعث قوة بقيادة ابن اخته حسام الدين محمد بن عمر ابن لاشين الى نابلس التي اقطعت له بعد طرد الصليبيين منها. وقد ترسم الملك العادل خطوات اخيه صلاح الدين حين انفرد بالامر في بلاد الشام ومصر فأقطع أولاده دون غيرهم ، فأعطى الاشرف بلاد ماردين في سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥ ، وخص ابنه الكامل بأعمال المقاطعات الشرقية التي كانت له ايام أخيه صلاح الدين واقطع ابنه المعظم عيسى قلعة صرخد(٥٩) كما نهج أبناء العادل نهج ابيهم فاقطعوا الاقطاعات لماليكهم وخواصهم .

واعتمد صلاح الدين وخلفاؤه من السلاطين الايوبيين على عدد من القادة العسكريين الذين أسهموا في توطيد الحكم الايوبي في مصر والشام . وابلوا في قتال الفرنج الصليبيين بلاء حسنا فاستحقوا تقديرهم فأغدقوا عليهم الاموال واقطعوهم الارضين والضياع وحاولوا كسبهم الى جانبهم في كل الاوقات خشية ازدياد نفوذهم وثورتهم ، وبالتالي انفصالهم عن السلطة المركزية واستقلالهم . فعين صلاح الدين شمس الدين بن المقدم اميرا على دمشق ثم اقطعه بعرين وكفر طاب وحصن رعبان كما أقطعه بعلبك ، ثم اخذها منه(٦٠) . وأقطع صلاح الدين الامير حسام الدين ابا الهيجاء السمين مقدم الاكراد الاسدية نصيبين بعد فتحها في سنة ٢٧٨هـ/١١٨٢م وكذلك اقطع الامير بدر الدين دلدروم بن بهاء الدين ياروق ، تل باشر . والامير ناصر الدين بن كورس صهيون وحصن برزية ، والامير سابق الدين عثمان بن الداية شيزر وأبا قبيس، والامير سيف الدين بن المشطوب مقدم الجيوش (علي بن احمد) نابلس والامير عز الدين اسامة كوكب وعجلون ، والامير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم بغراس وكفر طاب وفاميه(٦١) وفي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م منح صلاح الدين ديار بكر لمملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي(٦٢) . وقد ظل هؤلاء الامراء على اقطاعاتهم يمارسون حقوقهم ويؤدون واجباتهم حتى وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ/١١٩٣م . ومنح العزيز عثمان بن صلاح الدين الاقطاعات الكثيرة لقادة الجند والامراء الذين تفانوا في نصرته . فأقطع الامير فارس الدين ميمون القصري «نابلس» في سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م وكانت له صيدا قبل ان يقطع نابلس(٦٣) . وابقى الافضل علي بن صلاح الدين امراء الغرب(٦٤) على اقطاعاتهم نظرا لحاجته الى عونهم في صراعهم ضد أخيه العزيز عثمان .

وعمد أولاد الملك العادل الى توزيع ما بأيديهم من اقطاعات على امرائهم للابقاء على رابطة الولاء والطاعة وحفظ الامن داخل الاقطاع وخارجه ، والنصرة في الحرب الاهلية

الدائرة بين أفراد البيت الايوبي . وسعى كل واحد منهم لاحاطة نفسه بأكبر عدد ممكن من الامراء . وبعضهم وزع الاقطاعات في حياة أبيه ، ومنهم المعظم عيسى الذي وزع البلاد الشامية على مماليكه ، ولعل الدافع الى ذلك ما كان يراه من صراعات ومنازعات، فخشي ان تذهب البلاد من يده ويفقد اقطاعاته . وعندما توجه الملك العادل لقتال الصليبيين بعد نقض عهودهم في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م أنب ابنه وقال : بمن نقاتل ؟ اقطعت الشام مماليكك وتركت أولادنا؟ (٦٥) . ويبدو أن العادل قد احس بتعاظم نفوذهم وكثرة اقطاعاتهم ، وتقلص اعداد بني جلدته الكرد وضعف قوتهم وتضاؤل شأنهم وهذا في نظره امر خطير يحسب حسابه . وربما أصبح لهؤلاء المماليك شأن آخر في مستقبل الايام . وهذا ما حصل فعلا في أيام الملك الصالح أيوب حيث تعاظم نفوذ المماليك وازدادت أعدادهم وتهيأت لهم الظروف للوصول الى السلطنة . وفي عهده ايضا اقر امراء الغرب على اقطاعاتهم ففي سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م كتب كتابا للامير نجم الدين محمد بن حجي مدح فيه طاعته وحسن خدمته وامره أن يبقى على عهده القديم مع زيادة المخصصات له ولمن معه ، وان يجمع من الجند كل ما يقدر عليه(٦٦) . كما كتب في سنة ٦٤٧/١٢٤٩م بخطه توقيعا باسم زين الدين بن علي وهو احد امراء الغرب ايضا ، وفيه « أنه يجري له من الاقطاع في الناحية الغربية والجنوبية من جبل لبنان، وأن يجري على ما بيده من الاملاك المستمرة عليه وعلى والده من قبله »(٦٧) لوقوفهم الى جانبه في مواجهة الصليبيين . كما كتب الناصر يوسف بن العزيز محمد بن غازي بن صلاح الدين سلطان دمشق منشورا لاحد أمراء الغرب، وهو جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي. ويعود تاريخه الى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٣م(٦٨) .

ولم ينس صلاح الدين ما كان للزنكيين من فضل على أسرته منذ وصولهم الى الموصل ، وان حدث بعض الجفاء في اواخر ايام نور الدين . فان صلاح الدين لم يحمل حقدا ، ولم ينتقم الا من الذين حاولوا الايقاع به او كانوا حائلا بينه وبين تحقيق أهدافه في توحيد البلاد الاسلامية وجمع الكلمة ضد الغزاة الصليبيين . اما الذين أيدوه وخضعوا له واخلصوا في ملاقاة الصليبيين وحفظ الامن فقد اقطعهم الاقطاعات المناسبة . وعاملهم المعاملة اللائقة بهم ومن هؤلاء : الامير علم الدين سليمان بن جندر وهو من مشايخ الدولتين النورية ثم الايوبية بحلب ، اقطعه حصن دربساك بعدفتحها. وزاد عليها بلدة أعزاز في عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م(٦٩) واقر الامير عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود صاحب سنجار(٧٠) على مابيده حين خضع له سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م ثم اقر أخاه عز الدين مسعود على الموصل . وابقى معز الدين سنجرشاه بن غازي على الجزيرة(٧١) ، ولم يجد صلاح الدين غضاضة في أن يمنح الاقطاعات لبعض أعدائه ليأمن شرهم ويحقن دماء المسلمين . فهذا صاحب حصن شقيف أرنون(٧٢) ، يقدم على صلاح الدين مستسلما سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م ويطلب مسكنا في دمشق لانه لا يستطيع أن يساكن الفرنج خشية الانتقام منه ، فيجيبه الى ذلك(٧٣) حماية لارواح

المسلمين . واقطع ايضا فرسان الداوية(٧٤) والاسبتارية(٧٥) بعض البلاد والقرى للسبب نفسه .

ادارة الاقطاع :

كان مركز توزيع الاقطاعات وترتيبها وتعبيرها (تحديد دخلها) ديوان الاقطاع « ديوان الجيش » سواء في ذلك الاجناد السلطانية او الامراء واجنادهم ويذكر ابن الفرات(٧٦) : «انه لا يعمل فيه الا ما يقطع للاجناد»،وقام الديوان باثبات اسماء اصحاب الاقطاعات وجميع افراد الجيش في سجلات خاصة تسمى جرائد«الجرائد الجيشية»(٧٧). واشهر موظفي هذا الديوان : الناظر ، ومتولي الديوان والماسح والخازن والكاتب والمستوفي وغيرهم .

واتصفت الدولة الايوبية بازدواج الادارة ، اذ وجد جهاز مركزي كبير في العاصمة الايوبية ، واجهزة اقطاعية محلية صغيرة بمختلف الاقاليم (٧٨) . وكان أول أعمال الموظفين بهذا الديوان اثبات أرباب الاقطاعات على اختلاف طبقاتهم وجميع افراد الجيش السلطاني ، وجيوش الامراء وابتداء امرتهم حسب السنين القمرية وعمن انتقل اليه الاقطاع ، وعدد الجنود الذين يجمعهم الاقطاع وأمام كل اسم دخل اقطاعه رمزا لا تصريحا(٧٩) واثبات كل اقليم من الاقاليم واقطاعاته وما بها من ضياع ومزارع ومعالم وخصائص ، والدخل المالي للاقليم وقيمة المتحصل منه ويتم ذلك في جريدة خاصة . كما تثبت اسماء الجند الذين يتقاضون رواتبهم نقدا او غلة لا اقطاعا في صحيفة اخرى. وقام الديوان بالصرف على العمائر ذات الطابع الدفاعي، كما اختص بالصرف على شؤون القوات البحرية والبرية وملحقاتها الدفاعية . واختص ديوان الاسطول بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن وجند وبحارة واسلحة ومؤن بالاضافة الى دور الصناعة .

وبهذا استطاعت الدولة الايوبية ترسيخ قواعد النظام الاقطاعي العسكري في البلاد ، وقلدتها من بعد الدولة المملوكية والدولة العثمانية .

وقد توخى صلاح الدين من تطبيق النظام الاقطاعي العسكري اقامة العدل ، وازاحة العسف والجور ولذلك تشدد أبناء البيت الايوبي في الاشراف على المقطعين وسعوا الى الحد من ظلم الفلاحين ورفع العسف عنهم ، مما حمل هؤلاء الى التمسك بالارض(٨٠) . كما حددت الدولة الايجارات والرسوم التي يدفعها الفلاح لسيده الاقطاعي .وقد نصت التوقيعات السلطانية على المقطعين باتباع العدل والامر بالمعروف، وعدم قبول الرشوة من الناس والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن ادارته(٨١) والتزام الفلاحين القيام بالاعمال المطلوبة منهم خير قيام ، من حراثة الارض وزراعتها وسقيها

وتعهد المزروعات وجمع الغلال والمحاصيل في مواسمها وحسن تخزينها ، وأن تسود المحبة والتفاهم مع سادتهم . وامعانا في تعميم العدالة الاجتماعية وضمانا لحقوق المقطعين والمقطمين على حد سواء ، وهذه ميزة انفرد فيها النظام الاقطاعي العسكري في العصر الايوبي عن الانظمة التي سبقته .

ارتأى صلاح الدين اعادة توزيع الاقطاعات وتحديد مساحاتها ودخولها بما يتلاءم مع الاوضاع الاقتصادية المستجدة وحسب الظروف الانتاجية في بعض السنين نتيجة العوامل الجوية من خصب او جفاف ، أو حسب الاوضاع السياسية والعسكرية .

ففي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١ احتاج صلاح الدين الى اعادة النظر في التوزيع الاقطاعي العام ، وقام بتلك العملية قياما وصفه القاضي الفاضل في متجدداته لشهر رجب من تلك السنة بقوله « استمر انتصاب السلطان صلاح الدين في هذه السنة في أمور الاقطاعات ومعرفة عبرها (دخولها) والنقص منها والزيادة واثبات المحروم وزيادة المشكور(٨٢) وكانت هناك عدة عوامل موجبة لاعادة النظر في التوزيع الاقطاعي العام ، منها ماهو مالي واجتماعي ، كأن يتظلم الامراء والمقطعون من تراكم الخراج عليهم وعجزهم عن الدفع او يتذمر الفلاحون من تعنت الامراء معهم وكثرة المغارم التي يخضعون لها(٨٣) . ومنها ما هو سياسي كاقطاع الموالين وحرمان المناوئين(٨٤) والاهم من كل ذلك الجانب الاقتصادي حيث يرى السلطان ضرورة اعادة النظر فيما طرأ على الارض من اصلاح أو عمارة أو اهمال لانقاص الخراج او زيادته حسبما يقتضيه الوضع الذي آلت اليه ، كأن تجرى تحسينات على وسائل الري مما يستدعي زيادة الجباية أو ان تكون الارض نقصت كفايتها بسبب ضعف المقطعين وكبر سنهم وعجزهم عن القيام بما يتطلبه استثمارها من جهد وعناية أو بسبب قلة الايدي العاملة في أعقاب حرب أو وباء او فتنة(٨٥) من أجل ذلك اتخذ الروك الصلاحي(٨٦) في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م.

ويظهر ان صلاح الدين راى ضرورة تكرار عملية اعادة النظر في التوزيع الاقطاعي. وهذا ما اشار اليه العماد الاصفهاني في حوادث سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م قال : « وشرع السلطان في اقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد »(٨٧) .

وعلى الرغم من الشدة التي اتبعها صلاح الدين وبعض افراد البيت الايوبي لحماية الفلاحين وضمان حقوقهم ، فان هؤلاء كانوا يعانون من الظلم الاجتماعي الذي يلحقهم من المقطعين لان النفس البشرية أمارة بالسوء ، والجشع المادي لا حدود له .

وكان الخارجون على القوانين الاقطاعية يلقون العقاب الذي يتناسب وحجم الظلم الذي الحقوه بغيرهم وربما ادى ذلك الى حرمانهم من اقطاعاتهم . ودليل ذلك ما قام به صلاح الدين في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م فقد سحب اقطاعات جماعة من الاكراد لانهم

سببوا هزيمة الجيش الصلاحي في وقعة الرملة عند تل الصافية امام جيش الصليبيين بقيادة ارناط صاحب الكرك(٨٨) . كما ان كشف مظالم الناس ورفع الحيف عنهم خير ما يتقرب به الى الله . وجرى ذلك على لسان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الرسالة التي وجهها الى صلاح الدين ليثنيه فيها عن عزمه على أداء فريضة الحج. قال:« يا مولانا !مظالم الخلق كشفها اهم ما يتقرب به الى الله تعالى.وما هي بواحدة في اعمال دمشق من المظالم ، من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، ومن تسلط المقطعين على المقطمين ما لا ينادى وهجه في وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف يقطر دما لا أجر له . وللمسلمين ثغور ، تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات اقامة وجوه بحسبها فمن المستحق نفقة من غير حاصل وفرع من غير أصل(٨٩).

وبذل السلطان الكامل جهودا كبيرة لزيادة الانتاج، واشرف بنفسه على صيانة السدود، وفرض الواجبات على أمرائه وعاقبهم في حال اهمالهم(٩٠) .

ولهذا جدت الدولة في حماية الفلاحين من أسيادهم الاقطاعيين ماديا ومعنويا ، كما حدّت من ثراء هؤلاء على حساب الاخرين(٩١) .

خصائص النظام الاقطاعي في العصر الايوبي :

من خصائص النظام الاقطاعي الايوبي انه يجيز انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر(٩٢)، ووضعت لذلك أصول التسليم والاستلام . وأوضح ابن مماتي(٩٣) ذلك فيما أورده عن انتقال الاقطاع فقال : « اذ جرت العادة انه عند انتقال الاقطاع المزروع بقصب السكر من مقطع الى اخر اقتضى العرف الاقطاعي لاخلاء الارض ان يروى المقطع القديم قصبه ويخلي الارض في مواعيد معينة. اما اذا لم يرو المقطع القديم أرضه وسقاها المقطع الجديد كان المحصول له ». ويضيف قائلا : « وجرى العرف الاقطاعي ايضا انه عند انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر لا ينقل المقطع القديم معه شيئا من الاتبان بل يبقيه للمقطع الجديد ضمانا لتغذية ماشيته » . ومن دواعي انتقال الاقطاعات :

- موت سلطان وولاية سلطان جديد فيعمد الى تقريب العناصر الموالية وابعاد غيرهم .
- سوء العلاقة بين السلطان والمقطع ، كأن يتأخر عن دفع الضرائب المقررة على الاقطاع مثلا .
- تقصير المقطع في الاهتمام باقطاعه اي اهمال الاقطاع من حيث الزراعة والري.
- تلكؤ بعض المقطعين عن اعداد القوات وارسالها في الوقت المناسب .

ومن المؤسف ان المصادر الميسرة لا تذكر شيئا عن تفاصيل ذلك بل تشير اليها اشارة عابرة ما عدا ما جاء بعد قيام الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بعد وفاة الملك

الصالح نجم الدين ايوب ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بتوزيع الاقطاعات بمناشير وتوقيعات صادرة منه تمهيدا لما كان معرفا عنه من الطموح الى السلطنة(٩٤) .

ومن خصائص النظام الاقطاعي الايوبي أيضا توريث الاقطاعات . وقد أشرنا سابقا الى ان نور الدين اقر ابناء الجندي المتوفى على اقطاعات ابيهم(٩٥) واكدت المصادر على أن صلاح الدين ترسم خطوات سيده وجعل بعض الاقطاعات وراثية(٩٦). ففي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ابقى صلاح الدين لشير كوه بن ناصر الدين محمد بن شير كوه وهو طفل في الثانية عشرة اقطاع حمص والرحبة(٩٧) وذلك بعد وفاة أبيه . وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م أعطى اقطاع شمس الدين بن المقدم لابنه عز الدين بعد أن خلف أباه في ولاية الحاج الشامي(٩٨) وكذلك أعطى صلاح الدين ثلثي اقطاع الامير سيف الدين علي ابن أحمد الشطوي لابنه عماد وأميرين معه(٩٩) .

وكان الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الكامل، اذا مات احد مماليكه وكان له ولد انعم باقطاع والده عليه وان لم يكن له ولد انعم به على خشداشيه(١٠٠) . واتبع مماليكه الترك من بعده هذه السنة(١٠١) .

الغاية من اتباع النظام الارثي تشجيع اصحاب الاقطاعات على البقاء على الجندية(١٠٢) والمقطع يحسن استغلال اقطاعه ويصونه ويحميه ويستبسل في قتال الاعداء أو الذين يريدون الاستيلاء على اقطاعه لانه يدافع عن حقوقه وارزاقه ، كما يزيده اندفاعا وحماسا وتفانيا في خدمة اقطاعه وزيادة انتاجه ، ولا يجد مبررا لسحب اقطاعه منه طالما يؤدي ما يطلب منه على الوجه الاكمل .

وربما لجأ بعض السلاطين الى هذا النظام الارثي خشية ادعاء بعض الابناء او الحفدة ،انهم أحق بالملك من غيرهم، فاذا ما ورثوا الاقطاعات سكتوا وكفوا عن المطالبة. فصلاح الدين كان يخشى من القاهر محمد بن شير كوه وهو ابن عمه من ان يدعي أحقيته بالملك لما كان لابيه من اياد بيضاء وفضل كبير على آل زنكي، فقد وطد اركان الدولة النورية وقارع الصليبيين في مواقع كثيرة فعمد صلاح الدين الى اقطاعه حمص وتدمر والرحبة والسلمية(١٠٣) وخلع عليه وكتب له منشورا بذلك ليأمن جانبه ويغض الطرف عن المطالبة بحقه في الملك .

ورغب البعض الاخر من السلاطين الايوبيين توريث الاقطاع خشية الفتنة والثورة اذا ما عزل الاقطاعي وتعين غيره ، وحدث مثل هذا في زمن الملك الكامل بن العادل الاول . لقد غضب عماد الدين احمد بن المشطوب لعزله وتمليك اخيه الفائز ابراهيم مكانه وذلك في سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م(١٠٤) .

وبالاضافة الى الخاصتين السابقتين كانت الزيادة في رواتب الجند احدى خصائص النظام الاقطاعي الايوبي فقد كان معظم السلاطين الايوبيين يوزعون الاقطاعات على اجنادهم ويعطونهم رواتب زيادة على ذلك فكان فرسان الايوبيين من الاكراد والاتراك يعطون اقطاعات ويتلقون الرواتب والخلع(١٠٥) ربما كان ذلك تأليفاللقلوب، وجمعاللشتات وحثا للمقاتلين على الصبر والثبات في ملاقاة الاعداء . وفي رواية ابن ابي طي نقلها عنه أبو شامة(١٠٦) تأكيد على ما قدمنا . تقول الرواية : فاراه جرائد(١٠٧) الاجناد ومبالغ اقطاعاتهم وتعيين جامكيتهم(١٠٨) ورواتب نفقاتهم(١٠٩) .

واجبات القطعين : القت الدولة على عاتق المقطعين تبعات ومسؤوليات ، والزمتهم تأديتها ويمكن اجمالها بالواجبات التالية :

أ ـ الواجبات المالية : كان الاقطاع الايوبي موردا من موارد الدولة اذ جرت العادة ان يدفع المقطع جزءا من دخله نقدا أو غلة بما يتناسب مع واردات الاقطاع، وكان يطلق على هذا الدخل «عبرة» وهي مقدار مايغله في السنة(١١٠) وقدر متوسط خراج الفدان من (٢ـ٣) أرادب(١١١) . ربما زاد او نقص بحسب الظروف ، ويحصل كل أردب من (٢ـ٣) دراهم ويلزم الفلاحون الى جانب هذا المقرر بتأدية ضرائب للانفاق على الاقطاع أو بعض الوظائف(١١٢) ومن الرسوم : رسم الاوقاف ورسم الجراريف (ماينفق على اصلاح الجسور) ورسم الاجران(١١٣) ورسم الحراسة ، ورسم الكيالة والمراعي والاتبان وغيرها . ولا يحق للمقطع ان يتصرف بكل ايرادات اقطاعاته من خراج الا اذا نص التوقيع على ذلك صراحة(١١٤) ومثال ذلك : في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ناب بمصر عن صلاح الدين تقي الدين عمر فصارت الاسكندرية ودمياط اقطاعا له . ثم أضيفت اليه البحيرة والفيوم وبوش ، على ان يكون واردها خاصته(١١٥) لا يدفع منه شيئا .

ب ـ الواجبات المدنية : يستخلص من الاشارات المبعثرة في المصادر ان المقطع كان مسؤولا عن زراعة الارض وسقايتها واختيار الفلاحين الاكفاء واعدادهم والاشراف على المحاصيل وجنيها ، وصيانة الجسور ، وكري القنوات وجباية الخراج وحفظ الامن داخل الاقطاع ، وجمع الجند الاقطاعي ، وتخصيص جزء من اقطاعه لكل واحد منهم سواء اكان الاقطاع كبيرا أم صغيرا(١١٦) وكان يتولى ذلك بنفسه .

جـ ـ الواجبات العسكرية : وهي ان يقدم المقطع عددا من الجند كاملي العدة ، وبجاهزية قتالية عالية لمساعدة الجيش السلطاني زمن الحرب . بتعهد كل مقطع قبل التوقيع له بالاقطاع بأن يكون معه عند خروجه للحرب عدد معين من الفرسان(١١٧) واعتاد السلاطين الايوبيون حرمان المقطع من اقطاعه اذا اخل بهذا الشرط(١١٨). ونضيف الى ما تقدم ما فعله صلاح الدين سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ، اذ قطع اقطاعات الامراء الهاربين اثناء محنة عكا(١١٩) .

كما اخذ العزيز عثمان بن صلاح الدين اقطاعات الامراء الذين اقامهم في الشام(١٢٠) لتخلفهم عن تقديم الجنود المقررين على اقطاعاتهم ، وكذلك سحب اقطاعات كل من الامراء الخيام وعلكان، وحجير الدين وصهره عز الدين ، والفقيه كمال الكردي، لانهم اخلوا بواجباتهم (١٢١) .

عيوب النظام الاقطاعي : ومن نقائص النظام الاقطاعي الايوبي أن المقطعين كانوا يذهبون الى اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحاصيل وتخزينها ، والتزم السلاطين بتلك المواعيد ، وكان لا بد أن يحسب لها حساب قبل الخروج للجهاد ، ونتج عن ذلك أن العناصر المناوئة للحكم الايوبي كانت تتحين مثل هذه الفرص للقيام بأعمال التآمر والشغب وتعكير صفو الامن،وحتى الثورة .. ففي رمضان سنة ٥٦٩هـ نيسان١١٧٤م تفرق العساكر الايوبية في جهات اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحصولات ولم يكن قد عاد منهم الى القاهرة الا العدد القليل(١٢٢) فانتهز انصار الفاطميين هذه الفرصة وحاكوا مؤامرتهم التي اشترك فيها الشاعر اليمني « عمارة» ضد صلاح الدين وكادت تنفذ لولا اكتشاف أمرهم .

ولما هاجم الاسطول الصقلي ميناء الاسكندرية من السنة نفسها ٥٦٩هـ/تموز ١١٧٤ م جاءت الامدادات من الاجناد الذين كانوا باقطاعاتهم القريبة من الاسكندرية(١٢٣) وان دل هذا على شيء فانما يدل على نقص في بنية النظام الاقطاعي العسكري .

ويعزي ذلك الى بعثرة الاقطاع في بعض الاحيان . لقد حرصت الدولة الايوبية بالرغم من كافة الخدمات المدنية والحربية التي يؤديها المقطع ، وكنتيجة للعلاقات العائلية والحروب ، الا يكون الاقطاع كتلة اقليمية واحدة يستطيع المقطع أن يستقل بها أو يزيد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وهذه من العادات الموروثة عن النظام السلجوقي. فقد كان المقطع يعطى اقطاعه في منطقتين متباعدتين . ومن امثلة ذلك : اقطاع الملك العادل في عهد اخيه صلاح الدين . كان جزء من هذا الاقطاع في الديار المصرية والجزء الاخر في البلاد الشامية والجزيرة وديار بكر وغيرها . كما كان اقطاع الامير شمس الدين العادلي مبعثرا بين مصر والشام (١٢٤).

نماذج من التوقيعات الايوبية .

كان المقطعون يعطون توقيعا باقطاعاتهم يتضمن الخطة التي يلزم المقطع بالسير عليها وقد اختلفت هذه التوقيعات من حيث اسلوبها ،وبخاصة افتتاحياتها ،تمشيا مع القيمة الاعتبارية لصاحب الاقطاع وحسب درجته ومكانته ، ومن هذه التوقيعات ما يخص الامراء الكبار ، والامراء الصغار ، والعناصر الممتازة من العسكريين .

وتعد توقيعات الامراء الكبار من الدرجة الاولى ، وهم كبار الامراء من البيت الايوبي وتفتتح عادة بعبارة « الحمد لله » ومن امثلتها نسخة صادرة عن صلاح الدين لاخيه العادل سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م باقطاعه أجزاء من الديار المصرية وبلاد الشام والجزيرة وديار بكر ، وما جاء فيه يجعله دستورا اقطاعيا : « الحمد لله » الذي جعل أيامنا حسانا وأعلى لنا يدا ولسانا وأطاب محتدنا أوراقا واغصانا . ورفع لمجدنا لواءا ولجدنا برهانا وحقق فينا قوله: « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا » .

وقد أحل صلاح الدين اخاه محله اللائق واعتبره وزيرا له ونائبا عنه . وعين له المناطق التي يحق له التصرف بها كيف يشاء « .. وقد جعلنا له من البلاد ماهو مقتسم من الديار المصرية والشامية وبلاد الجزيرة وديار بكر ليكون له من كل منها حظ تفيض يده في أمواله ويركب في حشد من رجاله . فيتسلم ذلك بيد معظم قدرا ولا يستكثر كثرا ويحمل رفدها غيثا وبحرا .. » وأوصاه بالعدل في الرعية والاحسان اليهم « وكذلك فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع وليجاوز بهم درجة العدل الىاحسان الصنائع » . ويشيد بمواقفه المشرفة في خدمة الدولة « فكم من موقف وقفه في خدمتنا فجعل وعره سهلا وفاز فيه بارضائنا » . وأما عن بلائه في قتال الاعداء « ويكفى من ذلك ما ابلاه في لقاء العدو الكافر الذي استشرى في هياجه وتمادى في لجاجه » . وكان يستفتيه ويستشيره في اموره كلها لسداد رايه : « وتلك وقائع استفتانا فيها برأيه الذي ينوب مناب الكمين في مضمره » .

ويتحدث عن تفشي الرشوة بين الناس «وقد فشا في هذا الزمن أخذ الرشوة وهو سحت (حرام) امر رسول الله بنبذه ونهى عن اخذه وعن الرغبة في تداوله وهو كالربا الذي قرنت اللعنة بموكله واكله » .

واما عن القضاء والقضاة « .. وأما القضاة الذين هم للشريعة أوتاد ولامضاء الحق اجناد ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق اليها النفاذ » .

ومن ادارة البلاد وتصريفها ورعاية شؤون سكانها « وذلك ان البلاد التي أضفناها اليك فيها مدن ذات أعمال واسعة ومعاقل ذات حصانة مانعة وكلها يفتقر الى استخدام الفكر في تدبيره وتصريف الزمان في تعبيره . فول وجهك اليها غير وان في تكثير قليلها وترويض مخيلها وبث الامنة على اوساطها واهداء الغبطة الى افئدة أهلها حتى تسمع باغتباطها . وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور ويتمثل بقوله تعالى « بلدة طيبة ورب غفور » .

ومن وصاياه ايضا حسن الجوار « .. واعلم انه قد يجاورك في بعضها جيران ذو بلاد وعساكر وأسرة ومنابر وأوائل للمجد وأواخر وما منهم الا من يتمسك منا بود سليم وعهد قديم وله مساعدة تعرف له حقها والحق يعرفه الكريم فكن لهؤلاء جارا يودون جواره ويحمدون آثاره » ويدعو له بالتوفيق والنجاح في مهمته في ختام التوقيع « وانت كوكبنا الذي نهتدي بمطلعه ومفتاحنا الذي نستفتح به المغلق ليمن موقعه والله يشرح بك صدرا وييسر لك امرا ويشد ازرنا بك كما شد لموسى بأخيه ازرا والسلام » (١٢٥).

وتفتتح توقيعات الامراء الصغار بلفظة ((أما بعد)) وتعد من الدرجة الثانية وتتضمن سبب تفضيل الامير واختياره لمهمة الامارة(١٢٦) .

« اما بعد ، فان لكل وسيلة جزءا وعلى كل نسبة مكانتها . وهي تتفاوت في اوقات وجوبها ومثاقيل ميزانها . وقد عجلنا لك من الاقطاع ما لا ترضى ان تكون شاكرا وجعلناه لك اولا وان كان لغيرك آخرا وهو مثبت في هذا التوقيع بقلم الديوان الذي اقيم لغرض الجند كتابا ولمعرفة ارزاقهم حسابا وهو كذا وكذا .. فتناول هذا التحويل الذي خولته باليمين مستمسك به استمساك الضنين » .

«واعلم انه قد كثر الحواسد لما مددناه من صنعك وبسطناه من ذرعك فأشبع حلوقهم بالسعي لاستحقاق المزيد وارق في درجات الصعود والزمهم صفحة الصعيد » . وعلى الصعيد العسكري . « .. ان الذي نأمرك به تعد نفسك للخدمة التي جعلت لهاقرنا. وانت بها أغنم وان تنتهي فيها الى الامد الاقصى دون الادنى . واذا استنفرت فانفر بثقال من الخيل وخفاف وكن مذخورا لواحدة يقال فيها « يا عزائم اغضبي ويا خيل النصر اركبي » . ويختتم بالدعاء بما هو أهله ((.. والله يشد بك أزرا ويملأ بك عينا وصدرا ويجعل الفرج مقرونا برأيك ورايتك حتى يقال : ومكروا مكرا ، وجردنا بيضا وسمرا والسلام ان شاء الله تعالى)).

وتفتتح توقيعات العناصر الممتازة في الجيش بالحث على الشجاعة والاستبسال وتعد من الدرجة الثالثة اقل من المرتبتين السابقتين(١٢٧).

وتبدأ : ((.. القلم والرمح قلمان كلاهما اسمر وكما تشابها في المنظر فكذلك تشابها في المخبر غير ان هذا يركب في عسكر من القول وهذا يحمل في عسكر . وقد نطق احدهما بالثناء على اخيه فأحسن في نطقه واقر بالفضيلة . ومن الانصاف ان يقر لذي الحق بحقه . ايها الامير فلان ايدك الله)).

ويشير التوقيع الى اختيار الامير « .. وقد اخترناك على بصيرة واجزيناك من اعتنائنا على اكرم وتيرة ورفعنا درجتك فوق درجة المعلى لمن سبقك وانها لكبيرة .. ولم يكن هذا الاختيار الا بعد اختبار لا يحتاج معه شهادة » .

ويعدد المنشور جانبا من صفاته ((.. ومثلك من تباهى الرجال بمكانه وتخلى له فضلة عنانه ، ويتسع القول في وصفه اذا ضاق بغيره سعة ميدانه وما يقال الا انك الرجل الذي تقذف الجانب المهم بعزمك وترمي برأيك قبل رماء سهمك . وبك يحسر دجى الحرب الذي اعوزه الصباح)).

وفيه وصايا هامة من حيث التأهب للقتال ومعاملة الاهلين بالحسنى ومعرفة ما يضرهم وما ينفعهم « .. وكن في التأهب للخدمة كالسهم الموضوع في وتره واصخ بسمعك وبصرك الى ما تؤويه فلا ائتمار لمن لم يصخ بسمعه وبصره . وملاك ذلك ان تكثر من فرسان الغوار وحماة الذمار . ومن أهم الوصايا اليك أن تضيف الى غناهم غنى يبرزهم في زهرة من اللباس ويعينهم على اعداد القوة ليوم البأس ويقصر لديهم شقه الاسفار التي تذهب بنزقات الشماس (الاباء) فانظر هذه الوصية نظر من طال على صحبه بالكف الاوسع وعلمه ما يضر فيهم وما ينفع والله يمنحك من لدنه توفيقا والسلام » .

اثر نظام الاقطاع على الاقتصاد الايوبي :

الزراعة : ان نظام وراثة الاقطاع الذي وضعه الايوبيون اتى اكله في بلاد الشام اذ جعل اصحاب الاقطاعات يهتمون بأراضيهم وانتاجهم . وتشدد صلاح الدين بالاشراف على المقطعين فلم يمنحهم اي حقوق ادارية وسياسية على سكان الاراضي المقطعة واحتفظ بهذه السلطة للدولة المركزية(١٢٨) ، وحماية الفلاحين من عسف وجور سادتهم منعهم من ترك اراضيهم(١٢٩) ، فأولوها عنايتهم واصبح القمح المورد الرئيسي للزراعة الشامية كما انتشرت زراعة الفواكه والقصب والقطن ، الا ان بعض الزراعات ومنها القصب كانت حكرا للدولة . وكثرة الحروب واندفاع الناس للدفاع عن بلادهم لم يقف حائلا دون ممارسة اعمال الزراعة التي هي احدى دعائم القوات العسكرية فقد عمد بعض الحكام الايوبيين الى ارسال قسم من الجند للقيام بأعمال الزراعة بينما بقى القسم الاخر في مواجهة العدو ، واعتنوا بنظام الري ، وأراحوا الارض وجددوا خصوبتها باستعمال الاسمدة . واستخدموا الادوات المناسبة ، وغدت الكرك مثلا ، في ايام الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الاول تضاهي دمشق في خضرتها وكثرة بساتينها وتدفق مياهها ، بل وطيب هوائها (١٣٠) . الا ان الحروب الاهلية بين أبناء البيت الايوبي من جهة وسوء تصرف الجباة من جهة ثانية كل ذلك كان في بعض السنوات يؤدي الى نقص الانتاج واعراض الفلاحين عن الزراعة .

المصـــادر والمراجـــع

١ـ ابن الاثير : علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (ت.٦٣٠هـ ، ١٢٣٢م) .
ـ الكامل في التاريخ طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٦، ١٩٧٥ .
ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية في الموصـــل . تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣ .

٢ ـ الاصفهاني : محمد أبو عبدالله ، عماد الدين الكاتب (ت٥٩٧هـ) الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح .

٣ ـ ابن تغري بردي : أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف بـن تغري بردي الاتابكي (ت ٧٨٤ هـ) .
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية .

٤ ـ الحموي (ابن واصل) : جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ) .
ـ مفرج الكروب في اخبار بني ايوب تحقيق جمال الدين الشـــيال . مطبعة جامعة فؤاد الاول ١٩٥٣ .

٥ ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت٨٠٨هـ).
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر .منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

٦ ـ ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت٦٨١هـ).
ـ وفيات الاعيان ١٢ جزءا القاهرة ١٢٩٩هـ و ٦ اجزاء القاهرة ١٩٥٠.

٧ ـ الخوارزمـي : ابو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي(ت٣٨٧)
ـ مفاتيح العلوم ، صنفه سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م طبعة القاهرة ١٣٤١هـ. ليدن ١٨٩٥م . وطبعة بيروت ١٩٨٤ ص ٣٩؛

٨ ـ الدواداري : ابو بكر عبد الله ابن ايبك (ت ٧٣٦هـ) .
ـ كنز الدر وجامع الغرر . ج١ تحقيق بيرندا رنكة القاهرة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م .

٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، كتاب الشـعب . يصدرها بالعربيـة . ابراهيم زكي خورشيد ورفاقه . المجلد الثاني ـ ماءة اقطاع .

١٠ـ ابو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت٦٦٥هـ).
ـ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (النورية والصلاحية) تحقيق محمد احمد حلمي القاهرة ١٩٥٦، وطبعة القاهرة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م.

١١ ـ ابن شداد: بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ).
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية نشره جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٦٤.
ـ من النوادر السلطانية. منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي اختار النصوص وقدم لها محمود درويش دمشق ١٩٧٩.

١٢ـ ابن الشدياق: طنوس بن يوسف الشدياق الحدثي الماروني ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩م
ـ اخبار الاعيان في جبل لبنان. بيروت ١٩٥٨.

١٣ـ ابن عساكر: ثقة الدين ابو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن عساكر (ت٥٧١هـ).
ـ تاريخ مدينة دمشق (٣)مجلدات ١، ٢، ١٠ تحقيق المنجد ودهان دمشق ١٩٥١.
ـ تهذيب ابن عساكر ٧ اجزاء. مطبعة روضة الشام دمشق(١ـ٥) ١٣٣٢ هـ ومطبعة الترقي دمشق ج٦،٧، سنة ١٣٥٠ هـ.

١٤ ـ ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ).
ـ تاريخ الدول والملوك (او تاريخ ابن الفرات) الاجزاء ٧،٨،٩ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين بيروت ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ المجلد ٤،٥ تحقيق الدكتور ـ حسن محمد الشماع ١٣٨٦هـ/١٩٦٧ م مطبعة حداد بصر وغسان.

١٥ـ ابن قاضي شهبة: بدر الدين (ت ٨٥١هـ).
ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي) تحقيق محمد زايد. دار الكتاب الجديد بيروت ـ لبنان ١٩٧١م.

١٦ـ القلقشندي: ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ).
ـ صبح الاعشى في صناعة الانشاء، نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية وزارة الثقافة والارشاد القومي. المؤسسة المصرية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.

١٧ـ ابن كثير: عماد الدين اسماعيل (ت٧٧٢هـ).

ـ البداية والنهاية ، طبعة جديدة ومنقحة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م وطبعة بيروت ١٩٧٧ .

١٨ ـ الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ).
ـ الاحكام السلطانية . طبعة القاهرة ١٩٠٩ . وطبعة انجربونا ١٨٥٢.

١٩ـ المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ) .
ـ التنبيه والاشراف بيروت ١٩٦٨.

٢٠ـ مسكويه : ابو علي احمد بن محمد . تجارب الامم وذيله ، القاهرة ١٩١٤وطبعة ١٩٢٠،١٩٢١ باعتناء امدروز ومرجليوث القاهرة واكسفورد .

٢١ـ المقريزي : تقي الدين احمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ).
ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار . القاهرة ١٩١١،١٩٢٤ وطبعة بولاق . اصدار دار التحرير للطباعة والنشر ١٩٦٧ـ١٩٦٨.
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر زيادة القاهرة ١٩٤٣ م .

٢٢ـ ابن مماتي : الاسعد بن مماتي (ت ٦٠٦هـ) .
ـ قوانين الدواوين جمع وتحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية . مطبعة مصر ١٩٤٣ .

٢٣ ـ النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ) .
ـ نهاية الارب في فنون الادب / ٢٨ جزءا / مكتبة الاسد .

٢٤ـ ابو يوسف : القاضي يعقوب بن ابراهيم (ت١١٢هـ).
ـ كتاب الخراج : ط٤ القاهرة ١٣٩٢هـ.

المراجع العربية :

١ ـ بيطار : امينة .
تاريخ العصر الايوبي . دار الطباعة الحديثة دمشق ١٤٠١هـ ـ١٤٠٢هـ ١٩٨١ـ١٩٨٢ .

٢ ـ الحموي : محمد ياسين : دمشق في العصر الايوبي ـ المطبعة الهاشمية بدمشق.

٣ ـ دباغ : مصطفى مراد ، بلادنا فلسطين ، الخليل (ط١) ١٩٧٢ ونابلس (ط١) ١٩٧٠ دار الطليعة بيروت .

٤ ـ دلــو : برهان الدين، التاريخ العربي الاسلامي . مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي . الفارابي ١٩٨٥ .

٥ ـ الدوري : عبد العزيز .
ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي بيروت ١٩٦٩ .
ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري مطبعة دار المعارف بغداد ١٩٤٨ م .

٦ ـ رافق عبد الكريم بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت دمشــق ١٩٦٧ .

٧ ـ ربيع حسنين محمد النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤ .

٨ ـ رفاعي (انور) النظم الاسلامية . دار الفكر ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م .

٩ ـ زكار سهيل : تاريخ العرب والاسلام منذ ماقبل البعث حتى ســقوط بغداد ، دمشق ـ دار الفكر ١٩٧٥ .

١٠ ـ زيدان جرجي. تاريخ التمدن الاسلامي . مراجعة حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٦، وطبعة دار الحيــاة .

١١ـ سبانو احمد غسان ، مملكة حماة الايوبية . دار قتيبة دمشق ١٩٨٤ .

١٢ـ سعد احمد صادق . تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي طبعــة اولى مطبعــة بيروت ١٩٧٩ .

١٣ـ سعداوي نظير حسان . التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين . مكتبــة النهضة المصرية ١٤٧٧هـ/١٩٥٧م .

١٤ـ سيد الاهل عبد العزيز . ايام صلاح الدين طبعة اولى ١٩٦١ . المكتبة التجاريــة للطباعة والتوزيع والنشر .

١٥ـ طرخان ابراهيم علي ، النظم الاقطاعية في الشرق الاوسـط في العصور الوسطى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

١٦ـ عاشور سعيد عبد الفتاح . مصر والشــام في عصر الايوبين والمماليك بــيروت ١٩٧٢ م .

١٧ ـ العريني (سيد الباز)
ـ المماليك بيروت ١٣٨٦هـ /١٩٦٧م .

ـ الشرق الادنى في العصور الوسـطى ـ الايوبيون ـ دار النهضـة بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٧٠.

١٨ ـ غوانمة يوسف درويش : امارة الكرك الايوبية . الناشر بلدية الكرك ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .

١٩ـ كحالة (عمر رضا) العالم الاسلامي /جزءان/ المطبعة الهاشمية بدمشق . الطبعة الثانية ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨م .

٢٠ ـ ابن يحيى ، صالح : تاريخ بيروت ـ تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي .دار المشرق . المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان .

ـ الكتب الاجنبية المترجمة ـ

١ ـ آ. اشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط فيالعصور الوسطى ترجمة عبد الهادي عيلة . مراجعة احمد غسان سبانو . مطبعة خالد بن الوليد ١٩٨٥ . دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع .

٢ ـ هاملتون حب : التاريخ الاسـلامي في العصور الوسطى . المركز العربي للكتـاب دمشـق .

٣ ـ ستانلي لين بول : الدول الاسلامية ـ القسم الاول ترجمة محمد صبحي فرزات. باشراف محمد احمد دهمان .

الحواشي :

(١) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٣٩.
(٢) مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٥ق٢ (الخليل) ص٧١.
(٣) الخراج مقدار من المال او الحاصلات يفرض على الاراضي التي صولح الاعاجم عليها وصاروا ذمة. والعشر ضريبة على الاراضي مقدارها عشر غلتها مالا او عينا .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثاني ص٤٧٦(مادة اقطاع).
(٥) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، طبعـــة انجربونا ١٨٥٣ ، ص ٢٣٠ – ٢٤٣ .
(٦) كلود كاهن ، تاريخ الشعوب الاسلامية، مجلد أول ص ١٧٧ .
(٧) محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي (رسالة دكتوراه) جامعة دمشق ١٩٨٧ ص١٤٥ .
(٨) ابن عساكر ، تهذيب ج٢ ص ٣٥٠.
(٩) ابو يوسف : كتاب الخراج ، ج٢ ص٦١–٦٢.
(١٠) انظر ، ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ص١١ .
(١١) المرجع نفسه ص ١١.
(١٢) الماوردي ، المصدر السابق ص ١٨٦ .
(١٣) الصوافي هي الارض التي تخلى عنها أصحابها ولحقوا بهرقل ، والتي أخذت من الاعداء بعد أن هربوا أو تتلوا أو أجلوا عنها . فعادت ملكيتها لبيت مال المسلمين، وللحاكم ان يتصرف بها عن طريق الهبة او الاقطاع او الاستغلال. انظر محمد زيود ، المرجع السابق ص١٣٢.
(١٤) السيد الباز العريني ، المماليك ، ص١٧١.
(١٥) ابراهيم طرخان المرجع السابق ص١٩٤.
(١٦) المرجع نفسه ص ١٩٧.
(١٧) العريني، المرجع السابق ص ١٧١.
(١٨) عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامي ، ج٢ص٧٠ .
(١٩) برهان الدين دلو ، التاريخ العربي الاسلامي، ص ٢٢٠ – ٢٢١ .
(٢٠) ابن مسكوية ، تجارب الامم ، ج٢ص٩٧وج٢ص١٦٥ . وانظر ايضا عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص٣١
(٢١) المصدر نفسه ج٢ص ٩٨،٩٩.
(٢٢) المصدر نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .
(٢٣) دلو ، المرجع السابق ص ٢٢٢.
(٢٤) طرخان ، المرجع السابق ص ٢١–٢٢.
(٢٥) الباز العريني ، المماليك ص ١٦٥ ، وانظر ايضا جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي، ج١ ص ١٧٤ .
(٢٦) ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٤. وانظر العريني ، المماليك ص ١٦٦ .
(٢٧) المقريزي الخطط ، ج١ص١٥٣–١٥٤.
(٢٨) الباز العريني ، المماليك ص١٦٦.

(٢٩) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج١ ص٨٤،١٠٠،١٢٩،١٣٠ .
(٣٠) المقريزي ، المصدر السابق ، المواعظ والاعتبار ، ج١ ص٨٦.
(٣١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤٩.
(٣٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ص ٢٢٢-٢٢٣.
(٣٣) الباز العريني ، الايوبيون ص ١٥٥ .
(٣٤) ابن الاثير، الكامل ،ص٢٢٧.
(٣٥) الدار في كتب التاريخ ، الناصرية ، او طائفة المماليك الخواص ، او جند الحلقة .
(٣٦) ابو شامة كتاب الروضتين. ج١ ص ٢١٧.
(٣٧) المصدر نفسه ج١ ص ٢٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ج١١ص ٢٨٤ .
(٣٨) سهيل زكار ، تاريخ العرب والاسلام ص٢٩٣.
(٣٩) عبد العزيز سيد الاهل ، ايام صلاح الدين، ص ٤٥.
(٤٠) المرجع نفسه ، ص ٤٥-٤٦ .
(٤١) ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣ص٦ .
(٤٢) العريني ، الايوبيون ص ١٩٢ .
(٤٣) المرجع نفسه ص ١٩٢ .
(٤٤) العريني ، المماليك ص ١٦٧ .
(٤٥) طرخان ، المرجع السابق ص ٤٠ .
(٤٦) المرجع نفسه ص ٤٣.
(٤٧) ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ص١٨٧.
(٤٨) المقريزي ، السلوك ج١ ص٩١ حاشية ٣. ويذكر ابن قاضي شهبة : وكانت عبرتها في هذه السنة ٥٦٥هـ مائتي الف دينار وست وستين ألف دينار . انظر الكوكب الدرية ص ١٨٧ .
(٤٩) ابو شامة ،المصدر السابق ج١ ص ١٨٤. ابن خلدون العبر ، ج٥ ص٢٩٣ .
(٥٠) طرخان ، المرجع السابق ص ٣٧.
(٥١) المقريزي ، السلوك ج١ ص ٤٨ .
(٥٢) ابو شامة ، المصدر السابق ج١ص٢٥٠.
(٥٣) ابن خلدون ،ج٥ص٢٩٠ . وانظر احمد غسان سبانو مملكة حماة الايوبية ص ٤٤ .
(٥٤) سبانو ص ٤٧.
(٥٥) ابن خلدون ج٥ ص ٢٩٢ . ستانلي لين بول. الدول الاسلامية القسم الاول ايوبية بعلبك رقم ٤٥ ص ١٦٤.
(٥٦) ستانلي لين بول ، ص ١٦٤.
(٥٧) المقريزي ، السلوك ج٢ ص ٨٢. ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٦ص١١٣.
(٥٨) طرخان ، المرجع السابق ص٣٨ . وانظر صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص ٤٠.
(٥٩) المقريزي ، المصدر السابق ج١ ص ١٥٢ .
(٦٠) انظر ما سبق ..
(٦١) طرخان المرجع السابق ص٤٠.
(٦٢) العريني ، الايوبيون ص ١٦٣ .
(٦٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٦ص١٣٧. المقريزي السلوك ج١ ص ١٢١.
ـ طرخان ، المرجع السابق ص ٤٣. اقطعه صيدا الملك غازي بن صلاح الدين لانه كان احد امرائه ثم أضيفت له نابلس .

(٦٤) امراء الغرب هم امراء جبل لبنان. وكان يطلق عليهم (بنو الغرب) وهم عرب قحطانية تملكوا في غرب لبنان ما عرف باسم الشف . واملاكهم منذ جدهم بحتر الاول مثبتة بمحاضر شرعية وأول منشور كتب لهم كان لبحتر بن علي عام ٤٥٢هـ / ١٠٤٧م من قبل ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق من السلاجقة . ثم منشور من قبل مجير الدين آبق من سلالة طغتكين بدمشق سنة ١١٤٧ م الى الامير بحتر بان يبقي على رسومه المستمرة في الضياع المنسوبة اليه في الغرب باسم ولده ويتناول الاموال الاميرية ويصرفها على الخدمة . (انظر صالح بن يحيى تاريخ بيروت ص ٩٠-٩٤ ، ظنوس ابن الشدياق : اخبار الاعيان في امراء لبنان ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

ومن هؤلاء الامراء أيضا جمال الدين حجي، حصل على منشور من نور الدين مع ثمانية نفر اخرين سنة ٥٦٠هـ ١١٦٥م، وزين الدين علي. انظر طرخان ، النظم الاقطاعية ص ٤٦٥ حاشية ١٢.

(٦٥) طرخان ، المرجع السابق ص ٤٤.

(٦٦) المرجع نفسه ص ٤٥ .

(٦٧) المرجع نفسه ص ٤٥.

(٦٨) انظر المرجع نفسه ص ٣٩٣ من اجل نص المنشور . وانظر ايضا صالح بن يحيى تاريخ بيروت ص ٥٥-٥٦ من اجل اسماء القرى الواردة في المنشور .

(٦٩) بن شداد ذيل ص ٢٧٢، ٢٨٣ . ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٠-٣١ وما بعد .

(٧٠) طرخان ، المرجع السابع ص ٤١ .

(٧١) العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ص ٩٦-١٢٠ .

(٧٢) شقيف ارنون قلعة حصينة في كهف الجبل قرب بانياس (أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج٦ ص ٤٢ حاشية ٣) .

(٧٣) ابو المحاسن، المصدر السابق ج٦ ص ٤٢-٤٣.

(٧٤) الداوية : سموا كذلك بالهيكلين مقامهم كان بجانب موقع هيكل سليمان بالقدس وقد شكل هذه الجماعة هيو دي باين سنة ١١١٩م واطلقوا عليهم « الرفقاء جنود المسيح الفقراء » في عهد بلدوين الثاني ، وكان غرضها دينيا يستهدف تأمين الحجاج في طريقهم بين يافا والقدس ثم تحولت هذه الجماعة الى هيئة عسكرية لمحاربة المسلمين(غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ص ١١٢ حاشية ٤٧).

(٧٥) الاسبتارية : أو فرسان القديس يوحنا(فرسان المشفى) تأسست من فرسان الصليبيين في عام ١٠٩٩م بعد الاستيلاء على بيت المقدس وكان هدفها الاول علاج المرضى وايواء الحجاج المسيحين ومساعدتهم ولكنهم تحولوا فيما بعد الى اغراض عسكرية ونذروا أنفسهم لمحاربة المسلمين (انظر غوانمة. امارة الكرك الايوبية ص ١١٣ حاشية ٤٨) .

(٧٦) ابن الفرات ، تاريخ ، المجلد ٤ ج١ ١٩٦٧ ص ١٤٧.

(٧٧) ربيع ، المرجع السابق ص ٦٢، ٦٣ .

(٧٨) المرجع نفسه ص ٨٠ .

(٧٩) النويري ، نهاية الارب ، ج٨ ص ٢٠٠-٢٠٢.

(٨٠) ربيع ، النظم المالية ص ٣٢٤ . احمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٤٣ .

(٨١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١١ ص ٣٢، ٣٤، و ج١٣ ص ١٤٤-١٤٨ وانظر فيما بعد أساليب التوقيعات الاقطاعية .

(٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١ ص ٨٦، ٨٧، وربيع المرجع السابق ص ٢٨ - المحروم غير المزروع- المشكور المزروع .

(٨٣) انظر : طرخان ، النظم الاقطاعية ص ٩٥.

(٨٤) المرجع نفسه ص ٩٥.

(٨٥) المرجع نفسه ص ٩٥ .
(٨٦) الروك : كلمة قبطية اصلها (روش) ومعناهاالحبل ثم استعملت للدلالة على عملية قياس الارض بالحبل وهي بدورها مشتقة من اللفظ الديموطيقي «روخ»ومعناهـا تقسيم الارض وقد اصطلح على استعمالها في مصطلح الادارة المالية فيمصر والشام في العصور الوسطى ، للدلالة على عملية قياس الارض وحصرها في سجلات وتسعيرهاوتقويم العقارات وغيرها من الاملاك الثابتة ومتعلقاتها كل ثلاثين سنة وهي غير ثابتة . واقتضىهذاالتوفيق بين السنة الخراجية (القمرية) والميلادية (الشمسية) وذلك بتقديم السنة القمريةسنة كاملة . ويرجع ذلك لوجود تفاوت بين السنتين القمرية والشمسية ، والقمرية هي المعتمدةفي جباية الخراج والروك الصلاحي نسبة الى صلاح الدين يوسف بن ايوب (انظر طرخان النظم الاقطاعية ص ٩٦) .
(٨٧) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج٢ص٦٢ .ربيع ، النظم المالية ص ٢٩.
(٨٨) المقريزي ، السلوك ج١ ص٦٤ـ٦٥.
(٨٩) محمد ياسين الحموي ، دمشق في العصر الايوبي ، ص ٤٧ـ٤٨.
(٩٠) اشتور ، المرجع السابق ص ٣٠٣.
(٩١) سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص ١٢٨.
(٩٢) حسنين محمد ربيع ، المرجع السابق ص٣٧.
(٩٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٤.
(٩٤) ابن العميد ، اخبار الايوبيين ص ١٥٩. النويري نهاية الارب ج٢٧ص٢٠٢ .
(٩٥) انظر ما سبق .
(٩٦) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج١ ص٨ . اشتور المرجع السابق ص ٣٠٢
(٩٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ص ٢١٠ـ٢١١ . ابن خلكان ،وفيات الاعيان ج٦ص١٧٢ .
(٩٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ج٢ ص ٢٥٢.
(٩٩) المصدر نفسه ص ٤١٠ـ٤١١ .
(١٠٠) الخشداشية هي الرابطة التي تربطالسلطان الحاكم ومماليكه .انظر عبد الكريم رافق .بلاد الشام ومصر ط١ (١٩٦٧ ص ١٥ وهي هناتعني مماليك الامير الاقطاعي .
(١٠١) ابن ايبك الدواداري ، كنز الدر وجامعالغرر ج٧ ص ٣٧١ حوادث سنة ٦٤٧ هـ.
(١٠٢) الباز العريني ، المماليك ص١٦٦ .
(١٠٣) طرخان ، المرجع السابق ص٢٩.
(١٠٤) المقريزي ، السلوك ج١ ص ١٩٦.
(١٠٥) اشتور ، المرجع السابق ص٣٠١.
(١٠٦) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج١ ص ١٩٦.
(١٠٧) الجريدة : سجل اسماء الجند . وهذا المقصود هنا ، وللجريدة معان كثيرة منها : جماعة الخيل (الفرسان) والصحيفة. وورقة النخيل. (انظر محمد خير ابو حرب المعجم المدرسي١٩٨٥ مادة جرد).
(١٠٨) الجامكية : كلمة تركية ، وهي الرواتب المحجوزة لشهر او اكثر وهي الرواتب عامة . وفي القلقشندي ان نفقة مماليك السلطان كانتعبارة عن جامكيات وعلوفة وكسوة وغيرذلك .
(١٠٩) هاملتون جب ، التاريخ الاسلامي ص ١١٢حاشية ١٦ ورواتب النفقات يقصد بها المصاريف والنفقات .
(١١٠) ربيع ، المرجع بلسابق ص ٣٢ .
(١١١) طرخان ، المرجع السابق ص ١٩٩ . والاردبمكيال ضخم بمصر يساوي٢٤ صاعا او هو ست ويبات والاردب اليوم ١٩٨ ليترا (انظر شذور العقود للمقريزي ١٩٦٧ ص ١٠٨) .

(١١٢) الباز العريني، الايوبيون ص ١٩٣.
(١١٣) الاجران : البيادر : المواضع التي يدرس فيها البر ونحوه وتجفيف الثمار .
(١١٤) الباز العريني ، المرجع السابق ص ١٥٧ .
(١١٥) المقريزي ، السلوك ج١ ص ٨٢-٩١.
(١١٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١ ص ٢٣-٢٤.
(١١٧) وبيع ، المرجع السابق ص ٢٥.
(١١٨) انظر ما سبق .
(١١٩) العماد الاصفهاني، الفتح القسي ص ٢٥١-٢٥٢.
(١٢٠) المصدر نفسه ص ٤٥٣ .
(١٢١) المقريزي ، السلوك ج١ ص١١٩.
(١٢٢) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج١ ص٢٢١، وانظر أيضا : ربيع، المرجع السابق ص ٢٩. العريني، الايوبيون ص ١٥٧.
(١٢٣) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٢٧٢.
(١٢٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ص ٢٧٢ . القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٤٦ .
(١٢٥) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص١٤٤-١٤٨ وبيع ، نظم ص ١٢٥ -١٢٦ . ملاحق رقم ٣.
(١٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١٣ ص ١٤٨-١٥٠ وبيع ، المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٩ ملاحق رقم ٤ .
(١٢٧) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١٣ ص ١٥٠-١٥٢ . طرخان ، المرجع السابق ص ٢٩١-٢٩٢،٢٩٤.
(١٢٨) احمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، ط١ ص٤٥٧.
(١٢٩) اشتور ، المرجع السابق ص ٢٣٢.
(١٣٠) غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ص ١٨١.

* * *